التراث السرياني

٢

أفراهاط
الحكيم الفارسيّ

سيرته . عصره . مؤلّفاته
فكره اللاّهوتي

بقلم
د. بولس الفغالي

دار المشرق
بيروت

التراث السرياني

٢

أفراهاط
الحكيم الفارسيّ

سيرته . عصره . مؤلّفاته
فكره اللاّهوتيّ

بقلم
د. بولس الفغالي

الطبعة الثانية

دار المشرق
بيروت

لا مانع من طبعه

بولس باسيم
النائب الرسوليّ للّاتين
بيروت، ١٤/١٢/١٩٩٠

جميع الحقوق محفوظة، طبعة ثانية ٢٠٠٢
دار المشرق ش.م.م.
ص.ب. ٠٩٤٦ - ١١
رياض الصلح، بيروت ٢٠٦٠ ١١٠٧
لبنان
http://www.darelmachreq.com

ISBN 2-7214-4981-8

التوزيع: المكتبة الشرقيّة
الجسر الواطي - سنّ الفيل
ص.ب: ٥٥٢٠٦ - بيروت، لبنان
تلفون: ٤٩٢١١٢ - ٥/٤/٤٨٥٧٩٣ (٠١)
فاكس: ٤٨٥٧٩٦ (٠١)
Email: libor@cyberia.net.lb

المقدّمة

يحتلّ الحكيم الفارسيّ مكانة رفيعة بين الكتّاب الروحيّين السريان القدماء. فقد وصلت إلينا آثاره كاملة وأرّخها كاتبها بيده فأضفى عليها ختم الصدق والصحّة. ما تركه لنا من آثار يمكن أن نسمّيه مقالات روحيّة أو أقلّه موجزًا في الحياة النسكيّة. وما يلفت انتباهنا في هذا التعليم هو طابعه المسيحيّ والكتابيّ. فأفراهاط الحكيم الفارسيّ لم يتأثّر بفلسفة أو بفكر غريب، وهذا نادر الوجود عند السريان وعند اليونان، فاعتبر نفسه «تلميذ الكتب المقدّسة». لا شكّ في أنّ أفرام هنّا الذي لم يذق سمّ حكمة اليونان ولم يَحِدْ عن بساطة الرسل. ولكن هذه التهنئة موجّهة في الواقع إلى أفراهاط، لا إلى أفرام الذي اهتمّ بالفلسفة اليونانيّة أقلّه ليحارب نتائجها القاتلة على وحدة الإيمان ونقاوته.

إلى هذا الحكيم سنتعرّف. لا شكّ أنّ عناصر حياته تبقى مجهولة، ولكن وصلت إلينا مقالاته التي تدلّنا على العصر الذي عاش فيه وعلى الصعوبات التي جابهها. سنقرأ هذه المقالات ونتسخلص طريقة تعامله مع الكتاب المقدّس، وفكره اللاهوتيّ الذي يتحلّى بالبساطة الإنجيليّة، وروحانيّته التي غذّت النسّاك والمتوحّدين في عصره.

سيرة حياته

لا نعرف الشيء الكثير من حياة أفراهاط الحكيم الفارسيّ، لا نعرف متى وُلد ولا متى مات. كلّ ما نعرف هو أنّه كتَب مقالاته في منتصف القرن الرابع، كما يقول هو نفسه في نهاية المقالة الرابعة عشرة وفي نهاية المقالة الثالثة والعشرين. أمّا أين وُلِد، ففي منطقة نينوى الموصل ودير مار متاي. لا يُخبرنا أفراهاط شيئًا عن حياته. أمّا المؤرِّخون القدماء فيكتفون بذكر اسمه والإتيان ببعض المعلومات القصيرة عن حياته. فلا يبقى لنا إلاّ أن نلتقط ما نقدر أن نلتقطه من مقالاته.

يبدو أنّ أفراهاط وُلِد في بداية القرن الرابع من والدَين وثنيّيَن. إرتدّ إلى الإيمان المسيحيّ فتنسّك، ثمّ صار رئيس النسّاك الذين يسمّونهم أبناء العهد وأبناء القيامة. ويبدو أنّه دخل في السلك الكهنوتيّ وصار أسقفًا.

برز اسم أفراهاط في زمن متأخّر وجاء الاسم مرتبطًا بلقب الحكيم الفارسيّ. وهذا اللقب نجده في زمن قديم، ويشهد على ذلك ما نقرأه في المخطوطات[1] وما يقوله الأسقف جورج العربيّ[2]

(١) نقرأ في نهاية المقالة العاشرة من القسم الأوّل من المخطوطة التي دُوِّنت سنة ٤٧٤: «تمّت المقالات (الرسائل) الأولى للحكيم الفارسيّ، وعددها عشر مقالات. المجد للأب والابن والروح القدس». نقرأ أيضًا في نهاية المقالة الثانية والعشرين من القسم الثاني من المخطوطة ب التي دُوِّنت سنة ٥١٠: «تمّت كتابة المقالة (الرسالة) الثانية والعشرين للحكيم الفارسيّ». ونجد اللقب أيضًا في بداية ونهاية المقالتَيْن الثانية والعشرين والثالثة والعشرين من المخطوطة أ التي دُوِّنت في القرن السادس.

(٢) توفّي سنة ٧٢٤، وله مقالة في أفراهاط.

إيشوعداد المروزي[٣] اللذان يكتفيان بذكر اللقب دون الاسم.

ولكن نهاية القسم الثاني من المخطوط ب[٤] يسمّي الحكيم الفارسيّ مار يعقوب. ويظهر هذا الاسم أيضًا في عبارة الإهداء كما يظهر في المخطوط ج[٥]. وهذا ما دفع البعض إلى الخلط بين يعقوب النصيبيني المتوفّى سنة ٣٣٨ وكاتبنا. هذا الخطأ وقع فيه المترجم الأرمني[٦] والتقليد الغربيّ مع جناديوس[٧]. ولكن التقليد السريانيّ يلقّب الحكيم الفارسيّ بالعظيم لا بالحكيم.

لا نجد اسم أفراهاط مرتبطًا بلقب الحكيم الفارسيّ إلاّ في أواسط القرن العاشر في قاموس ابن بهلول[٨]، أو خلال القرن الحادي عشر في التاريخ السعرديّ[٩]. أمّا إيليّا النصيبني[١٠] فيذكر

(٣) عاش ايشوعداد المروزي في القرن التاسع وكتب في شرحه لسفر اللاويّين (١٠: ١ ـ ٢): «قال الحكيم الفارسيّ: لأنّهم أهملوا خدمة القرابين» (المقالات ٣/٤). وكتب في شرحه لسفر يشوع: «قال الحكيم: قال مرّة ثانية: لأنّهم ختنوا بقلوبهم» (المقالات ٦/١١). راجع مجموعة الكتّاب المسيحيّين الشرقيّين رقم ١٧٩ صفحة ٨٩، ورقم ٢٣٠ صفحة ٧.

(٤) في نهاية المقالة الثالثة والعشرين.

(٥) كُتب المخطوط ج سنة ١٣٤٠، وهو أقرب إلى مخطوط أ منه إلى مخطوط ب.

(٦) قام بترجمته الأرمنيّة منذ القرن الخامس. في بدّاية الرسالة التي يسأل فيها القارئ كاتبنا، نقرأ ما يلي: «جواب القدّيس يعقوب النصيبيني إلى رسالة إستاخيس الأسقف، ابن القدّيس غريغوريوس المنير». راجع مجموعة الكتّاب المسيحيّين الشرقيّين، رقم ٣٨٣، صفحة ١.

(٧) قال جناديوس: «يعقوب الملقّب بالحكيم رجل شريف من نصيبين الفارسيّة وأسقف المدينة».

(٨) نقرأ عند ابن بهلول: «أفراهاط في كتاب الفردوس هو الحكيم الفارسيّ على ما يُقال».

(٩) يورد التأريخ السعردي أسماء الرجال العظام الذين عاصروا فافا أو باباس: أتناسيوس أسقف الإسكندريّة... أفراهاط الحكيم الفارسيّ.
راجع البترولوجيا الشرقيّة، عدد ١٧، صفحة ٢٩٢.

(١٠) عاش إيليّا النصيبني في القرن الحادي عشر.

الحسابات التاريخيّة بحسب رأي أفراهاط، الحكيم الفارسيّ. ويقول ميخائيل السريانيّ[11]: إشتهر أيضًا الحكيم الفارسيّ الذي كان مستقيم الإيمان وصنع كتاب المقالات. ويقول ابن العبريّ[12] في تاريخه الكنسيّ: في أيّام فافا، عُرِف الحكيم الفارسيّ الذي كان اسمه فرهد (أفراهاط). لنا منه كتاب تحريض في اثنتين وعشرين مقالة على عدد حروف الأبجديّة (السريانيّة). ونقرأ اسم أفراهاط في لائحة عبد يشوع، الذي توفّي سنة ١٣١٨، وفي المخطوط ج[13].

ماذا نستنتج من كلّ هذا؟ اسم يعقوب صحيح على الرغم ممّا قاله المترجم الأرمنيّ والقبطيّ[14] اللذين مزجا بين يعقوب مؤلّف المقالات ويعقوب النصيبينيّ الذي سمّي مخلّص المدينة (نصيبين) ومحارب الأريوسية بعد مجمع نيقية[15]. وكاتبنا من جوار دير مار متاي. لا نجد شاهدًا لقولنا في لائحة أساقفة نينوى، لأنّها أحرقت مع دير مار متاي على يد برصوما النصيبينيّ، لكنّنا نستخلص ذلك من محبّة أفراهاط ليونان بن متاي ولأهل نينوى الذين صاموا صومًا نقيًّا فلم يتشبّهوا ببني إسرائيل الأشرار[16]. ولكن ما هي العلاقة بين يعقوب وأفراهاط؟ لقد أخذ الحكيم الفارسيّ اسم يعقوب حين تنسّك. ثمّ إنّ أفراهاط[17] تقابل فرهد الفارسيّة وتعني الحكيم.

---

(١١) ميخائيل السريانيّ (١١٢٦ - ١١٩٩) كتب تاريخه الشهير.

(١٢) توفّي ابن العبريّ سنة ١٢٨٦. فرهد تعني في الفارسيّة القاضي والحكيم وصاحب الفهم والتمييز.

(١٣) نقرأ في المدخل: «بيد الله نكتب المقالة في خصلة العنب للحكيم أفراهاط الذي هو يعقوب مطران مار متاي. لتكن صلاته معنا وليقوّنا المسيح ويساعدنا لنكمّلها».

(١٤) تعود الترجمة القبطيّة إلى القرن الرابع عشر

(١٥) نذكر أنّ أريوس، وهو راهب من الإسكندريّة، أنكر لاهوت المسيح فحرمه مجمع انعقد سنة ٣٢٥ في نيقية بتركيا.

(١٦) رج ٣/٧. نعرف شهيدَيْن من أيّام شهبور اسمهما يعقوب.

(١٧) يذكر سنكسار سريانيّ قديم كُتب سنة ٤١٢ اسم شهيد اسمه أفراهاط. وتذكر =

وهكذا يتقابل الاسم واللقب عند هذا المعلّم العظيم الذي تشهد كتاباته على سعة علمه.

يبقى أنّ كاتب المقالات هو الحكيم بكلّ ما في هذه الكلمة من معاني. فمن الرسالة التي أرسلها شخص أُغفل ذكر اسمه نتعرّف إلى الجوّ الروحيّ: «ما هو الإيمان وما هو أساسه؟ أمّا أنا فأؤمن بإله واحد خلق منذ البدء السماء والأرض... وخلق آدم... وأرسل المسيح إلى العالم. فأطلب منك أن تبيّن لي ما هي الأعمال الضروريّة للإيمان». وسيجيب أفراهاط سائله على طريقة الكتبة الذين قرأوا الأسفار المقدّسة وفسّروها ففتحوا الحواس الروحيّة عند تلاميذهم. وألّف أفراهاط مقالاته على عدد حروف الأبجديّة السريانيّة (٢٢ حرفًا) كما تفعل الأسفار الحكيمة، فذهب يطلب الحكمة التي هي كنز الله، ليوزّع منها المعرفة بحسب إرادة الله. يقول: «تذكّر يا عزيزي ما كتبت لك في المقالة الأولى عن الإيمان: على مَن يأخذ مجّانًا أن يعطي مجّانًا، كما قال ربّنا: مجّانًا أخذتم فمجّانًا أعطوا. فمَن يحتفظ بشيء أخذه فالذي ناله يؤخذ منه. وأنا أرسلت إليك ما استطعت أن آخذه من هذا الكنز الذي لا ينقصه شيء... فالكنز الذي لا ينقصه شيء هو حكمة الله، وربّ البيت هو ربّنا يسوع المسيح... هو معطي الحكمة كما يقول الرسول: هو قوّة الله وحكمته»[١٨].

يُشبه أفراهاط الحكماء الذين يتكلّم عنهم التلمود والذين يسمّون أنفسهم «تلاميذ الحكماء» فيتوق كلّ واحد إلى أن يصير تلميذًا

= المراجع ثلاثة أساقفة بهذا الاسم، ويحدّثنا تيودورتيوس القورشيّ في تاريخه «أحبّاء الله» عن راهب كان اسمه أفراهاط، عرفه الكاتب وهو صبيّ. مهما يكن من الأمر، فإنّ هذا الراهب يشبه كاتبنا الذي ارتدّ إلى الإيمان المسيحيّ وتعلّم الكتب المقدّسة، فأمّه الحكماء والجهّال يطرحون عليه أسئلتهم.

(١٨) ١٠/٨. رج أيضًا ١٤/٣٤ - ٣٥؛ ٢٣/٥٣، ٦٨.

حكيمًا أو حاخامًا. أمّا أفراهاط فيسمّي نفسه «تلميذ الكتب المقدّسة» (٢٦/٢٢) فيبتعد عن العالم اليهوديّ. فبعد أن جاء المسيح وحلّ الروح القدس، صارت الكتب المقدّسة مكشوفة لجميع المؤمنين، ولم تعد محصورة بفئة من الناس هم أهل الكمال أو بشعب من الشعوب ولو كان الشعب اليهوديّ.

قلنا إنّ أفراهاط كان من أصل وثنيّ وارتدّ إلى المسيحيّة. ما الذي يدفعنا إلى هذا القول؟ بعض المقاطع من كتاباته. فقد قال في المقالة السادسة عشرة في اليهود: «غاروا منّا، لهذا لم يعودوا يعبدون الأصنام لئلاّ نلعنهم نحن الذين تركنا الأصنام وسمّيْنا كذبًا ما تركه لنا آباؤنا» (٧/١٦). وقال أيضًا (٢٠/٢): «منعنا الله من طريق الوثنيّين والسامريّين ووهب لنا القوّة برحمته». قد يتكلّم أفراهاط عن جماعته التي كان ينتمي إليها بعض الوثنيّين، لا عن نفسه. ثمّ إنّ الكاتب يستطيع أن يسمّي اليهود أيضًا جماعة وثنيّة. فخطيئة بني إسرائيل الكبرى هي عبادة الأوثان. وقد حاول الله مرارًا أن يمنعهم من السجود للأصنام، بواسطة موسى أو يشوع بن نون وغيرهما[١٩]. فنحن نستطيع أن نسمّي عابد أوثان ذلك الذي يُعلن بفمه أنّ الله واحد، في حين أنّ أعماله تخالف وصايا الله والوصيّة الأُولى بالأخصّ. قال أفراهاط في إسرائيل: «أعْطِي لهم عشرُ وصايا فأضاعوا الوصيّة الأُولى... وحين أضاعوا الوصيّة الأُولى، ما استطاعوا أن يحفظوا الوصايا التسع التي بعدها، لأنّ التسع ترتبط بالأُولى. كيف يمكن لمَن يسجد للبعل أن يحفظ الوصايا التسع»؟[٢٠]

أمّا الارتداد الذي يتحدّث عنه أفراهاط في المقالة السابعة، فما

---

(١٩) رج ٣/١٥، ٤، ٥؛ ٣/١٦. ٣/١٧.

(٢٠) ١١/١. رج ٦٢/٢٣: «إن اعترف إنسان بأنّ الله واحد وتجاوز وصاياه ولم يعمل بموجبها فاعترافه ليس حقيقيًّا».

هو انتقال من ملّة إلى ملّة ومن ديانة إلى ديانة، بل عبور من الخطيئة والجهل إلى التقوى والبرّ باعتراف بالخطايا يصدر عن قلب متواضع.

لا نتوقّف طويلاً عند أصله الوثنيّ الذي يبدو مدار جدل، لا سيّما وأنّ معرفته للكتاب المقدّس تبدو واسعة وشرحه للآيات عميقًا. بل نتأمّل ذلك المعلّم الروحيّ الذي نكتشفه في المقالات. يسأله الناس فيهتمّ بتساؤلات الجماعة. يطرحون عليه أمورًا وهم العائشون وسط عالم لا يزال متأثّرًا باليهوديّة فيجد البراهين ليُدافع عن المسيحيّة وليُبَيِّن أنّ الكنيسة ورثت غنى الشعب اليهوديّ وكلّ الشعوب. ويعيش ظروف الحرب والاضطهاد وقلق الناس على مصيرهم، فيحاول أن ينعش فيهم الإيمان والرجاء.

وكان أفراهاط راهباً، ولكنّه لم يكن من الذين اعتزلوا العالم حين كتب مقالاته. هو ناسك بين المتنسّكين وعضو من جماعة العهد أو أبناء القيامة. تحدث عنهم في المقالة السادسة فسمّاهم قدّيسين ومحبّي الوحدة. فالرجل الذي يريد أن يبقى في القداسة (أو العفّة) لا يقبل أن تسكن معه شريكة حياته، لئلاّ يعود إلى وضعه القديم، أي يوم كان متزوّجًا. فيجب أوّلاً على الإنسان الذي رضي أن يضع النير على نفسه أن يكون إيمانه متينًا وأن يجتهد في الصوم والصلاة وأن يشتعل بحبّ المسيح ويكون متواضعًا وديعًا عاقلاً، وأن تكون كلمته هادئة عذبة[٢١]. هذا هو الراهب في نظر الحكيم الفارسيّ. أمّا راهبنا فكان صاحب مركز رفيع بفضل خبرته الروحيّة ومعرفته للكتب المقدّسة. ويعبّر عن خبرته كمعلّم وربّ بيت يُحِس أنّ التعليم واجب من واجباته (١/١). وهذا التعليم ليس رأيًا خاصًّا يتفوّه به صاحبه، بل تعبيرًا عن عقيدة المؤمنين (٢٢/٢٦). وهكذا تبدو الفطنة علامة من علامات القائد، ولا سيّما حين يجب أن يتّخذ موقفًا في حالة

(٢١) رج ٦/٥، ٨، ١٩، ٧/٢٥. ١٠/٢٩.

سياسيّة خاصّة (٢٣/٥). هو الذي يبدو حازمًا تجاه الرعاة الذين ليسوا أهلاً لرسالتهم (المقالة الرابعة عشرة)، يبدو رحيمًا رؤوفًا للصغار والمساكين والخطأة. ولكن ما يثير انتباهنا هو حرّيّة تفكيره في الإدلاء بالأحكام والتعبير عن الإيمان الذي هو أساس كلّ تعليمه. هذا الحكيم كان أسقفًا كما قالوا، وهو الذي كلّم الرعاة في المقالة الرابعة عشرة. وعرض الإيمان في مقالاته كما كان يفعل الأسقف في ذلك الزمان. ولكنّه لم يفرض مرّة، بصفته أسقفًا، شريعة كنسيّة تُشعر المؤمنين بطمأنينة خاطئة في ما يتعلّق بخلاصهم. فهو يترك كلّ واحد وحرّيّة ضميره في قضيّة التوبة والصوم (المقالة الثالثة)، وفي أوقات الصلاة (المقالة الرابعة)، بل وفي الطريقة التي يحتفلون بها بالليتورجيا الفصحيّة. كلّ هذا يخضع لقاعدة واحدة هي قاعدة المحبّة. وهكذا نصنع كلّ يوم من أيّام الأسبوع ما هو حسن أمام الربّ إلهنا فنكفّ عن وضع البلبلة في جدال كلاميّ لا منفعة فيه، ونحفظ الوصيّة بقلب نقيّ (١٣/١٢).

متى مات أفراهاط وكيف مات؟ هذا ما لا نعرفه، ولكنّنا نفهم أنّه لقي الاضطهاد هو والأسقف الذي يتحدّث عنه. وإذا عدنا إلى المقالة الرابعة عشرة المؤرّخة في شباط سنة ٦٥٥ للسلوقيّين وسنة ٣٥ لشهبور، نكون في السنة المسيحيّة ٣٤٤. وإذا عدنا إلى ختام المقالة الثالثة والعشرين التي كُتبت في آب سنة ٣٤٥، نفهم أنّ الاضطهاد، الذي كان خفيفًا منذ خمس سنوات، اشتدّ في ذلك الوقت، وبالأخصّ بعد موت كاتوليكس المدائن: فيمكن أن يكون الأسقف قد مات في ذلك الوقت، أي في ١٤ نيسان من السنة ٣٥ لحكم شهبور. والمقالة الواحدة والعشرون، التي تتطرّق إلى الاضطهاد، قد تكون كُتبت في قلب تلك الحقبة الدمويّة، فامتلأت بكلام التشجيع.

الوضع الدينيّ والسياسيّ والاجتماعيّ في أيّام أفراهاط

كان أفراهاط ابن أربعين سنة تقريبًا حين كتب مقالاته. هذا ما نستنتجه من نضوج كاتبها ومن السلطة التي يعترف بها قرّاؤه. فإذا كُتبت المقالات في السنوات ٣٣٦ ـ ٣٤٥، يمكننا القول إنّ الحكيم الفارسيّ وُلد في نهاية القرن الثالث أو في الربع الأخير منه. فالتاريخ السعردي يُشير إلى أنّ الحكيم كان مشهورًا في أيّام فافا الذي تُوفّي ولا شكّ سنة ٣٢٩، بعد أن كان أسقف المدائن في السنة ٣١٠.

في هذا الوقت، الذي يمتدّ من النصف الثاني من القرن الثالث إلى نهاية النصف الأوّل من القرن الرابع، عرفت بلاد المشرق تأثير الأمبراطوريّة الرومانيّة وصعود نجم السلالة الساسانيّة في بلاد فارس. عن هذا الوضع السياسيّ والاجتماعيّ سنتحدّث في هذا الفصل، ونتوقّف في فصل لاحق عند الوضع الدينيّ. ففي هذه الحقبة تنظّمت كنيسة الفرس بأُصولها المجهولة في وجه الديانة الرسميّة واليهوديّة وسائر التيّارات الدينيّة من مانويّة ومرقيونيّة وغنوصيّة. ونُشير هنا بطريقة عابرة إلى أنّ الأزمة الأريوسيّة التي هزّت كنيسة الغرب لم تؤثّر في كنيسة أفراهاط التي ظلّت بعيدة عن طرق تفكير اليونان[1].

(١) أخضع الرومان نينوى سنة ٢٩٨، فكان يعقوب أسقفها عضوًا في مجمع نيقية وبطل الحرب على الأريوسيّة في الشرق، كما كان اثناسيوس الإسكندريّ في الغرب.

أ ـ الأمبراطوريّة الرومانيّة

ونبدأ بالأمبراطوريّة الرومانيّة التي سيطرت على الشرق والغرب ووصل تأثيرها إلى بلاد فارس. فالرومان أعداء الفرس منذ أجيال، منذ عهد الملوك الأرشاقيّين والساسانيّين. ولم تهدأ الحرب بين الاثنين إلاّ فترات متقطّعة على أثر معاهدة صلح بينهما. يخسر الفرس هذه المقاطعة أو تلك، أرمينية أو شمال بلاد الرافدين، فيتوقّفون عن الحرب ليعودوا إليها ساعة يستجمعون قواهم. ولكن، بعد استقالة ديوكليثيانس وبروز نجم قسطنطين في أعقاب انتصاره على جسر ميلفيوس، تبدّل الوضع بين الأمبراطوريّتَيْن، فكان صلح بينهما امتدّ سحابة أربعين سنة، من سنة ٢٩٨ إلى سنة ٣٤٠، وأصبح المسيحيّون في ذلك الوقت قوّة سياسيّة لم يستطع اضطهاد ديوكليثيانوس أن يقف في وجهها. وتحسّنت الحال مع قسطنطين، حين أصدر قرار ميلانو (سنة ٣١٣) وهو يعترف بوجود شرعيّ للكنائس المسيحيّة ويعامل كلّ الديانات بالتساوي. وبدا قسطنطين المدافع الأكبر عن الإيمان المسيحيّ، بعد أن جعل الصليب في رايته، وفرض أن يكون يوم الأحد يوم عطلة رسميّة (سنة ٣٢١) ودعا لانعقاد مجمع نيقية (٣٢٥) وبنى الكثير من الكنائس، لا سيّما في الأراضي المقدّسة. كلّ هذا جعل الأساقفة يخضعون له ويمجّدونه بعد أن دشّن سنة ٣٣٠ القسطنطينيّة، وهي رومة الجديدة ورمز المدينة الكاملة التي لبّن الإيمان المسيحيّ عاداتها وتصرّفاتها.

حين اطّلع المسيحيّون العائشون في بلاد فارس على الحالة السياسيّة الجديدة في الأمبراطوريّة الرومانيّة، وعلى الوضع الاجتماعيّ الذي ينعم به أخوتهم في الغرب، نسوا العدواة بين الرومان والفرس ونظروا إلى القسطنطينيّة نظرة حسرة وإعجاب: أترى حان الوقت الذي يأتي فيه ملكوت الله؟ أما تكون أيّام الحرب مقدمةً لمجيء

المسيح؟ ثمّ كيف نعتبر أعداءَ هؤلاء الجنود الذين يحملون علامة الصليب؟ وهكذا أخذ المسيحيّون الفرس المعرَّضون لكلّ اضطهاد يعتبرون أنّ الهجوم الرومانيّ وانكسار ملك الملوك وأعوانه يبشّر بعهد مسيحانيّ أنبأ به النبيّ دانيال الذي كان رهينة ملك فارس في الأيّام الغابرة. كلّ هذه الحالة تشير إليها المقالة الخامسة التي عنوانها الحروب.

ب ـ مملكة فارس

نعود إلى بلاد فارس حيث عاش أفراهاط. ففي ٢٨ نيسان سنة ٢٢٤، كانت معركة حاسمة بين الملوك الفرتيّين الأرشاقيّين والملوك الساسانيّين. سقط أرطبان، آخر ملك فرتيّ، وبدأ عهد أردشير، أوّل ملك في سلالة امتدّت حتّى الفتح الإسلاميّ لبلاد فارس سنة ٦٥١/٦٥٢. وتابع شهبور الأوّل (٢٤١ ـ ٢٧٢) حروب سلفه واستولى على مملكة حترا (أو الحضر) القابعة في الصحراء جنوبيّ غربيّ نينوى. ثمّ قام بحرب أولى مع الرومانيّ، فانتصر فيها على الأمبراطور جورج العربيّ وضمّ إلى سلطته مملكة أرمينية (سنة ٢٤٢) وغيرها، فسُمّي ملك ملوك إيران وغير إيران. وفي السنة ٢٦٠ كانت حرب ثانية مع الرومان وعلى رأسهم فليريانس. أُسر الأمبراطور وتُوفّي في الأسر في جنديسابور. واستعان الملك الفارسيّ بجيشه، ولا سيّما بالمهندسين، لبناء سدّ على كارون وقصر وغيره من المعالم. وما ان انتهى من الرومان حتّى قام شهبور بحملات على سورية وكبادوكية، ولو لم يهدّده أذينة، ملك تدمر وحليف رومة، لتابع زحفه.

مات شهبور الأوّل سنة ٢٧٢، فحلّ محلّه أبناه هرميزد (٢٧٢ ـ ٢٧٣) ووهرام الأوّل (٢٧٢ ـ ٢٧٥). ولمّا خلف وهرام الثاني والده وهرام الأوّل سنة ٢٧٦، بدأ نزاعه مع رومة، وتقدّم الأمبراطور

كاروس فوصل إلى المدائن. ولكنّه قُتل فيما بعد، وتراجع الجيش الرومانيّ، بعد معاهدة صلح (سنة ٢٨٣) حصلت فيها على مقاطعة أرمينية وبلاد الرافدين. خلف وهرام الثالث والده، ولكن حكمه لم يدم إلاّ أربعة أشهر، بعد أن أزاحه عن الحكم نرسه ابن شهبور الأوّل (٢٩٣ ـ ٣٠٢). وعادت المناكفات بين شهبور والأمبراطوريّة الرومانيّة، وانتهت بمعاهدة سلام دامت أربعين سنة. ولمّا تبوّأ هرميزد الثاني، ابن نرسه، الحكم، واجه صعوبات أزاحته عن العرش، فجاء شهبور الثاني (٣١٠ ـ ٣٧٩) الذي بدأ حكمه ولدًا بقيادة أمّه. بدأ الملك الشابّ يثبّت حكمه في وجه الفوضى والإقطاعيّة، وبسط سلطته حتّى على منطقة البحرَيْن. وبعدها سيستعدّ للهجوم على المناطق الرومانيّة.

ج ـ الحالة الاجتماعيّة

إذا كانت مقالات أفراهاط تمتدّ على حقبة صغيرة من الزمن (٣٣٦ ـ ٣٤٥)، وهي حقبة تجديد الحرب بين الفرس والرومان وبداية الاضطهاد الكبير، إلاّ أنّه تعرّف هو إلى هذه السنوات القلقة التي بدأت في أيّام وهرام الثالث ونرسه وامتدّت إلى أيّام شهبور الثاني. وفي هذا الوقت، تكوّنت بُنى دولة قويّة ومنظّمة، وتثبّتت ديانة الدولة وهي الزرادشتيّة. وتلاقت البُنى الإداريّة مع التشريع الدينيّ، فانقسم المجتمع إلى ثلاث حالات: الكهنة والمحاربون والفلاّحون. ولكن هذا التنظيم يرافقه نظام إقطاعيّ ورثة الساسانيّون عن الفرتيّين. وفي هذا النظام تقومُ زعامة الأرض بدور هامّ. والوظائف والكرامات تنتقل من الأب إلى الابن بالوراثة.

تألّفت الطبقة الأولى في الدولة الساسانيّة من أُمراء يحكمون المناطق النائيّة ويلقّبون ملوكًا. من هنا تسمية ملك إيران ملك الملوك.

وهناك زعماء يحملون لقب شاه، وحكّام (هم عادةً أبناء الملك) يحكمون المقاطعات ويتدرّبون على طرق الحكم. سبع عائلات مميّزة تتقاسم الحكم وتهدّد العرش مرارًا. لهذا، كان الملك يلجأ إلى الديانة ويستند إلى الكهنة ليثبّت مُلكه. منذ أردشير، بدأ الكهنة يجمعون نصوص الأفيستا بأمر من الملك، وسيضيف شهبور الأوّل نصوصًا أخرى. وسيثبّت النصّ نهائيًا في عهد شهبور الثاني، في تجمّع يعتبر الكتاب مؤلّفًا من أحد وعشرين سفرًا فقط.

نُشير هنا إلى أنّ أفراهاط لم ينتقد الأفيستا، ولم يذكر حتّى اسمها، لأنّ في ذلك خطرًا. فأيّة معارضة للتعليم الرسميّ اعُتبرت ثورةً على الحكم تُعاقَب عليها الكنيسة التي ينتمي إليها الحكيم الفارسيّ. لهذا فهو يكتفي بأن يذكر الشمس والنار والقمر والمياه، ودورها معروف في الديانة المزدية، ويعلن أنّ لا دور لها. فهذه الكواكب أو هذه العناصر هي خدّام كلّفها الله بوظيفة لتقوم بها من دون أيّ مبادرة من قِبلها. فهي تسير مسيرتها السابقة فتحرق الطاهر والنجس أو تجرف الطاهر والنجس. إليك ما يقول أفراهاط (٢٣/٦١): «يا ابن آدم، يا ترابًا من الأرض، لقد ولد عقلُك آلهة أخرى واخترع فكرك ما لم يره أحد. فما صعدت إلى فوق، بل أنت أسير الأرض، ولا نزلت إلى تحت لتعرف ما هناك... أسألك فقل لي: علامَ تقوم الشمس التي تراها؟ هل فيها نفس؟ هل فيها معرفة؟ هل فيها تمييز... الشمس والقمر هما كالماء والنار، لا يدرَكان ولا يميَّزان. مهما أعطيتَ النار لا ترذله، ولا تكره ما هو سيّئ أو بغيض. هي لا تعرف ما هو ثمين ولا تميّز ما هو حقير. والمياه هي كذلك، لأنّها مخلوقات لا تمييز لها. فالشمس والقمر والرياح والبروق والسحاب والنار والمياه، هذه كلّها مخلوقات لها مسيرة تسير فيها. صُنعت منذ البدء لخدمة العالم. وحين تسير مسيرتها، لا تمييز لها.

تأكل النار الزبل والنتانة ولا تقول: كفى، لأنّ هذا هو طبعها. وتشرق الشمس على الجثث والوحل وتتأجّج بقوّتها من دون تمييز. تجرف المياه كلّ نجاسة وتمتزج بالوحل الوسخ، وليس فها معرفة لذاتها... السماء والأرض صُنعت لخدمة العالم لا لخدمة نفسها».

لا شكّ في أنّ تعليم زرادشت لم يكن المشكلة الرئيسيّة في كنيسة أفراهاط. فجذور تعليمه يهوديّة أكثر منها فارسيّة. من أجل ذلك، تبدو المانويّة أكثر خطرًا من الزرادشتيّة، لأنّها تشوّه التعابير الإيمانيّة. فماني الذي تحدّر من عائلة إيرانيّة شريفة تعلّم عند المعمدانيّين في بلاد الرافدين، ثمّ درس التيّارات الدينيّة في عصره كالغنوصيّة والولنطينيّة، فألّف نظامًا دينيًّا يضمّ سائر الديانات ويُكمّلها. وارتبط ماني بالسلطة الحاكمة فدشّن نبوءته يوم توّج الملك شهبور الأوّل في الأوّل من نيسان سنة ٢٤٢. لذلك استقبله ملك الملوك بحفاوة وسمح له أن يُلقي مواعظه فشايعه أتباع كثيرون. وترك كتبًا عديدة منها الإنجيل الحيّ الذي يتألّف من اثنين عشرين قسمًا على عدد حروف الأبجديّة والذي يتضمّن معرفة يوحي بها «المخلّص الإلهيّ» لذويّ الإرادات الصالحة. أفيكون تعليم الحكيم الفارسيّ في اثنتين وعشرين مقالة جوابًا على هذا الإنجيل الحيّ؟ وكما قسّم ماني الناس إلى مختارين وبسطاء، قسّم أفراهاط المؤمنين إلى مسيحيّين عاديّين وإلى «بناي قيومو» أو أبناء العهد، وأبناء القيامة والمتنسّكين. فالمختارون المانويّون كانوا يتمرّسون بحياة من النسك، فلا يأكلون لحمًا ولا يشربون خمرًا ولا يملكون من الطعام إلاّ ما يحتاجون إليه في يوم واحد، ومن اللباس إلاّ ما يحتاجون إليه في سنة كاملة. أمّا يشبه المتنسّكون الذين يكتب إليهم أفراهاط هؤلاء المختارين المانويّين؟

في هذا الإطار ستجد المسيحيّة التعبير عن إيمانها. ولن ننسى

أيضًا نشاط المدارس اليهوديّة التي بدأت تدوّن التلمود البابليّ في هذه الحقبة واتمّته حوالي السنة ٥٠٠. أمـام هذه النهضـة الروحيّـة، بدا الأدب المسيحيّ حقيرًا. من أجل ذلك، كتب أفراهاط وسيكتب أفرام وغيره.

الوضع الدينيّ في أيّام أفراهاط

وننتقل من الوضع السياسيّ إلى الوضع الدينيّ فنتعرّف إلى كنيسة المشرق في عهد أفراهاط، كما تبدو من خلال مقالاته، ونكتشف أبناء العهد أو أبناء القيامة، هؤلاء المتنسّكين الذين يلزمون نفوسهم بحياة رهبانيّة من نوع خاصّ تنبع من المعموديّة التي قبلوها.

أ ـ وضع الكنيسة في أيّام أفراهاط

كيف بدأت الكنيسة في بلاد فارس؟ سؤال لا نستطيع الإجابة عليه لقلّة الوثائق. أمّا المراجع التي بين أيدينا فهي أقرب إلى الأسطورة منها إلى الحقيقة. وماذا نعرف عن أيّام أفراهاط؟ خلافات داخل الوطن الواحد بسبب تباين في الرأي وفي اللغة، ومسائل تُمتُّ إلى السلطة والأولويّة: لأيّة مدينة حقّ التسلّط على سائر المدن؟ كما كانت أنطاكية رأس الأسقفيّات في سورية، والإسكندريّة في مصر، فهل يمكن أن تقوم المدائن بالدور عينه؟ لذلك حاولت كلّ مدينة أن ترتبط باسم رسول من الرسل الاثني عشر أو أقلّه باسم تلميذ من التلامذة السبعين. وهكذا حين حاول فافا أن يؤكّد أولويّة المدائن على سائر الأسقفيّات في بداية القرن الرابع، وجد معارضة شديدة. فأعلن أنّ المدائن ترتبط بالرسول توما، مبشّر الشرق، عبر سلسلة من الأساقفة يوردها إيليّا الدمشقيّ (+ ٨٩٠) على الشكل التالي: أداي، ماري، عبريس، إبراهيم، يعقوب، أحد أبوهي، تومارسا، فافا.

وهذه اللائحة سترد أيضًا في كتاب المجدل وعند سليمان البصريّ وأبي الفرج ابن العبريّ.

أيّ قدر من الصحّة في هذه الكلمات؟ ليس هذا السؤال بمهمّ، بل المهمّ هو أن نلاحظ أنّنا أمام فئتَيْن من الأساقفة: تلاميذ الرسل المباشرون، مثل أداي وماري وحجاي، وهم الذين بشّروا الرُّها والمناطق المجاورة لوادي دجلة، وأقرباء المسيح مثل عبريس وإبراهيم ويعقوب. يقول ابن العبريّ إنّ ماري أمر تلاميذه أن يذهبوا إلى أورشليم ليأتوه من هناك بمَن يخلفه. فكان عبريس، أخو يعقوب الصدّيق وأسقف أورشليم. إختار عبريس شمعون، ابن أخي يعقوب وخلفه على كرسيّ أورشليم. أمّا إبراهيم ويعقوب، اللذان خلفا عبريس، فقد أُرسلا من أورشليم لأنّهما قريبان ليوسف النجّار.

هذا الاختيار ربط كنيسة فارس بأوساط المتهوّدين[1] في فلسطين، المرتبطين بالهيكل والتقاليد المسيحانيّة الداوديّة. ولا ننسَ أنّ أخوة يسوع وأبناء يوسف قاموا بدور في بداية المسيحيّة الأولى[2]. لاحقهم ديوكليثيانس، ثمّ تركهم، فكانوا مكرَّمين كشهداء وأقارب المسيح حتّى عهد تراجان، وقد امتدّ تأثيرهم إلى سورية وشرقيّ الأردن، إلى بلاد دمشق وبيره. وستتخلّى عنهم الكنيسة في الغرب، أي في أنطاكية. أمّا كنيسة فارس فتعتبر نفسها وريثتَهم، وقد وصلتها البشارة من مجمع إلى مجمع، فأخذت عنهم مثال القداسة والتقوى والنسك التي تحلّت بها عائلة يوسف ويعقوب الصدّيق كما تحلّى بها الأبيونيّون والمعمدانيّون. وهكذا ستستقلّ المدائن منذ القرن الثاني،

---

(١) المتهوّدون: المسيحيّون من أصل يهوديّ، ظلّوا متعلّقين بالتقاليد والممارسات اليهوديّة (الختان، السبت).

(٢) نلاحظ عدد الأناجيل المنحولة على اسمهم: إنجيل يعقوب، إنجيل سمعان، إنجيل يهوذا.

وسيسمح أساقفة الغرب لأسقفها أن يكرَّس فيها ولا يأتي إلى أنطاكية.

إرتبطت كنيسة فارس بعالم المتهوّدين، ولكنّها تكوّنت أيضًا من المسيحيّين الذين جلاهم شهبور الأوّل وخلفاؤه من المقاطعات الرومانيّة الواقعة غربيّ الفرات لبناء المدن والجسور والقلاع. وكان مسيحيّون من أصل فارسيّ، تأثّروا بالمتهودين أو بهؤلاء الخاضعين لنفوذ أنطاكية. هذا هو المناخ الذي دُوّنت فيه مقالات أفراهاط.

ولا ننسَ أنّه حين كتب أفراهاط، كانت الجماعة المسيحيّة هناك عرضة للاضطهاد. فبعد قرار ميلانو (سنة ٣١٣) والخلافات التي قامت بين الأمبراطوريّة الرومانيّة والمملكة الفارسيّة، بدأ الاضطهاد، وازداد حين كتب قسطنطين إلى شهبور رسالة من أجل المسيحيّين في بلاد فارس. فاعتبر الملك أنّ المسيحيّين خونة، إن لم يكن في الحاضر ففي المستقبل. ودفع المجوس الملك إلى هذا التضييق الذي بدأ بعد موت قسطنطين حوالى السنة ٣٤٠. إتّخذ شهبور قرارًا فرض جزيتَيْن على المسيحيّين ليغطّي نفقات الحرب، فرُفض القرار. فأمر الملك بأن تُنجَّس الكنائس وتُدمَّر وأن يُرسَل المسيحيّون إلى السجن أو الموت. ولقد قابل أفراهاط هذا الاضطهاد بما فعله ديوكليثيانوس الأمبراطور الرومانيّ في الغرب فقال: «وبعد الرسل، كان هنا وهناك أُناس معترفون، وبرز شهداء حقيقيّون. فعند إخوتنا في الغرب، وفي أيّام ديوكليثيانوس، كان ضيق عظيم واضطهاد لكلّ كنيسة الله، فدُمّرت كنائس واقتُلعت. وكان معترفون وشهداء عديدون. ومن بعد أن ضُربوا، رجع الربّ إليهم بالرحمة. وفي أيّامنا تحدث لنا الأمور عينها من أجل خطايانا» (٢١/٢٣). كتب أفراهاط هذا الكلام في مقالته عن الاضطهاد، وسيعود في «خصلة العنب»، وهي المقالة الثالثة والعشرين، إلى الحالة التعيسة التي يعيشها الشعب المضطهَد فيقول في صلاته: «ترأف أيُّها الربّ بشعبك المستعبَد، ترأف بنا نحن الطالبين

واستمع إلى صلاتنا. خُرِّب معبدنا ودُمِّر موضع عبادتنا. هلك كهنتنا وفُرض الصمت على رئيسنا. عذارانا مذلولات ونسّاكنا مشتّتون. ترأف أيُّها الربّ، ترأف بالمساكين واللاجئين والمرهقين الذين ليس لهم راحة ولا بيت يسندون فيه رأسهم. الطرق قاحلة والسبل ملغاة، عيوننا مظلمة وقلوبنا بائسة، فاسمع صلاتنا واقبل طلبتنا. نحن أذنبنا وعانداناك، فأنت ترأف بنا من أجل اسمك العظيم. ليس لنا اتّكال آخر ولا رجاء ولا راحة خارجًا عنك» (٢٣/٥٥).

كان الاضطهاد قاسيًا جدًّا ولم يرحم أحدًا، حتّى خصي الملك أواستازاديس. ومات أيضًا شمعون ابن الصبّاغين وخَلَفاه على كرسيّ المدائن شهدوست وابن باشمين. وطال الاضطهاد فامتدّ أربعين سنة واعتبر المؤرّخ سوزومينس[٣] أنّ القتلى كانوا ستّة عشر ألفًا من الشرفاء. أمّا عامّة الشعب الذين ماتوا فهم لا يُحصَون. وقد يكون أفراهاط واحدًا منهم.

ب ـ المقالات أجوبة على وضع الكنيسة

تعكس المقالات هذه تلك الحالة الدينيّة التي تحدّثنا عنها. فأفراهاط يكتب رسائل مناسبات فيجيب صديقًا أو جماعة من الإخوة يعانون الضيق ويتساءلون. ولكن نلاحظ أنّ هذه المقالات تبدو رسائل مغفلة. هي لا تذكر اسم شخص من الأشخاص ولا اسم مكان من الأمكنة. هي لا تنتقد الممسكين بالسلطة الدينيّة أو السياسيّة. لا شكّ أنّ القارئ يعرف الأشخاص والأمكنة والظروف وهو لا يحتاج إلى إيضاح مثلنا. ثمّ لا ننسَ إنّنا تحت حكم متسلّط، فهو يلاحق الكاتب أو الإخوة إن عُرفوا. ولقد تحفّظ أفراهاط، حتّى امتنع عن ذكر أسقف المدائن الذي يعرفه قارئوه. يتّهمه أفراهاط بأنّه

(٣) مؤرّخ كنسيّ، عاش في القرن الخامس.

يتعامل مع الملوك (٨/١٤). أمّا مستشاروه فيحكمون على إخوتهم. ويكتفي أفراهاط بالقول: «ليسمع الحكيم ويفهم» وكأنّي به يقول: لا أقدر أن أوضّح الأمور أكثر من ذلك.

ولكن، في هذا الجوّ الذي يسيطر عليه حكم متعسّف وحرب واضطهاد، يرى الكاتب أنّ الجماعة لا تتصرّف باستقامة إيمان. فهناك مسيحيّون يتجنّبون أن يحيُّوا إخوتهم لئلاّ يصيبهم سوء من ذلك أو يخسروا مركزًا. قال أفراهاط: «إن التقى أخ بأخيه، يميل بوجهه ويرفض أن يسلّم عليه. وإن حصل أن التقى بوثنيّ شرّير، اقترب وبادره السلام. إن التقى بنا رجل إثم شرّير وغنيّ، ركعنا أمامه وبادرناه بالسلام، ولكن لا نسلّم على إخوتنا وأعزّائنا! الشرّير بحسده يمنعنا من ذلك. أمَرنا ربّنا: أحبّوا بعضكم بعضًا. ونبّهنا الرسول الفاضل على الحبّ. وقال موسى، أساس الأنبياء: «لا تبغض أخاك في قلبك لئلاّ تخطأ. ولكن بعضًا منّا يبغضون في قلوبهم ويُخرجون الكلمات الطيّبة من شفاههم» (٤٤/١٤). ويتسكّع المؤمن لدى السلطات ويحاول أن يُشبع طمعه ولو على حساب الضعفاء. ثمّ إنّ السلك الكهنوتيّ صار مرادفًا للارتفاع في السلّم الاجتماعيّ. قال أفراهاط: «لا نجد في زمننا مَن يسأل: مَن هو الذي يخاف الله؟ بل: مَن هو الأقدم بوضع الأيدي؟ فإن قالوا: فلان أقدم، قالوا له: يليق بك أن تجلس إلى رأس المائدة. وليس مَن يتذكّر كلام المخلّص، حين وهب الويل للكتبة والفرّيسيّين... فيا إخوتنا، إنّ الألقاب لا تُدخلنا في الحياة ولا تُنجينا من الموت. الأعمال بدون ألقاب تنجّي الذين يعملون بها. والألقاب بدون أعمال صالحة لا تُفيد ولا تَنفع شيئًا» (٢٥/١٤). لا نعجب من هذا ولو كان في زمن الاضطهاد. فشمعون ابن الصبّاغين كان صديق شهبور الثاني، وكان ملك الملوك يراقب بواسطته كلّ كنيسة فارس. ولكن إن حاول أحد المسيحيّين التملّص، سلّمهم رعاتهم إلى السلطة المدنيّة. ترك القهارمة الحبّ والسلام

والصداقة وفضّلوا أن يأخذوا السلاسل والقيود، فصاروا حارسي سجون ومدّعين في المحكمة ومعذّبين (١٤/٤٤). على مطران المدائن أن يُرضي الملك ليحافظ على مركزه. هذه هي القاعدة التي تسيّر حياته، وهو مستعدّ أن يمنع كلّ تمرّد في شعبه. فهو يتمتّع بكلّ نفع ماديّ، لهذا فهو عرضة لحسد الطامعين، ولمؤامرة الأقوياء وفقدان نعمة الحاكم والملك. هذا ما حدث لشمعون ابن الصبّاغين.

ولنقرأ بعض هذا الكلام الإنجيليّ الذي يوجّهه أفراهاط إلى الرعاة. «فيا أيّها الراعي الذي لا يعرف كرامته، أنت مَن أنتَ لتدين عبدًا ليس لك؟ فإن ثبت فلربّه، وإن سقط فلربّه يسقط، ولكنّه سيثبت ثباتًا. فإن كنت لا تستطيع أن تبرر نفسك، لماذا تخطئ باستمرار؟ إن كنت ترتفع عليّ بضميرك وتقول: أنا عليك معلّم وملك، فإن لم أقبل بك وضعتني في القيود. كيف تعلّمني التواضع وأنت ترتفع وتتباهى وتنتفخ؟ وكيف تعلّمني فتقول: أحبّوا بعضكم بعضًا، وأنت مملوء بغضًا وغضبًا؟ وكيف تعلّمني فتقول: إن أخذ أحد مالك فلا تطالبه به وأنت تطلب بما هو لك وتأخذ الفائدة؟ وكيف تعلّمني العفّة وأنت عاهر ثرثار ومتجبّر؟ وكيف تعلّمني أن أترك هذا العالم وأنت سقطت فيه واختنقت؟... وكيف تعلّمني أن أخفّف عن المساكين وأنت تضطهد المساكين زملاءك؟ وكيف تعلّمني أن أغفر ما في قلبي وأنت تحتفظ في داخلك بالخمير العتيق؟ وكيف تعلّمني أن أسالم أخي وأنت تبلبل العالم الواسع؟... نلت الفضّة وكدّستها وسلّم إليك المفتاح فاغلقت الباب» (١٤/٢٦).

لا يرى أفراهاط خيرًا في أن تكون الكنيسة خاضعة للحاكم، ولكنّه لم يعش الحلم السياسيّ الذي عاشه معاصروه فرأى في الأمبرطوريّة الرومانيّة، التي صارت مسيحيّة، علامة لمجيء المسيح. المُلك يعود في النهاية إلى يسوع المسيح (٥/٢٤). هذا الحلم عاشته

والصداقة وفضّلوا أن يأخذوا السلاسل والقيود، فصاروا حارسي سجون ومدّعين في المحكمة ومعذِّبين (١٤/٤٤). على مطران المدائن أن يُرضي الملك ليحافظ على مركزه. هذه هي القاعدة التي تسيّر حياته، وهو مستعدّ أن يمنع كلّ تمرّد في شعبه. فهو يتمتّع بكلّ نفع ماديّ، لهذا فهو عرضة لحسد الطامعين، ولمؤامرة الأقوياء وفقدان نعمة الحاكم والملك. هذا ما حدث لشمعون ابن الصبّاغين.

ولنقرأ بعض هذا الكلام الإنجيليّ الذي يوجّهه أفراهاط إلى الرعاة. «فيا أيّها الراعي الذي لا يعرف كرامته، أنت مَن أنتَ لتدين عبدًا ليس لك؟ فإن ثبت فلربّه، وإن سقط فلربّه يسقط، ولكنّه سيثبت ثباتًا. فإن كنت لا تستطيع أن تبرر نفسك، لماذا تخطئ باستمرار؟ إن كنت ترفّع عليّ بضميرك وتقول: أنا عليك معلّم وملك، فإن لم أقبل بك وضعتني في القيود. كيف تعلّمني التواضع وأنت ترفّع وتتباهى وتنتفخ؟ وكيف تعلّمني فتقول: أحبّوا بعضكم بعضًا، وأنت مملوء بغضًا وغضبًا؟ وكيف تعلّمني فتقول: إن أخذ أحد مالك فلا تطالبه به وأنت تطلب بما هو لك وتأخذ الفائدة؟ وكيف تعلّمني العفّة وأنت عاهر ثرثار ومتجبّر؟ وكيف تعلّمني أن أترك هذا العالم وأنت سقطت فيه واختنقت؟... وكيف تعلّمني أن أخفّف عن المساكين وأنت تضطهد المساكين زملاءك؟ وكيف تعلّمني أن أغفر ما في قلبي وأنت تحتفظ في داخلك بالخمير العتيق؟ وكيف تعلّمني أن أسالم أخي وأنت تبلبل العالم الواسع؟... نلت الفضّة وكدّستها وسلّم إليك المفتاح فاغلقت الباب» (١٤/٢٦).

لا يرى أفراهاط خيرًا في أن تكون الكنيسة خاضعة للحاكم، ولكنّه لم يعش الحلم السياسيّ الذي عاشه معاصروه فرأى في الأمبرطوريّة الرومانيّة، التي صارت مسيحيّة، علامة لمجيء المسيح. المُلك يعود في النهاية إلى يسوع المسيح (٥/٢٤). هذا الحلم عاشته

اليهوديّة أيضًا في تلك المنطقة، وقد أعلن أحد المعلّمين أنّ السلطة الروحيّة فوق السلطة السياسيّة، فأُوقف حالاً ونُفّذ فيه حكم الإعدام.

يعتبر كلّ من أسقف المدائن وحاخامها أنّه من نسل داود وأنّه يرتبط بأرض فلسطين، ولكنّهما في الواقع موظّفان مرتبطان بالبلاط الملكيّ. فإن خضعا، خدم خضوعهما السلطة الملكيّة، وإن تمرّدا، بل وإن ضعفا أو تراخيا، يُحسبان خائنَيْن ويكونان أوّل الضحايا.

لا، قال أفراهاط، ليس يسوع ملك اليهود. إنّه ملك كلّ الشعوب (١٦/٢١). هو لا يرتبط بشعب خاصّ ولا بوطن خاصّ، لأنّ الكون كلّه له. فنحن لا نرى في كتاب المقالات كلمة الناصرة أو الناصريّ. فأفراهاط لا يريد رباطًا مادّيًّا بين اليهوديّة والمسيحيّة، لئلاّ تقع الجماعة في المُمارسات اليهوديّة من ختان وسبت وقواعد طهارة، ولئلاّ تعيش أحلام إعادة بناء الهيكل. إذا كان أفراهاط يقول مثل هذا الكلام، فلأنّ هذه الأحكام اليهوديّة ظلّت قويّة في جماعته. وهو يقدّم براهينه انطلاقًا من الكتاب المقدّس، لأنّ المسيحيّين واليهود يعتبرونه شريعة الله وكلمته، ومنه يستقون العبر لحياتهم.

وهنا نتساءل: مَن يحارب أفراهاط؟ هل يحارب هؤلاء الناصريّين المتهوّدين الذين يرفضهم الفرّيسيّون أنفسهم؟ هؤلاء كانوا يؤمنون بأنّ المسيح هو ابن الله وأنّه وُلد من مريم العذراء وتألّم على عهد بيلاطس البنطيّ وقام، ولكنّهم يريدون أن يكونوا يهودًا ومسيحيّين معًا. ولكنّهم ليسوا مسيحيّين ويحاولون أن يعودوا بالمسيحيّين إلى اليهوديّة. وهذه الشيعة حاربها الأساقفة في الكنيسة وبعنف، أمّا أفراهاط فأخذ طريق الإقناع، لأنّه تأكّد أنّ حقيقة الكتاب المقدّس تفتح الطريق لنفسها إلى القلوب.

ونتساءل أيضًا: ممَّن تكوّنت الجماعة التي كتب إليها أفراهاط مقالاته؟ تكوّنت من مجموعة خاصّة هم أبناء العهد أو أبناء القيامة، وهم يعودون إلى التقاليد اليهوديّة وتهمّهم البراهين الكتابيّة. هذه الجماعة أُلمّت بالكتاب المقدّس وبتقاليد المعلّمين، ولهذا حدّثها الحكيم الفارسيّ باللغة التي تفهمها. هل انتشرت المقالات خارج هذه الحلقة التي يمثّلها العزيز الذي يكتب إليه أفراهاط؟ الأمر ممكن، ولكن قراءة هذه البراهين تفترض معرفة واسعة للكتاب المقدّس.

ج - أبناء العهد أو جماعة القيامة

في هذا الإطار، نفهم دور أبناء العهد، تلك الجماعة التي وُجّهت إليها المقالات. مَن هي هذه الجماعة؟ يبدو أنّها تعود إلى أصل يهوديّ وبالأخصّ إلى «رهبان» قمران الذين عاشوا قرب البحر الميّت وسمّوا أنفسهم «أبناء العهد». أبناء العهد هم أوّلاً الإكليروس أساقفة «وكهنة» وشمامسة، لا بصفتهم الكهنوتيّة ولا بسبب الرسامة ووضع الأيدي، بل لأنّهم معمّدون. وهذا يعني أنّه كان أناس كثيرون من أبناء العهد، لا من الإكليروس. أبناء العهد هم المتنسّكون الذين يقضون حياتهم بالقداسة على مثال المسيح القدّوس، ومنهم كانوا يختارون الأساقفة والكهنة والشمامسة. يعيشون العزوبيّة فيُقيم الواحد في بيته أو في جماعة صغيرة تتألّف من شخصَيْن أو ثلاثة. هذه الجماعة تؤمّن دوام العمل الليتورجيّ من نشيد المزامير وقراءة الكتب المقدّسة. منهم بوّاب الكنيسة وخادمها والكاتب والحكيم والمعلّم «والكاروز» الذي يُلقي دروس التعليم المسيحيّ. هذه الجماعة عرفتها أورشليم وسلوقية ومناطق أخرى من العالم القديم. أفرادها لا يتعاطون التجارة ولا الزراعة ولا أيّة وظيفة تدر عليهم مالاً. مثّلوا أوّل خطوة على

طريق الحياة الرهبانيّة وسيدومون في الكنيسة حتّى القرن السّابع فيذوبون في التنظيمات الرهبانيّة.

في المقالة السادسة، يُدلي أفراهاط بتعليمات إلى «المتوحّدين وأبناء العهد البتولين والقدّيسين» فيقول لهم: «قبل كلّ شيء، يَليق بالرجل الذي وضع عليه النير أن يكون إيمانه ثابتًا، أن يجتهد في الصوم والصلاة، أن يضطرم بحبّ المسيح، أن يكون متواضعًا وديعًا وعاقلاً، أن تكون كلمته هادئة وعذبة، ويكون ضميره صافيًا مع كلّ إنسان فيكلّمه بتؤدة، وأن يصنع لفمه سياجًا يصرفه عن الكلمات المضرّة ويُبعد عنه الضحك الهائج، وأن لا يحبّ بهرجة اللباس. ثمّ لا يليق به أن يربّي شعره ويسرّحه، ولا يليق به أن يطيّب نفسه بالعطور وأن يشارك في الولائم. ولا يليق به أن يلبس الثياب الفاخرة ويترك نفسه تسعى إلى الخمر» (٦/٨).

نحن هنا أمام قاعدة لكلّ أخ أو أخت نذر نفسه في الكنيسة. هذه القاعدة عرفتها الكنيسة، وهي مدوّنة في مجموعة وُضعت باسم إبراهيم النشفري (القرن السادس). تطلب أوّلاً الإيمان الذي يكتمل بالمحبّة، وهذه المحبّة تجعل الإنسان وديعًا متواضعًا وحكيمًا. وتطلب أيضًا الصوم والصلاة. هكذا تبدو مقالات أفراهاط. وبعد ذلك، ترد نصائح عديدة كالتي ذكرناها عن التحفّظ في الكلام وفي اللباس، عن الاستقامة والشجاعة في الحالات الصعبة.

أمّا المبدأ الأوّل فهو «حمل نير المسيح» (٦/١، ٤، ٨. ١٤/١٦، ٣٨). وهذا يعني أن نحمل الصليب ونسير وراء المسيح، وأن نتعلّق بوصيّة المحبّة الوحيدة التي تحرّر من الممارسات التقليديّة، من عبوديّة المتسلّطين ومن ضرورات الحياة الاجتماعيّة والزوجيّة. هم يرتبطون بعهد اختاروه بحرّيّة، فسُمُّوا متوحّدين لأنّهم تركوا الحياة الزوجيّة. فالذين لم يتزوّجوا يُسمَّون بتولين، والذين تخلّوا عن ممارسة

الزواج بعد أن عرفوه يسمّون قدّيسين، على مثال موسى الذي شرع يحبّ القداسة منذ تجلّى له القدّوس (٦/٥). أمّا وحدتهم فلا تشبه وحدة النسّاك التي نعرفها اليوم، بل الامتناع عن شريك الحياة والتوحّد مع الآب على مثال الابن (٦/٦). لهذا يُقال عنهم إنّهم يسكنون خيمة القدّيسين (٦/١)، أي حيث يقيم القدّوس، يسكنون في السماء والجنّة التي أُعطيت لآدم منذ البدء. يعيشون وحدهم فلا يعود لهم إلاّ حبّ واحد ويصبحون روحًا واحدًا مع الآب (١٨/١١). هذا البحث عن الحياة التوحديّة والنقاوة تسمّى صومًا تبدو العفّة شكلاً من أشكاله. فالصوم الحقيقيّ ابتعاد عن كلّ شرّ، ومثاله يسوع لأنّه وحده البريء المنتصر على الشرّ والموت (٣/١٦. ٧/١).

العفّة توحّد الإنسان مع نفسه، توحّده مع الربّ، فيُصبح المتنسّك قديرًا على أن يتشفّع في الآخرين. فالصائم الذي صلاته نقيّة وذبيحته مقبولة هو الباكي والحزين الذي يتوسّل من أجل إخوته على مثال أستير أو دانيال (مقالة ٣ و١٩). المتنسّك يلجم ميوله والشهوات التي تجعله مشاركًا في الخطيئة الأولى. لهذا فهو لإخوته خشبة خلاص وخمير جيّد في قلب العالم.

ثمّ إنّ حياة المتنسّكين تشبه الحياة الملائكيّة. هم يشاركون مصير السماويّين الذين لا يخضعون لتقلّبات الليل والنهار، والنوم واليقظة. يرتبط هذا الموضوع بوظيفة هؤلاء الساهرين الذين يرفعون الصلاة إلى الربّ باسم سائر المسيحيّين. ولكن المتنسّكين يرتبطون بالسماويّات فيبدون كالنسور التي ترى من علُ مجيء الختن. يبسطون أيديهم بشكل صليب في صلاة لا تنقطع فيستعدّون للقيامة. فالليل والزمان والمكان، كلّ هذا لا سلطة له عليهم. إنّهم الأولاد الصغار الذين يرى ملائكتهم وجه الله (٦/٩): إنّهم كلاب أمينة، يردّدون الشريعة

ليلاً ونهارًا ويلحسون جراح معلّمهم (٨/٢٠) ويجاهدون الجهاد الحسن من أجله. يحفظون الوصايا ويُمارسون العفّة فيقفون حرّاسًا قرب معلّمهم، لا يتركونه دقيقة واحدة.

ولكن صورة السماء تقابلها صورة الحرب والجهاد. فإذا كان موسى يُبقي يديه مرفوعتَيْن، فلأنّ شعبه يُصلي العدوّ حربًا ضروسًا، يُحارب عماليق الذي يريد أن يأخذ البركة. وسيتمّ النصر ليسوع البريء والطائع على الصليب. ولكن المؤمنين لا يقدرون دومًا أن يعيشوا هذه البراءة. من أجل هذا يكون أعضاء القيامة توّابًا يعودون كلّ يوم إلى ربّهم. فالجهاد الروحيّ قاس، وفي كلّ إنسان جرح بليغ أو طفيف. وعلى هذا يدعو أفراهاط الإخوة أن لا يخافوا الاعتراف بخطيئتهم، حين يتراخون في الحرب.

إنّ موضوع الحرب والجرح الممكن أن يصيبنا يُلقي لنا أيضًا ضوءًا على العفّة عن الزواج. فالامتناع عن العلاقات الجنسيّة كانت مفروضة على المجاهدين من أجل الله ليبقوا في حالة من الطهارة. هذا لا يعني أن أفراهاط يعتبر الزواج منجّسًا للإنسان، بل هو يؤكّد أنّ الزواج صالح، فهو يفترق بذلك عن شيعة المتعفّفين[٤] في عصره. إذا كان الزواج يمنع الحرب المقدّسة، فلأنّه يربط الإنسان بالجسد، أي بتوالي الأجيال المائتة، حيث يحلّ الأبناء محلّ الآباء، فيعتبر هؤلاء أنّهم تغلّبوا على الموت، لأنّ من خلّف ولدًا كان وكأنّه لم يمت. ولكن في عالم الإيمان، عالم القيامة الذي دخل فيه المعمّدون والمتنسّكون، لا مكان للموت. تركوا الزواج ولم يملكوا شيئًا فتسلّحوا بسلاح الصوم وكرّسوا ذواتهم للجهاد العظيم، جهاد التوبة، ولم ينظروا إلى الوراء (١٨/٧).

(٤) شيعة المتعفّفين: شيعة انتشرت في الشرق الأوسط في القرون المسيحيّة الأولى ومارست الأنكراتيا أو الامتناع عن ممارسة الجنس (حتّى في الزواج) وعن بعض الأطعمة (لا سيّما اللحم) وعن المشروبات الروحيّة.

د ـ جماعة القيامة والمعموديّة

ونتساءل: ما هو دور المعموديّة في جماعة القيامة؟ المعموديّة هي طقس يتجنّد فيه المؤمن للحرب، ويشبّهها أفراهاط باختيار جدعون لجنوده في عين صرود (قض ٧: ١ـ ٨). يتمّ الاختيار على دفعتَيْن: يدعو القائد وينبّه الحاضرين على ما نقرأ في تث ٢٠: ٥ ـ ٩، ثمّ يمتحنهم بالماء. كانوا اثنين وثلاثين ألفًا فصاروا، بعد النداء الأوّل، عشرة آلاف، وبعد المحنة ثلاثماية. من يجنّد؟ أهُم الذين ينفخون بالبوق أمّ وعّاظ الكنيسة والمسؤولون عن الجماعة؟ هم الكهنة والكتبة والحكماء (١٨/٧).

يقدّم أفراهاط لقارئه ولكهنة الجماعة كرازة عن المعموديّة، فيشرح لهم نصًّا من الكتاب المقدّس فيه صورة عن المعموديّة، وتعليمًا مكيّفًا لمسيحيّين يريدون أن ينذروا أنفسهم للكنيسة في وقت عمادهم. يشجّعهم الواعظ على اعتناق هذا المثال ويُحذّرهم من الصعوبات في وقت يهدّدهم فيه الاضطهاد والحرب. الزمن رديء وأبناء العهد هم الجيش المدرَّب، بل النخبة من أجل القتال الذي يقوم به المسيح في نهاية الزمن من أجل خلاص الشعب كلّه. مسؤوليّتهم عظيمة وسقوطهم يجرّ وراءه هلاك الكثيرين. هذا ما يبرّر التهديد للمتراجعين: يبقى من الجمع كلّه ثلاثماية مقاتل، «لأنّ المدعوين كثيرون، أمّا المنتخَبون فقليلون».

إنتقى أفراهاط قصّة جدعون مثالاً لاختيار المتنسّكين لأنّها غنيّة بما فيها من صور تطابق الواقع الذي يتحدّث عنه. فالمحاربون يُختارون لأنّهم أخذوا أماكنهم في الصفوف وظلّوا واقفين، فما سقطوا. هم ثابتون لا يتزعزعون في إيمانهم. هكذا لا يسقط المجاهدون أمام الخطيئة والموت. ثمّ إنّ صورة الكلب تُبرز وجوهًا من روحانيّة أبناء العهد. فإنّهم، وهم يلعقون الماء، يذكّرون المؤمن بالاختبار

الليتورجيّ، وهو يتقبّل الإفخارستيّا. يجاهد الكلب حتّى الموت من أجل معمله. هكذا يكون التلميذ ساهرًا بالصوم والصلاة قرب معلّمه. يقرأ الكتب من دون انقطاع ويحتفل بالطقوس وساعات الصلاة ويعلّم الكلمة في وقته وفي غير وقته.

إنّ كرازة أفراهاط عن المعموديّة لا تنحصر في شرح قصّة جدعون وما تعني من حرب مقدّسة. فهناك نصوص غيرها تشدّد على وجوه أخرى. فالمعموديّة الحقيقيّة هي أيضًا بئر يعقوب التي فتحها النبيّ العظيم (٦/٤) حين تعمّد فيها، وحين خرج من جنبه ماء شرب منه الجميع. والمعموديّة هي أيضًا مسحة الزيت على الحجر المنصوب في بيت إيل، رمزًا إلى الشعوب الذين تنصّروا (٥/٤). وتقابَل المعموديّة بعبور البحر الأحمر أو عبور الأردن، حين ختن يشوع الشعب مرّة ثانية بحجارة من صوّان. وموضوع الختانة الثانية هذا يسمّيه أفراهاط إيمانًا يجعل إبراهيم أهلاً لنسل روحيّ لاعد له (١/١٢). وختانة القلب هي انقطاع عن الأعمال السيّئة يساعدنا على المشاركة في جسد المسيح ودمه (٩/١٢) وهي تتمّ بسيف كلمة الله (١٢/١١). كان السيفُ قد أغلق في الماضي بابَ الفردوس، ولكنّه تحوّل إلى ترس للدفاع عن المعمّدين (١/٦). العماد وسم حياة فريدة (٦٠/٢٣) وعطيّة الروح المحبّبة وتسبيق للخلود مع الله (١٤/٦) الذي تُذكر أسماؤه المجيدة والسامية على رأس الموعوظ (٦٣/٢٣).

ولا بدّ هنا من ذكر نصّ يربط بين المعموديّة وغسل أرجل التلاميذ. قال أفراهاط: «غطس إسرائيل في وسط البحر في ليلة الفصح ويوم الخلاص، وغسل مخلّصنا أرجل تلاميذه ليلة الفصح الذي هو صورة المعموديّة. واعلم، يا عزيزي، أنّه في هذه الليلة وهب مخلّصنا معموديّة الحقّ. فحين كان يروح ويجيء مع تلاميذه، كان هناك معموديّة الناموس التي بها يعمّد الكهنة، المعموديّة التي قال

فيها يوحنّا: توبوا عن خطاياكم. ولكن في تلك الليلة بيَّن لهم يسوع صورة المعموديّة التي هي آلام موته كما قال الرسول: دُفنتم معه للمعموديّة بالموت، وقمتم معه بقوّة الله» (١٢/١٠).

فالمعموديّة تقوم بطقوس الغطس والمسح بالزيت والاعتراف بالأسماء الإلٰهيّة: هي دخول في العهد الجديد الذي يجعل المتوحّدين غرباء عن هذا العالم ويوحّدهم في المسيح. المنذورون يعيشون هذا الشرف بوجه كامل على مثال الآباء في العهد القديم. أمّا سائر المؤمنين فلا يُحكم عليهم إن لم يصلوا إلى مثال الحياة النسكيّة الذي يعيشه أبناء العهد. ولقد ارتبطت المعموديّة بهذا المثال من الحياة بحيث إنّ كثيرًا من الموعوظين كانوا يؤخّرون ساعة عمادهم إلى الوقت الذي يبدأون فيه حياة الكمال. لم يكن العماد بداية حياة مسيحيّة فحسب، بل برهانًا على صدق إلتزام المؤمن بحياة تشبه حياة الملائكة، لأنّ النسّاك يعيشون، منذ الحياة، في جوّ القيامة، في جوّ عبور الله إلى أبيه.

كتاب المقالات

مقالات أفراهاط هي ما بقي لنا من مؤلّفات الحكيم الفارسيّ، وهي تعكس لنا وجه ذلك الراعي الجريء الذي مات ولا شكّ شهيدًا في أيّام شهبور.

أ ـ نصّ المقالات ومخطوطاتها

إثنتان وعشرون مقالة تتبعها مقالة ثالثة وعشرون متسلسلة بحسب حروف الأبجديّة السريانيّة، فجاءت في مجموعتَيْن مؤرَّختَيْن بشكل وصيّة لزمن اليونان والرومان ولزمن الفرس. فالمجموعة الأولى المؤلّفة من المقالات العشر الأُولى دُوّنت في السنة ٣٣٧/٣٣٦ وعنوانها: الإيمان، المحبّة، الصوم، الصلاة، الحروب، المتنسّكون أو أبناء العهد أو أبناء القيامة، التائبون، بعث الموتى، التواضع، الرعاة. والمجموعة الثانية المؤلّفة من اثنتي عشرة مقالة دُوِّنت في السنة ٣٤٤/٣٤٣ وعنوانها: الختان، الفصح، السبت، البراهين أو رسالة إلى الزمن الحاضر، تمييز الأطعمة، اختيار الشعوب، المسيح ابن الله، البتوليّة، تشتّت اليهود الدائم، مساعدة المساكين، الاضطهاد، الموت والأزمنة الأخيرة. وبدأ أفراهاط مجموعة ثالثة لم يكتب منها إلاّ مقالة تبدأ بحرف الألف. دوّنها سنة ٣٤٥ وعنوانها: خصلة العنب، أمّا موضوعها فملخّص لتاريخ الخلاص منذ البدء إلى المسيح.

أين نجد هذه المقالات؟ في مخطوطات أربعة. المخطوط الأوّل (وسمّيناه أ) يعود إلى القرن السادس بحسب رأي الخبراء، وهو يضمّ كلّ المقالات. والمخطوط الثاني (وسمّيناه ب) يعود في قسمه الأوّل إلى سنة ٤٧٤ وفي قسمه الثاني إلى سنة ٥١٠. يضمّ القسم الأوّل المقالات العشر الأولى، والقسم الثاني ما تبقّى من المقالات. والمخطوط الثالث (وسمّيناه ج) يعود إلى سنة ١٣٦٤[١] وهو لا يحتوي إلاّ المقالة الثالثة والعشرين. المخطوط أ والمخطوط ب كُتبا بخط أسطرنجلو. إكتشفهما كيورتون الإنكليزيّ في السنوات ١٨٣٨ ـ ١٨٥١ في دير السريان في وادي النطرون، وهما اليوم في المتحف البريطانيّ[٢]. أمّا المخطوط الثالث فمكتوب بخط يعقوبيّ عربيّ، وهو موجود أيضًا في لندن[٣]. طُبع النصّ السريانيّ مرّة أولى في لندن[٤] ومرّة ثانية في باريس[٥]. ونُشير إلى ترجمة المقالات التسع عشرة الأُولى إلى الأرمنيّة منذ القرن الخامس والمقالتَيْن الخامسة والثامنة إلى الحبشيّة، ومقاطع من المقالات الثانية والثالثة والرابعة والسادسة والتاسعة إلى

---

(١) أو سنة ١٦٧٥ لليونان. من المعلوم أنّنا، إذا أردنا أن نعرف ما هي السنة المسيحيّة انطلاقًا من السنة اليونانيّة (أو لحكم الإسكندر)، نحذف ٣١١ سنة.

(٢) المخطوط أ ـ المتحف البريطانيّ الرقم ١٤٦١٩.
المخطوط ب ـ المتحف البريطانيّ الرقم ١٧١٨٢ ـ دون القسم الأوّل سنة ٧٨٥ لليونان والقسم الثاني سنة ٨٢٣ لليونان.

(٣) المخطوطات الشرقيّة الرقم ١٠١٧

(٤) W. Wright, The Homilies of Aphraates, The Persian Sage, edited from Syriac Manuscripts of the 5th and 6th in the BM. London, 1869.

(٥) J. Parisot, Aphraatis Demonstrationes in Patrologia Syriaca, Tomus primus, (Paris 1894) col 1-1050.
Tomus secundus (Paris 1907) col 1-150.

العربيّة[٦]. نُقل النصّ إلى اللاتينيّة والإنكليزيّة والألمانيّة والفرنسيّة[٧] والعربيّة[٨] وغيرها.

ب ـ كم مقالة كتب أفراهاط؟

ويتساءل النقّاد اليوم: كم مقالة كتب أفراهاط؟ إثنتين وعشرين أو ثلاثًا وعشرين؟ فإذا كانت حروف الأبجديّة السريانيّة اثنين وعشرين حرفًا، يجب أن يكون أفراهاط قد كتب اثنتين وعشرين مقالة. وفي هذا المجال، يجب أن نحذف المقالة الثالثة والعشرين وألاّ نعتبرها من نتاج الحكيم الفارسيّ. ولكن هناك رأيًا آخر يعتبر أنّ المقالة الرابعة عشرة ليست من أفراهاط لأنّها تبدو بشكل رسالة عامّة أرسلها أحد الأساقفة إلى الرعاة. ولكن رأينا هو أنّ أفراهاط كتب أوّلاً مجموعة من اثنتَيْن وعشرين مقالة وبدأ بمجموعة ثانية. ولنعد إلى ما قال القدماء وناقش النقّاد.

عرف ابن العبريّ اثنتين وعشرين مقالة فقط. وقال عبد يشوع (+ ١٣١٨) إنّ الحكيم الفارسيّ كتب مجموعتَين من الوعظ على حروف الأبجديّة. أمّا جناديوس فيُعلن أنّه دوّن ستًّا وعشرين مقالة

---

(٦) نسبت هذه المقالات في العربيّة إلى مار أفرام السريانيّ

J. M. Sauget, Entretiens d'Aphraate en arabe sous le nom d'Ephrem

Le Muséon 92 (1979) pp. 61-69;

(٧) نشير إلى الأطروحة التي قُدّمت في باريس سنة ١٩٨٤ والتي استفدنا منها من أجل عملنا. ولقد طُبعت سنة ١٩٨٨ في مجموعة «الينابيع المسيحيّة».

M. J. Pierre Les exposés d'Aphraate le Sage Persan, Septembre 1984.

(٨) قمنا بترجمة نصّ أفراهاط إلى العربيّة وسننشره قريبًا بإذن الله.

أورد عناوينها وذكر بينها المقالة الثالثة والعشرين وعنوانها خصلة العنب.

نقول أوّلاً إنّه لا جدال بالنسبة إلى المقالات العشر الأولى التي وصلت إلينا بترتيب واحد في جميع النصوص. ولكن الترتيب في المجموعة الثانية يبدو مبلبلاً. ففي النصّ الأرمنيّ مثلاً، ترد المقالة الثالثة عشرة بعد المقالة الحادية عشرة، والمقالة الثانية عشرة بعد المقالة الخامسة عشرة، والمقالة الرابعة عشرة بعد المقالة التاسعة عشرة.

ثمّ إنّ المقالة الرابعة عشرة هي رسالة أسقفيّة موجّهة إلى كنيسة المدائن، لا إلى شخص فرد يسمّيه الكاتب: يا عزيزي. والمقالة الثالثة والعشرون تتطرّق إلى تاريخ الخلاص. إستند النقّاد إلى رأي ابن العبريّ وعبد يشوع والترجمة الأرمنيّة فأنكروا نسبة المقالة الثالثة والعشرين إلى أفراهاط. نُجيب أوّلاً أنّ الترجمة الأرمنيّة تتوقّف عند المقالة التاسعة عشرة ولا تذكر سائر المقالات. أمّا جناديوس فيذكر المقالة الثالثة والعشرين مرّتين. والتقليد السريانيّ القديم (القرن الخامس والقرن السادس) يُشير إلى هذه المقالة، بل يشدّد الناسخ على أنّها من يد الحكيم الفارسيّ نفسه. وأسلوب هذه المقالة يشبه أسلوب سائر المقالات. إذًا، المقالة من أفراهاط. فلنحذف، يقول النقّاد، المقالة الرابعة عشرة التي جعلتها النسخة الأرمنيّة في آخر الكتاب، وهكذا يصبح عدد المقالات اثنتين وعشرين مقالة بحسب عدد حروف الأبجديّة السريانيّة.

هنا نتوقّف عند مضمون المقالة الرابعة عشرة. كُتبت في زمان الضيق والاضطهاد ووُجّهت إلى كنيسة المدائن. هي لا تذكر اسم رئيسها الذي هو طمّاع وصوليّ، بل تُلمح إليه قائلة: ليفهم الحكيم ويتبيّن. هذا الرئيس فرض نفسه على الجماعة وقبل المسحة على يد فئة صغيرة (١٤/٢٤) وأراد أن يبني سلطانه مستفيدًا من المساعدة الغريبة

(٨/١٤). إنّه ذو هيئة حسنة ومنطق ناجح (٢٨/١٤)، وهو يتعامل مع السلطة المحلّيّة (٤٠/١٤)، طالبًا المال والعظمة (٢٣/١٤). لهذا فرض ضرائب قاسية على المؤمنين (٤/١٤، ٥) فانقسموا وتبعه قسم قليل على سبيل المماقة. ولقد دعا هذا الرئيس كاتب المقالات إلى أن ينضمّ إليه ليستفيد من الظروف الحاضرة (٢٦/١٤)، فرفض مذكّرًا صاحبه بضربة عزيًا، مادحًا رفضه للطاعة (٢٧/١٤). أيكون أنّ كاتوليكس المدائن هو ذلك الرئيس الذي تتحدّث عنه المقالة الرابعة عشرة؟

رسالة أسقفيّة، ولكن أسلوب أفراهاط الشخصيّ يبرز فيها، بالأخصّ حين يتحدّث إلى الراعي وكأنّه حاضر أمامه (٢٧/١٤)، أو حين يتأمّل بإعجاب في كنوز الله وعجائبه في الطبيعة (٣٤/١٤). هذه المقاطع وضعها لا كاتب عاديّ، بل الحكيم الفارسيّ كرئيس واعٍ وشجاع لجماعة المؤمنين.

أمّا موقع هذه المقالة فهو طبيعيّ بين سائر المقالات، وحرف النون يأتي بين حرف الميم وحرف السين، وهذا ما لم يلاحظه المترجم الأرمنيّ. وإن قلنا إنّها تقع بين مقالتَين من الجدال مع اليهود حول السبت والأطعمة، فهذا لا يعني شيئًا، وكلّ ما كتب الحكيم الفارسيّ وجّهه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى اليهود.

وما قلناه في المقالة الرابعة عشرة نقوله في المقالة الثالثة والعشرين، وأسلوبها أسلوب سائر من المقالات. ثمّ لماذا نمنع أفراهاط أن يبدأ فيكتب مرّة ثانية، بعد أن أنهى حروف الأبجديّة. فاللوحة التي نكتشفها في المقالة الثالثة والعشرين تمثّل عمل الحكمة الخلاّقة في الكون، تلك البركة الخفيّة التي تسري من جيل إلى جيل وتتوقّف عند الناس الذين يحملون الخلاص. المقالة الثالثة والعشرون تأتينا بالنظرة الموحّدة لكلّ المقالات السابقة. فهذه تبدو في وحدة متناسقة منذ

البداية إلى النهاية، من الإيمان الذي تنفحه المحبّة (مقالة ١ ـ ٢) إلى النهاية، إلى الدينونة والوحي (مقالة ٢٢). كلّ هذا هو بناء البيت ـ الكنيسة (مقالة ١) الذي أساسه وقمّته المسيح، وشرط كلّ بركة فيه.

ولماذا الجدال بعد ذلك، وأفراهاط نفسه قدّم لنا في المقالة الثانية والعشرين عناوين مقالاته. قال: «كتبت أساس الإيمان وعن الأعمال التي تليق بالإيمان بعد الإيمان، كتبت عن وصيّة المحبّة. ومن بعد المحبّة، كتبت مقالة عن الصوم وأعماله. وبعد الصوم، كتبت عن الصلاة وثمارها وأعمالها. وبعد الصلاة، كتبت عن الحرب وما دوّنه دانيال عن الممالك. وبعد الحرب، كتبت تحريضًا للمتنسّكين. وبعد المتنسّكين، كتبت عن التوبة. وبعد التوبة، كتبت عن بعث الموتى، وبعد بعث الموتى، كتبت عن التواضع، وبعد التواضع، كتبت عن الرعاة والمعلّمين. وبعد الرعاة، كتبت عن الختان الذي يفتخر به الشعب اليهوديّ. وبعد الختان، كتبت عن الفصح وعن اليوم الرابع عشر. وبعد الفصح، كتبت عن السبت الذي يفتخر به اليهود. وبعد السبت، كتبت عن البراهين بسبب الخصومات التي تحدث في أيّامنا. وبعد البراهين، كتبت عن الأطعمة التي يعتبرها اليهود نجسة. وبعد الأطعمة، كتبت عن الشعوب الذين دخلوا وورثوا مكان الشعب السابق. وبعد الشعوب، كتبت وعلّمت أنّ لله ابنًا. وبعد ابن الله، كتبت فرددت على اليهود الذين يجدّفون على البتوليّة. وبعد الجواب على البتوليّة، كتبت أيضًا فرددت على اليهود الذين يقولون: من الثابت أنّنا سنجتمع. وبعد هذا الجواب، كتبت عن الهبات للمساكين. وبعد المساكين، كتبت مقالة في المضطهدين، وبعد المضطهدين، كتبت أخيرًا عن الموت والأزمنة الأخيرة» (٢٢/٢٥).

ج ـ بنية كتاب المقالات

البنية التي تبرز للوهلة الأولى هي البنية الأبجديّة، كما تبرز في نهاية المقالة العاشرة. قال أفراهاط: هذه الكتابات المتقطّعة التي كتبتها لك تُكمل الواحدة الأخرى وتُبنى الواحدة على الأخرى، فلا تفصلها بعضها عن بعض. كتبت لك من الألف إلى الياء: (أي: أبجد، هوز، حطي) حرفًا بعد رفيقه (١٠/٩). وتبرز هذه البنية أيضًا في نهاية المقالة الثانية والعشرين التي أوردنا مقطعًا منها.

ولكن لا ننسَ أنّ المقالتَين الأولى والثانية تتجاوبان مع المقالة الثانية والعشرين، وأنّ مواضيع المقالات الاثنتين وعشرين تجتمع في المقالة الثالثة والعشرين. فالتأليف الأبجديّ ليس شيئًا خارجيًّا. إنّه يشبه بناء بيت، فلا نفصل الحجارة بعضها عن بعض. الإيمان هو أساس البناء (م ١)، والمحبّة دعائمه (م ٢)، أكانت محبّة الله أمّ محبّة القريب. بعد هذا، يتوقّف الكاتب عند صاحب القلب النقيّ الذي يُمارس الصوم والصلاة (م ٣ ـ ٤) ويتأمّل في أحداث عصره السياسيّة المؤلمة ومكانتها في تاريخ البشر (م ٥). النهاية قريبة، فلا بدّ من السهر لينضمّ الإنسان إلى جماعة البتولين والمتوحّدين (م ٦)، ولا بدّ من التوبة (م ٧) ليدخل المؤمن في خدر العرس ومكان القيامة (م ٨). تذكّرنا المقالة التاسعة بالمقالة الأولى، وترتبط بالمقالة العاشرة التي تتكلّم عن الرعاة. يبدو هؤلاء خدّامًا وضعاء على مثال الراعي العظيم الذي هو حجر الأساس وكمال البنيان.

نتوقّف هنا عند الرقم ١٠، أي من الألف إلى الياء في السريانيّة، ونتساءل لماذا لم يتوقّف أفراهاط كالمعلّمين اليهود في نصف الأبجديّة عند حرف اللام؟ الجواب نجده داخل الجماعة في اسم يسوع (الذي يبدأ بالياء) والذي هو سرّ العهدين اللذَين اجتمعا واختتما بالصليب. الرقم ١٠ يذكّرنا بالوصايا العشر التي ترتبط

بـالوصيّـة الأولى، وصيّة المحبّـة، وهي تتفتّح في التطويبات العشر (١٩/٢).

مع المجموعة الأولى، ولجنا إلى داخل الكنيسة وسرّهـا. ومع المجموعة الثانية، نتعرّف إلى الكنيسة في علاقتها مع الآخرين. وهنا يـبرز الرقم ١٢ الـذي هو الشعب الجـديد المكمّـل للشعب القديم بأسباطه الاثنيّ عشر والمبنيّ على الرسل الاثنيّ عشر.

من خلال الجدال بين المسيحيّة واليهوديّة في مقالات أفراهاط، يرتسم سرّ دعوة الشعوب. كان العهد مع شعب واحد نموذجًا ونبوءة. ولكن النبوءة تحقّقت فيجب أن لا نتعلّق بعد ذلك بالصور الحسّيّة التي تخطّاها الزمن والتي وُجدت لتعليمنا، كما يقول بولس الرسول. هناك عهد بركة أُعطي لإبراهيم وإسحٰق ويعقوب، ووُسِم بعلاقة الختان (م ١١)، وعاشه شعب خرج من مصر بقيادة موسى الذي وضع له شرائع وأحكامًا (م ١٢ ـ ١٣): الفصح، السبت، الأطعمة. ولكن كلّ هذا لا معنى له في حدّ ذاته. لأنّ العهد الذي وعد به إبراهيم وتجدّد مع الآبـاء وتوسّـع مـع الشعب قـد تمّ في الحقيقـة لجميـع الشعوب، أي الكنيسة المؤلّفة من اثنَيْ عشر رسولاً ومن سبعين أمّة ومن جميـع المؤمنـين الـذين يؤلّفـون بيت يعقـوب (٣/١٦) ونسـل إبراهيم. لقد حلّت الشعوب محلّ الشعب (م ١٦)، فآمنوا بالمسيح ابن الله (م ١٧). وينـطلق أفراهـاط من المقدّمـة ليبيّن أنّ لا معنى للتوراة، إن لم توصِل الإنسان إلى الإيمان بالمسيح. إنّ سرّ الخلاص لا يرتبط بنسل طبيعيّ (م ١٨) ولا بشعب صغير دون سائـر الشعوب (م ١٩). هنا يأتي الحديث عن المساكين وبالأخصّ المساكين بالروح، وهم يُعطوَن فيصبحـون أغنيـاء بـالله (م ٢٠). لهؤلاء لن يصبـح الاضطهاد حجر عثرة (م ٢١)، بل علامة لحضور الروح في الصدّيقين وفي جماعة يسوع. حينذاك يصبح الموت ولادة وخـروجًا إلى أرض

الميعاد ونهاية المنفى قبل الدخول إلى جنّة عدن (م ٢٢).

وهكذا تنتهي المجموعة الثانية، فتؤلّف مع المجموعة الأولى بناء هو انعكاس للتوراة المؤلّفة من اثنين وعشرين كتابًا[٩]، أو للأحرف التي بها خلق الله الكون، أو للأعمال الاثنين والعشرين التي تمّت في ستّة أيّام الخلق. مجموعتان تبدوان وكأنّهما لوحا وصايا أو عهدان أو وصيتا المحبّة، محبّة الله ومحبّة القريب.

د ـ أسلوب المقالات

عنوان الكتاب في السريانيّة «تحويتو» في المفرد، وفي الجمع «تحويوتو». تعود الكلمة إلى فعل بيّن، أظهر، والاسم يعني برهان، مثل، بيِّنة. ولكن أفراهاط سيسمّي مقالاته: «ميمرو»، ويقابلها في العربيّة ميمر وخطبة وعظة ومقالة (٤/١؛ ١٠/٧؛ ٢٢/٢٦)، أو «ريشو»، رأس وفصل (٢٢/٢٥، ٢٦)، و«عوهدنو»، تذكير وتنبيه (١٠/٧؛ ٢٢/٢٥) أو «شربو»، قصّة وخطاب (٤/١؛ ١٠/٩) أو «أغرتو»، رسالة (٢٣/٦٨)، أو «كتوبو»، كتاب (١٠/٩)، أو تحريض (محفطنوتو ٢٢/٢٥)، أو برهان (فيوسو ٢٢/٢٥). أمّا نحن فآثرنا كلمة مقالة لأنّها تعني ما تحتويه هذه الفصول التي وصلت إلينا من أفراهاط.

كيف يسير الحكيم الفارسيّ في مقالاته؟ يعود إلى الشواهد الكتابيّة فيورد الشاهد بعد الآخر، حتّى لا يبقى دفاع عند القارئ.

---

(٩) جمع العبرانيّون التوراة في اثنين وعشرين كتابًا هي: التكوين، الخروج، اللاويّين، العدد، التثنية، يشوع، القضاة، صموئيل، الملوك، الأخبار، عزرا ونحميا، أشعيا، إرميا والمراثي، حزقيال، الاثنا عشر، المزامير، الأمثال، نشيد الأناشيد، دانيال، راعوت، أستير.

حين يتحدّث عن الصخر (أو الحجر)، يورد شواهد عديدة (١ كور: ١٠ ـ ١١. مز ١١٨: ٢٢. حز ١٣: ١٠، ٢٢: ٣٠. أش ٢٨: ١٦. مت ٢١: ٤٤. دا ٢: ٣٤. ٣٥؛ زك ٤: ٧. ٣: ٩). وهكذا يفعل حين يتحدّث عن النور والأطعمة، ويأتي بـ ٥٠ إيرادًا كتابيًّا، عندما يبيّن أنّ الشعوب الوثنيّة حلّت محلّ الشعب اليهوديّ، فيتجاوز أيّة مجموعة أوردها أيّ أب من آباء الكنيسة.

ومع الشواهد، يأتي أفراهاط بالأمثلة والنماذج، بل يكدّسها. ففي المقالة عن الصلاة (٤/٣)، يحاول أن يبيّن لنا أنّ كلّ ذبيحة مقبولة تُحرَق بالنار، فيأتينا بسبعة أمثلة: نوح، إبراهيم، ناداب وأبيهو، سليمان... وحين يحدّثنا عن المصلّين، يذكر موسى، يشوع بن نون، حنّة، أمّ صموئيل، صموئيل، داود، آسا، يوشافاط، حزقيا، يونان، حنانيا وعزريا وميشائيل، دانيال (٤/٧، ٨).

وحين يدخل في عالم الكتاب المقدّس، لا ينسى أفراهاط أن يأتي بالمقابلات بين شخص وآخر، بين تقدمة هابيل وتقدمة قايين، بين صوم موسى والصوم الذي فرضته إيزابيل... ولكن المقابلة الأهمّ هي التي تتمّ بين يسوع وشخص من أشخاص العهد القديم. ففي المقالة السادسة، يقابل بين كلّ من يوحنّا المعمدان وإيليّا وأليشاع ومخلّصنا، وفي المقالة الحادية عشرة، يقابل بين يشوع بن نون ويسوع. أمّا في المقالة الحادية والعشرين، فيأتي باثنيّ عشر مثلاً يقابل فيها بين يسوع من جهة ويعقوب ويوسف وموسى... من جهة أخرى. ويبدأ كلّ مقطع بهذه العبارة: إضطُهد موسى واضطُهد يسوع... إضطُهد يشوع بن نون واضطُهد يَسوع...

وهكذا يبدو أسلوب أفراهاط خطابيًّا وتعليميًّا، همّه أن يُقنع تلميذه، بالنصوص والشواهد الكتابيّة التي يؤمن القارئ والسامع

بكرامتها. والمقالات لا تبدو بشكل توسيع فلسفيّ، بل هي تحريض أدبيّ وأخلاقيّ يدفع المؤمن إلى أنّ يتخطّى المعرفة إلى الحفظ والعمل ما يطلبه المعلّم من تلميذه هو أن يسمع ويقتنع ويضع قيد العمل التعليم الذي قبله. فالإيمان الحقيقيّ يبرز في الأعمال، والمحبّة الحقيقيّة يُبرهَن عنها بحفظ الوصايا.

مضمون المقالات

نبقى في مقالات أفراهاط ونكتشف مضمونها. بهذا نتعرّف إلى فكر الحكيم الفارسيّ وأسلوبه، وندخل في جوّ الجدال الذي ساد هذه الفترة من تاريخ الكنيسة في العالم المسيحيّ الشرقيّ، حيث الصراع بين اليهود والمسيحيّين على أشدّه. ونتعرّف إلى الإيمان المسيحيّ كما عبّر عنه أفراهاط وإلى الممارسات المسيحيّة، كما دعا المؤمنين إلى أن يعيشوها.

أ ـ المجموعة الأولى

تتكوّن المجموعة الأولى من عشر مقالات، وقد كُتبت كما قلنا سنة ٣٣٦/٣٣٧. **ماذا نجد في المقالة الأولى، وعنوانها الإيمان؟**

بعد مقدّمة تُبرز موقف المعلّم وموقف التلميذ، يعرض الكتاب برهانه: الإيمان هو بناء حجر الأساس فيه هو المسيح. وحين ينتهي هذا البناء، يصبح هيكلاً لله ولمسيحه. أمّا مواد هذا البناء فالأعمال الصالحة. ويتساءل: كيف يكون المسيح البناء والأساس معًا؟ يعود إلى الكتاب المقدّس فيحدّثنا عن المسيح حجر الأساس، ويورد النصوص النبويّة، وينتهي بقوله إنّ المسيح نور وكلمة. ويستطرد كلامه عن اليهود فيفسّر مثل الدرهم الضائع ويطبّقه على الوصيّة الضائعة، ويذكر أشعيا والسراج والمنارة. ثمّ يعود إلى بناء الإيمان والدينونة بالنار ويأتي ببراهينه عن محنة العبور بالنار ويعرض نماذج من العهد القديم. الإيمان هو أساس حقيقيّ: هذا ما يقوله الكاتب

فيُثني على إيمان موسى الكامل عبر أعماله وإيمان يشوع وإيليّا واليشاع، ويختم برهانه بأمثلة مأخوذة من العهد القديم والعهد الجديد. ويشيد الكاتب بعجائب الإيمان وهي اثنتان وعشرون عجيبة، على عدد الحروف الأبجديّة، ويُنهي مقالته بحديث قصير عن الإيمان والأعمال.

المقالة الثانية وعنوانها المحبّة

يأتي ببرهانه عن ارتباط الشريعة والأنبياء بوصيّة المحبّة، ويبرِّر هذا البرهان منطلقًا من شريعة المحبّة أو شريعة العدالة كما يعيشها الناس. ويورد نماذج من العهد القديم (إبراهيم، إسحق، يعقوب) ويصل إلى القول بأنّ الشريعة زيادة ناقصة بالنسبة إلى ما في الوعد، وقد جاءت بعد الوعد بمئات السنين ويأتي ببراهينه من العهد القديم والعهد الجديد. ثمّ يبيّن أنّ الشريعة ألغيت، بل تمّت في يسوع المسيح. ويعود إلى برهانه عن ارتباط الشريعة والأنبياء بوصيّة المحبّة ويشدّد على محبّة الله التي تؤخّر عدالته، فلا تفعل شيئًا في الشعب اليهوديّ أو في الشعوب الوثنيّة التي كانت في أرض كنعان. أجل، إنّ الله إله الرحمة والغفران. وهنا ينتقل إلى تعليم يسوع في المحبّة وفي غفران الذنوب بعضنا لبعض، فيعود إلى الإنجيل، ويتوسّع في نبوءة السبعين أسبوعًا كما وردت في إرميا، ويربطها بحديث المسيح عن نهاية أورشليم ونهاية العالم. ويعرض لنا تعليم بولس الرسول في الإيمان والمحبّة مشدِّدًا على نشيد المحبّة (١ كور ١٣). ويورد لنا أربعة نماذج عن أشخاص عاشوا المحبّة في العهد القديم (موسى، داود، أليشاع، إرميا)، ويبيّن أنّ كمال المحبّة في يسوع الذي أعطانا هو أيضًا عشر تطويبات فدلّ على صلاحه من أجلنا. ويورد الكاتب معجزات حبّ يسوع من أجلنا (وهي اثنتان وعشرون) قبل أن يدعونا إلى ممارسة المحبّة نحو الله ونحو القريب.

المقالة الثالثة وعنوانها الصوم

يأتي الكاتب ببرهانه: الصوم الطاهر مقبول وينفع للخلاص. ثمّ يذكر عشرة وجوه للصوم (عن الأكل وعن غيره)، وسبعة نماذج في العهد القديم عن الصوم النقيّ (هابيل، أخنوخ...)، فيصل إلى القول بأنّ الصوم الحقيقيّ هو الامتناع عن الشرّ. ويرينا صومًا خلاصيًّا عند موسى وإيليّا، وصومًا كاذبًا وغاشًّا عند إيزابيل وأحآب وأهل يزرعيل. إنّ الأشرار يستطيعون أن يصوموا فيتوبوا مثل أهل نينوى، لأنّ الرجوع عن الشرّ هو الصوم الخلاصيّ. لا يستطيع الله أن يرضى عن صوم الأشرار (يتحدّث عن المعلّمين مرقيّون وولنطينس وماني)، بل يقبل صوم أستير ومردخاي. ويستطرد متحدّثًا عن هامان ابن أجاج ومردخاي ابن شاول والعداوة المتأصّلة بين نسل بني عماليق وبني بنيامين. ويستطرد أيضًا مبرّرًا موقف مردخاي، ويستطرد ثالثًا ليأتي بدرس عن هامان وعماليق. ويعود الكاتب إلى بلاد فارس ليحدّثنا عن صوم دانيال الذي قبله الربّ بواسطة جبرائيل مقابل الصلوات، وبواسطة ميخائيل رئيس شعب إسرائيل. صوم دانيال نجّى كلّ الشعب فما أحرى صوم يسوع بأن يفعل!

المقالة الرابعة وعنوانها الصلاة

يأتي الكاتب ببرهانه: الصلاة الحقيقيّة هي نقاوة القلب. ويؤيّد برهانه بالرجوع إلى هابيل البارّ، ويستطرد فيُعلن أنّ كلّ الذبائح المقبولة مرّت في النار (إبراهيم، منوح...) ويعود إلى المعجزات التي تنالها الصلاة فيفسّر تك ٢٨ ـ ٣٢، متوقفًا عند شخص يعقوب مشبّهًا إيّاه بالمسيح. ويذكر معجزات الصلاة عند موسى، ثمّ عند عشرة غيره هم يشوع، حنّة، صموئيل، داود، آسا، يوشافاط، حزقيا، يونان، حنانيا وعزريا وميشائيل، ودانيال. وينتقل إلى تعليم يسوع في الصلاة والقلب النقيّ ويشرح ما في هذا السؤال من صعوبة: كيف

نصلّي وحدنا، وكيف يكون المسيح معنا إذا كنّا اثنين وثلاثة؟ ويورد أربعة نماذج من العهد القديم (موسى، إيليّا، يونان، أليشاع). ويُعلن: الصلاة الصحيحة هي أن نغفر لمن أساء إلينا، ونساعد المرهَقين. ولكن هذا لا يتعارض وأوقات الصلاة. الصلاة النقيّة تقوم بتقدمة ذبيحة لا عيب فيها. ويشرح الكاتب إش ١: ١٥ في الذبيحة الحقيقيّة التي لا تكون يدُ صاحبها ملطَّخة بالدم. ويُنهي بالدعوة إلى الصلاة.

المقالة الخامسة وموضوعها الحروب

تبدأ المقالة بتأمّل في نهاية العالم، في ضوء الحروب الحاضرة، وتُعلن: مَن ارتفع اتُّضع. وتأتي أمثال مأخوذة من العهد القديم: قايين، أهل سدوم، عيسو، إخوة يوسف، فرعون، داتان وأبيرام، جليات، شاول، أبشالوم، بن هدد، سنحاريب، أحآب، إيزابيل، هامان، البابليّون. ويتوقّف الكاتب عند نبوكدنصّر وسنحاريب اللذين تكبّرا على الله وأورشليم. ثمّ يعرض رؤى دانيال: الكبش والتيس ويستنتج أنّ المتكبّرين سيسقطون، ويورد نماذج أربعة: الغنى، الأبناء، الحكمة، المعرفة. ويستطرد فيشرح حجار النار التي هي بنو إسرائيل، ثمّ يستطرد أيضًا في الكاروبين. ويعود إلى رؤى دانيال: الحيوانات الأربعة، ثمّ تمثال الذهب والمَلِك نبوكدنصّر. ويشرح معنى الحيوانات الأربعة في سفر دانيال، ويعود إلى رؤية القرن الذي هو أنطيوخس أبيفانيوس، ثمّ إلى نبوءة الأسابيع. ويورد مثل الكرمة (إش ٥: ١ ي) ويشرحه مبيِّنًا أنّ الشعوب الوثنيّة حلّت محلّ الشعب اليهوديّ. ويقابل بين ملكوت السماء وممالك الأرض ويشدّد على دور رومة ويُنهي حديثه مشدِّدًا على انتصار الله وأن أُبقيَ ذلك سرًّا علينا.

المقالة السادسة وموضوعها أبناء العهد أو أبناء القيامة والمتنسّكون

يدعو الكاتب المؤمنين إلى التوبة ويحثّهم على الانطلاق بالسهر ومحاربة الشرّ بزيارة المرضى... ويدعوهم مرّة ثانية: مَن لم يلبس ثوب العرس، مَن أحبّ الحقول والتجارة، مَن لم يعطِ ثمرًا... فالحياة حرب، وجيَل العدوّ ماكرة. أمّا أوّل عدوّ للمجاهد فهو المرأة. ويذكر الكاتب أربع عشرة حالة كانت المرأة فيها سبب الخطيئة: مع آدم، مع يوسف، مع شمشون، مع رأوبين، مع هارون، مع موسى، مع داود، مع أمنون، مع سليمان، مع أحآب، مع أيّوب، مع آسا، مع يوحنّا، مع هامان، مع زمري. وهنا يشدّد أفراهاط على الفطنة في التعاطي مع النساء ويورد أمثلة موسى وإيليّا واليشاع ويوحنّا المعمدان وبولس الرسول. ثمّ يأتي بالوجهة الإيجابيّة لدور المرأة: الخلاص بنسلها. ويدعو المتنسّكين والمتنسّكات إلى قبول الجزاء ويحذّر المتنسّكات خاصّة من التراجع ويدعو الجميع إلى الصوم والصلاة ويقدّم النموذج الأوّل: يسوع الذي افتقر ليُغنينا... أمّا القاعدة الذهبيّة: فلنكن كما اخترنا أن نكون ولنكرم المسيح فينا. ويطرح الكاتب هذا السؤال: كيف يستطيع المسيح أن يقيم في البشر وهم كثيرون؟ فيأخذ أمثلة من الطبيعة (الشمس، المياه) ويُنهي بمثل موسى والسبعين شيخًا والمسيح الذي أخذ الروح. ويقابل بين إيليّا ويوحنّا المعمدان، وبين يسوع واليشاع. إنّ روح المسيح هو في المؤمنين، من اعتماد يسوع إلى قيامته وكذلك عمل الروح ظاهر، خاصّة في شاول وداود واليشاع. المجرّب يأتي في غياب الروح، فلنميّز كلّ روح ولنعرف كيف يهاجم الشيطانُ البشر. هنا يشرح الكاتب تعليميًا في آدم الأوّل وآدم الثاني: آدم الأوّل هو آدم الخطيئة، وآدم الثاني هو معطي الحياة: فالقيامة هي أن نلبس آدم السماويّ. وتنتهي المقالة بحثّ على الجهاد من أجل الزمن الأخير.

المقالة السابعة وعنوانها التائبون

يسوع هو الوحيد الذي لم تجرحه الخطيئة، أمّا الدواء لجرح الخطيئة فهو التوبة. ويحثّ الكاتب الجرحى على أن يذهبوا إلى مَن يشفيهم ويدعو الأطبّاء، رؤساء الجماعة، إلى أن يهتمّوا بالجرحى. ثمّ يحذّر الأطبّاء والجرحى من مغبّة إخفاء الجرح ويحثّ الرؤساء، راجعًا إلى الكتاب المقدّس أيضًا: فيا أيّها التائبون، تشبّهوا بهارون وداود وسَمعان بطرس، لا بآدم وقايين. ويأتي بأمثلة عن تواضع الآباء ويحذّرنا: ليست التوبة طمعًا بمراحم الله. ويدعونا إلى الكمال وإلى الحرب المقدّسة ويأتي بمَثَل في اختيار المحاربين، هو مياه جدعون، ويطبّق هذا المثل على ليتورجيّة المعموديّة. ويستطرد فيحدّثنا عن صفات الكلب ويعود إلى شرح قض ٧ في اختيار المحاربين. ثمّ يحدّثنا عن التوبة في الإنجيل ويحثّنا على المحبّة ويشير إلى الحالة الحاضرة: ليتذكّر المؤمن نهاية العالم وليعرف جميع المتنسّكين واجباتهم: كثيرون يركضون في الحلبة والمنتصر وحده ينال الإكليل.

المقالة الثامنة وموضوعها بعث الموت

نقطة الانطلاق سؤال: كيف يقوم الموت وبأيّ جسد يعودون؟ يجيب: جسد القيامة هو الجسد الذي وُضع في الأرض. تذكّروا مثل الزرع. ولكن كيف يتحوّل الجسد الأرضيّ إلى جسد سماويّ؟ منذ الآن، يُدعى الذين قبلوا الروح سماويّين. ويشدّد على إمكانيّة بعث الموت وهو عمل أسهل من عمل الخلق. لنؤمن بالقيامة على مثال إبراهيم ويعقوب ويوسف وموسى. ويأتي الكاتب بشواهد كتابيّة عن القيامة: أنا أُميت وأنا أُحيي، أمواتك يحيون وجثثهم تقوم... أمّا نموذج الموت المبعوثين فهم: إيليّا واليشاع وحزقيال. ولكن القيامة الأخيرة هي كمال كلّ هؤلاء، وقد بدأت حين أقام يسوع الشابّ في نائين وابنةَ رئيس المجمع ولعازر. ويتابع: الأبرار إحياء الله وإن

ماتوا، أمّا الأشرار فهم أموات لله وإن كانوا أحياء. فالموت الطبيعيّ رقاد، وفي الدينونة نكتشف عالَمين وصفتَين لله. ويحدّثنا عن الدينونة والجزاء الأخير. ويدعو الكاتب القارئ: لا تشكّ في أنّ الموتى يُبعثون... فاقتنِعْ وآمن بأنّ جسدك يقوم بكمال يوم القيامة، فتنال جزاء إيمانك.

المقالة التاسعة وعنوانها التواضع

يأتي الكاتب ببرهانه: التواضع مثمر، ويؤيّد كلامه بشواهد من الكتاب المقدّس. ثمّ يمتدح التواضع ويورد أمثلة من العهد القديم عن أشخاص تواضعوا (يعقوب، يوسف، موسى، داود، حزقيا، مردخاي). ثمّ يتوقّف عند مجيء المسيح المتواضع (البشارة، الميلاد)، ويدعو الإنسان إلى معرفة حالته الوضيعة. أمّا مصير المتكبّر فمعروف. ويعرض مبدأ الحسد العامل في العالم وأجرة الحسد، موردًا أمثلة من الكتاب المقدّس: حسدت الحيّة آدم، وقايين هابيل، ويعقوب عيسو، وهارون ومريم موسى، وأحآب نابوت، وإيزابيل إيليا، وهامان مردخاي. ويحثّ الكاتب على محبّة التواضع وممارسته، وهو يُعرف من ثماره: مثل الشجرة الصالحة والشجرة الرديئة. ويعود يحثّنا على محبّة التواضع التي هي شرط الارتفاع. هنا يقابل بين آدم والمسيح مخلّصنا ويدعونا لأن نأتي بثمار التواضع الحلوة.

المقالة العاشرة وموضوعها الرعاة

يدعو الكاتب الرعاة إلى السهر ويأتيهم بأمثلة من العهد القديم: يعقوب، يوسف، موسى، داود. هؤلاء اختارهم الله لقيادة شعبه نظرًا إلى خبرتهم في المواشي، أمّا الرعاة الأشرار فسيكون مصيرهم سيّئًا. فيا أيّها الرعاة، اقتدوا بالراعي الصالح الذي دعا سمعان بطرس إلى متابعة العمل. إقتدوا برعاة العهد القديم ولا تهتمّوا بالربح. ويحثّ الكاتب الرعاة على الفطنة في اختيار المدعوّين

لهذه الخدمة. ويختم الكاتب المقالات العشر السابقة، مبيّنًا أنّ كنز الله هو الروح الموهوب للجماعة، معلّمًا تلميذه كيف يقرأ ما كُتب له: خذ ما هو بنّاء، أمّا تعليم المعلّمين الكذبة فادحضه ولا تقبله لأنّ الجدال لا يبني.

ب ـ المجموعة الثانية

تتكوّن المجموعة الثانية من اثنتي عشرة مقالة وقد كُتبت سنة ٣٤٣/٣٤٤ في خضمّ الاضطهاد الذي هزّ كنيسة المشرق مدّة خمس سنوات. وها نحن نحلّل هذه المقالات.

المقالة الحادية عشرة وعنوانها الختان

نقطة الانطلاق: بركة إبراهيم هي أبوّة لجميع الشعوب. أمّا اليهود فيعتبرون أنّهم وحدهم نسل إبراهيم، ولكنّهم رُذلوا لشرّهم. وإن اعتمدوا على الختان، فالختان ليس شيئًا من دون الإيمان. ماذا انتفع يربعام مثلاً من الختان؟ أمّا أحنوخ فأرضى الله، ومثله نوح وإبراهيم قبل أن يُختَنوا. أُعطي الختان لإبراهيم ونسله في ظروف خاصّة، فمارسه حتّى الشعوب النجسة ختانًا في الجسد. أمّا الختان الحقيقيّ فهو علامة رعيّة الله في وسط سائر البشر. من أجل هذا، لم يحتجِ العبرانيّون إلى الختان في البرّيّة. ويستطرد الكاتب فيذكر السبب الذي لأجله يُختن المصريّون، مع أنّهم ليسوا أبناء إبراهيم. فالختان ليس شيئًا من دون الإيمان، فلو كان الأمر غير ذلك لاستطاع كلّ أبناء قطورة والأدوميّين والمصريّين أن يفتخروا بالختان. هناك عهود عابرة سبقت العهد الأخير والنهائيّ. أمّا المعموديّة فهي كمال الختان الحقيقيّ. هنا يقابل الكاتب بين يشوع ويسوع من ثمانية وجوه: كلّ منهما ختن شعبه، كلّ أجاز شعبه إلى أرض الميعاد وأقام الفصح...

يحثّه على السلام والصلاح ويرسم أمامه مثَل المخلّص. العالم مزيج من الأشرار والأخيار، ولكن الأشرار يتميَّزون، والصغار سوف يُرفَعون، مِثلَ شيت واليعازر وصموئيل وغيرهم. أمّا كنز إرادة الله فأعماله العظيمة في الكون. فيجب علينا أن نتأمّل كنز هذه الحكمة الإلٰهيّة، بل أن نشارك فيه بقبولنا، لأنّ الإنسان هو الخليقة الوحيدة التي تقدر أن ترفض إرادة الله. وهناك رفض لله في الحالة الحاضرة بسبب المخاصمين. ويمتدح الكاتب المسالمين ويشيد برئيس الرعاة يسوع المسيح ويشكره ويمجّده ويدعو المؤمنين إلى الابتعاد عن الشهوة القاتلة، مذكّرًا بضررها وفخاخها. ويعود إلى مبادئ الإصلاح الأخويّ وشقاء الذين يرفضون هذا الإصلاح، وشرّ المخاصمة والحسد. إذا كان الرؤساء اليوم يأخذون بالوجوه، فما تكون حال الجماعة؟ ويذكّر الكاتب بالغفران المتبادل، ويبيّن أنّ الأشرار يرفضون الإصلاح الأخويّ ويروي أمثلة من إرميا وحزقيال وموسى. ويورد مثل الزرع الجيّد والدينونة الأخيرة، فيؤكّد أنّ موقف السامع يدلّ على ما في قلبه، وأنّه، رغم ما في العالم من مزيج، فالربّ سيميّز في النهاية. وتنتهي المقالة بحثّ على السلام: طوبى لفاعلي السلام، فإنّهم أبناء الله يُدعَون.

المقالة الخامسة عشرة وعنوانها تمييز الأطعمة

يذكّر الكاتب بوصيّة الطاهر والنجس، ثمّ يجادل اليهود، مستندًا إلى العهد الجديد: الطعام لا ينجّس الإنسان. ويبرهن على ذلك انطلاقًا من الملاحظة الطبيعيّة وشهادة القدّيس بولس: الخليقة حسنة، أمّا استعمالها فيمكن أن يكون سيّئًا. والسبب في تمييز الأطعمة هو إبعاد إسرائيل عن عبادة الأوثان. والبرهان: لم تُفرض هذه الشريعة على الأجيال الأولى، ولم تُفرض على موسى في مصر. ويبيّن الكاتب أنّ بني إسرائيل عبدوا الأصنام في مصر، منطلقًا من النصوص

الكتابيّة. جاء تمييز الأطعمة والذبائح ليُبعد بني إسرائيل عن العادات المصريّة ويروي مَثَل شمشون الذي أكل طعامًا نجسًا. أراد الربّ أن يحارب عبادة الأصنام فأجبرهم أن يذبحوا ما عبدوا، وحين تعوّدوا عبادة الأصنام، رفض الربّ ذبائحهم. وإذا كان الله قد رفض شعبه، فلأنّه لا يمارس العدالة. الشريعة لا تخلّص والوصايا لا تكفي والأحكام خفّفها يسوع. فلا حاجة إلى الافتخار بهذه الممارسات المتعلّقة بالختان والسبت والأطعمة.

المقالة السادسة عشرة وموضوعها: حلّت الشعوب الوثنيّة محلّ الشعب اليهوديّ

أعطيت البركة لإبراهيم من أجل جميع الشعوب، وهي تسبق اختيار الله لإسرائيل، فقد جاء الزمن المسيحانيّ ونالت كلّ الشعوب البركة. هذا ما يقوله يعقوب وموسى وأشعيا. وإذا كان بنو إسرائيل قد رُذلوا، فلأنّهم رفضوا الطاعة للربّ فسمّاهم أهل سدوم وشعب عمورة. لقد حلّت الشعوب محلّ الشعب الخاطئ. ويأتي الكاتب بشواهد من أسفار الأنبياء ويُنهي بأنّ الله تبنّى الشعوب الأمينة له. ويأتي أيضًا بنماذج وثنيّة اختارها الله: الجبعونيون، راحاب، عوبيد أدوم، عبد ملك الكوشيّ، راعوت الموآبية، أوريا الحثّيّ. فالمسيح هو عهد الشعب والشعوب، وحين دخل الوثنيّون في عهده، لم يعد إسرائيل عابد أوثان. فلا حاجة إلى التكبّر والقول: نحن أبناء إبراهيم، فالأغصان خطئت وقُطعت.

المقالة السابعة عشرة وعنوانها المسيح ابن الله

يقول اليهود: لا ابن لله، فيجيب معلنًا إيمانه، موردًا ألقاب يسوع. فلقب الله أُطلق على صدّيقين مثل موسى، ولقب ابن الله أُطلق على ناس، كما أُطلقت ألقاب أخرى، فلماذا نخاف أن نطبّقها على المسيح؟ الله عظيم من أجل البشر، وإذ خلقهم، لم يرفض لهم

شيئًا ممّا يملك، ويشرح الكاتب آيتَين تتحدّثان عن آدم، أوّل وآخِر كلّ الخلائق. هو الأوّل في فكر الله والآخِر في تنفيذ أعمال الله. ويعود الكاتب إلى ألقاب المسيح التي لا تبدو غريبة، ويأتي بشواهد من الأنبياء عن المسيح ابن الله. ثمّ إنّ الشعوب الوثنيّة آمنت بالمسيح. وسقوط أورشليم يدلّ على أنّ يسوع هو المسيح الذي به تتمّ النبؤات. ويتوقّف الكاتب عند أحداث الآلام والقيامة في ضوء العهد القديم. ويُنهي كلامه بالقول إنّ الألقاب المطلقة على المسيح توافق الكتب المقدّسة.

المقالة الثامنة عشرة يوجّهها إلى اليهود وعنوانها البتوليّة والقداسة

يرفض اليهود حالة البتوليّة ويعلّلون رفضهم بأنّ البركة مرتبطة بايلاد البنين. فيجيبهم الكاتب أنّ بارًا واحدًا في نظر الله أفضل من ألف شرّير: نوح أفضل من كلّ جيله، وموسى أفضل من كلّ شعبه. والله نفسه يحبّ البتولين. فهكذا عاش موسى بعد أن كلّمه الله، وقد طلب من الشعب عدم الاقتراب من النساء قبل لقاء الربّ. البتوليّة حسنة، أمّا النسل الشرّير فلا يستحقّ أن يُذكر: نسل زمريّ وعالي. وتجاههم موسى ويشوع وإيليّا واليشاع. ويناقش مع اليهود نصّ إرميا الذي يطلب فيه الربّ منه ألاّ يأخذ امرأة، فيقولون: بسبب الظرف الحاضر. لا شكّ في أنّ الزواج حسن، ولكن البتوليّة أحسن. الله خلق النور والظلمة، ولكن النور أفضل. ويورد الكاتب سبعة أمثلة عن ذلك. ثمّ يورد سبعة أخرى تدلّ على أنّ الشرّ دخل العالم بعد فقدان البتوليّة: شمشون، داود، أمنون، سليمان... ويشرح تك ٢: ٢٤، ويُنهي بتشجيع المتنسّكين على البتوليّة لأنّهم اختاروها بحرّيّة لا بالإكراه.

المقالة التاسعة عشرة يوجّهها إلى اليهود الذين يقولون إنّهم سيجتمعون ثانية

يعود الكاتب إلى التاريخ ويذكر رجوعَيْن من المَنفى، واحدًا مع موسى والآخر بعد سنة ٥٨٧ ق م. في الرجوع الثاني، كثيرون رفضوا الدعوة إلى العودة وفضّلوا البقاء في المنفى عن قصد سيّئ، فمن المحال انتظار رجوع ثالث، لأنّ الله يعامل كلّ واحد بحسب ما يستحقّ. فإسرائيل أخطأ وردَّ خير الله شرًّا حين عبد الأوثان (شواهد من الكتاب)، لهذا ينال جزاء قساوة قلبه. ويعود أفراهاط إلى نصوص الكتب المقدّسة ليدلّ على أنّ الله رذل شعبه ودعا الشعوب إلى جبله المقدّس ليجمعهم هناك. ويعود الكاتب إلى التاريخ فيبيّن أنّ الرجوع الثاني من المنفى هو الرجوع الأخير، ويستند إلى نصوص إرميا ودانيال يوردها ويبيّن كيف أنّ نبؤة إرميا تتحدّث عن سقوط أورشليم النهائيّ. ويشرح أفراهاط نصّ زكريّا الذي يتحدّث فيه عن إعادة بناء أورشليم، فيبيّن أنّ الزمن مضى وأنّ كلّ شيء ينتظر ذلك الذي بيده الصولجان، أي يسوع المسيح. أجل، دُمّرت أورشليم وستبقى مدمّرة.

المقالة العشرون وعنوانها مساعدة الفقراء

بعد أن امتدح مساعدة الفقراء، يذكّر بهذا الواجب، مستندًا إلى الكتاب المقدّس، ويورد مثل السنة السبتيّة، ثمّ شريعة أجر العامل اليوميّ. ويعرض لنا داود مثالاً لهذه الفضيلة ويتحدّث عن العلاقة بين الغنيّ والفقير، فيصل إلى مثلَين من الإنجيل: الدينونة الأخيرة والغني الأحمق. ثمّ يورد مثل لعازر والغنيّ ويطبّقه على يسوع وإسرائيل والشعوب. الصدقة تمحو الخطايا، ورحمة الله توصل الشعوب إلى المعرفة. كان أيّوب محبًّا مع غناه، فطلب الرحمة فأُعطيت له. ويورد الكاتب تنبيه يسوع إلى مساعدة الفقراء ويرينا الجزاء الأخير، ويذكر تطويبة الفقراء بالروح: الأغنياء (إبراهيم، لوط)

الذين استضافوا الغرباء صاروا فقراء. أمّا الشابّ الغنيّ فما أراد أن يسير وراء المسيح.

المقالة الحادية والعشرون وعنوانها الاضطهاد

يُضطهد المسيحيّون فيعيِّرهم الوثنيّون واليهود على السواء، ويسألهم اليهوديّ: أين ذلك الإيمان الذي ينقل الجبال؟ فيجيبه الكاتب ويسأله عن إمكانيّة إعادة بناء أورشليم، منطلقا من نصّ حزقيال ١٦: ٥٥، ويستنتج أنّ أورشليم دُمِّرت إلى الأبد لأنّها ليست أفضل من سدوم وعمورة، كما يقول النبيّ، وهكذا تعود إلى حالتها كما في القديم. ويعود اليهوديّ إلى الهجوم: اضطُهدتم وما أصلحتم طرقكم. فيبيِّن له أفراهاط من نصوص الكتاب أنّ اليهود تركوا الله واحتفروا آبارًا مشقّقة. ثمّ يشجّع الجماعة المضطهَدة ويذكر لها الجزاء الذي يُحفظ للأبرار في العهد القديم: يعقوب، يوسف، موسى، يشوع، يفتاح، داود، إيليّا، أليشاع، حزقيا، يوشيا، دانيال، حنانيا وإخوته، مردخاي. ويقابل الكاتب بين كلّ من هؤلاء الأشخاص ويسوع المضطهَد، ويشجّع الجماعة، قائلاً لها إنّ مصيرها مصير يسوع. وهذا يعني أنّ روح يسوع فيها. ويعدّد أفراهاط الشهداء في العهد القديم والعهد الجديد وفي الكنيسة.

المقالة الثانية والعشرون وموضوعها الموت والأزمنة الأخيرة

ليس الموت نهاية، إنّه بداية. الموت يزول ولكن سلطانه أبديّ. يشير الكاتب إلى روم ٥: ١٢ - ١٤ ويحثّ المؤمنين على تذكّر الموت الذي يبدّد خيرات هذا العالم، ويصوّر لنا رقصة الموت الذي يفعل فعله في العالم. ثمّ يعلن: لا سلطان للموت على كنز الصدّيقين. ويصوّر مقام الأبرار ما وراء الموت في مكان هو غير السماء. ويعود إلى رقصة الموت ليقول إنّها بالقيامة والدينونة. عندئذ يظهر مصير الأخيار

ومصير الأشرار ويقبل كلّ واحد الجزاء الذي يستحقّ: يكون الأبرار في درجـات، والأشرار يُحكم عليهم بـالعـذاب. ويختتم الكـاتب المجموعة الثانية، ويورد لائحة بالمقالات ويذكر الوقت الذي كتبها فيه ويضع قواعد لقراءتها قراءة مفيدة.

ج - المجموعة الثالثة

تتكوّن المجموعة الثالثة من مقالة واحدة كتبهـا أفراهـاط سنة ٣٤٥ وعنوانها: خصلة العنب. هي المقالة الثـالثة والعشرون التي نتحدّث عنها الآن.

يبدأ المقالة بقوله إنّ العالم ثابت بفضل الصدّيقين الـذين هم خصلة بركة في عنقود. كلّ منّا يُحكم عليه بحسب أعماله، فيبقى علينا أن نتصرّف من هذا المنطلق. ويذكر الكاتب ظروف اللعنة الأولى ونتائجها ويبيّن أنّ الوصول إلى البركة يتمّ بالمشاركة في ثمرة الحياة. فالعالم مزيج، وهو ثابت بفضل الله الخالق والصـدّيقين. فـإن زال الصدّيقون، زال العالم. ويورد أمثلة نوح وإبراهيم وموسى. ولكن، حين يزول توازن العالم، لا تعود صلاة القدّيسين تُشكّل ثقلاً. هذا ما قال الله لإرميا (١٥: ١ ـ ٣) وحزقيال (١٤: ١٢ ـ ٢٠). وهذا ما يجعل صلاة الأبرار غير مستجابة في بعض الظروف. ولكن لا نيأس لأنه سيبقى دومًا أبرار في العالم ليكونوا عامل تماسك وغنى. ويعود إلى قضيّة الصلاة غير المستجابة ومعنى آلام يسوع، فيكتشف السرّ من خلال شهود ثلاثة هم موسى وإيليّا ويسوع. إذا كان العـالم ثابتًـا، فبفضل البركة المسيحانيّة المطمورة ككنز في الصدّيقين، وهذه البركة تنتقل منذ آدم من جيل إلى جيل: آدم، نوح، إبراهيم، إسحٰق، يعقوب، يهوذا... حتّى الملوك. وبعد أن يستطرد عند حزقيا وأيّوب، يعود إلى لائحة حاملي البركة إلى موت المسيح ودمار أورشليم. وُلد

المسيح وقُتل فانتُزعت الخصلة من العنقود وسُلِّم العنقود إلى الفساد والدمار. ويعدِّد الكاتب ٥٣ اسمًا حملوا البركة في العهد القديم، ثمّ يحسب سنوات انتقال البركة: قبل نوح، بعد نوح، إبراهيم وأولاده، موسى قائد الشعب والقضاة وداود والملوك الذين جاؤوا بعده. وحين مات المسيح دُمِّرت أورشليم ولم تعد تُسكن، فانتقلت البركة إلى الشعوب بواسطة المسيح. وهنا نفهم معنى الاضطهاد: المسيحيّون يرسمون في حياتهم صورة معلّمهم. أمّا عطيّة الله للوثنيّين فهي حضور المسيح، وعطيّة المسيح عربون سعادتنا.

هنا يبدأ فعل شكر من عشرة مقاطع، ثمّ تأمّل في عطيّة الله ينتهي بصلاة واثقة في وقت الضيق، يذكّر فيها المؤمنُ الله بخيراته السابقة، ويدعوه إلى أن يعمل، وهو خالق الكون وسيّد كلّ قوّة. يتوسّلون إليه ليجدّد خيراته السابقة ويدهشون من إرادته الخلاّقة التي ترتاح في الإنسان. لا يستطيع الإنسان أن يحيط بالله الواحد واللامحدود، ولهذا عاد إلى الأصنام. فيهاجمه الكاتب ويعود إلى فعل شكر يمجِّد فيه الإله الواحد ويُفهمنا أنّ الإيمان به يتضمّن حفظ وصاياه. هنا يتوقّف أفراهاط عند الحلف الكاذب وعند تعليم يسوع في هذا المجال، فيشرحه ويبيّن، انطلاقًا من العهد القديم، أنّ خطيئة الحلف الكاذب لا يمكن أن يُكفَّر عنها. أما أوصلت ملوك يهوذا إلى دمار أورشليم؟ لهذا لا نحلف، ولا نركّز على خيرات هذا العالم الزائل. وتنتهي الرسالة بحديث بين المعلّم وتلميذه، وتاريخ يدلّ على زمن كتابتها: في السنة الستمائة والستّ والخمسين لملك الإسكندر، بن فيلبّس المقدوني، وفي السنة السادسة والثلاثين لشهبور الملك الفارسيّ الذي أمر بالاضطهاد، وفي السنة الخامسة التي اقتُلعت فيها الكنائس، وفي السنة التي هلك فيها كثير من الشهداء في بلاد المشرق.

الفصل السادس

أفراهاط والكتاب المقدّس

عندما نقرأ مقالات أفراهاط، نحسّ أنّها منسوجة من آيات الكتاب المقدّس، مرسومة بأشخاص الكتاب المقدّس.

أ ـ النصوص الواردة: لقد حاول النقّاد أن يجمعوا النصوص، فأورد غاوين ١٠٥٦ إيرادًا واضحًا من العهد القديم و٦٤ من العهد الجديد. أمّا رأيت، ناشر أفراهاط الإنكليزيّ، فأحصى ٧٩٤ إيرادًا من العهد القديم و٤٤٦ من العهد الجديد. وعدّ باريزو، ناشر أفراهاط الفرنسيّ، الإيرادات، فوجد ٩٨٧ من العهد القديم و٧٥٣ من العهد الجديد. وأحصت ماري جوزيف بيار، بين إيراد صريح وتلميح، ٢٦٩١ من العهدَين الجديد والقديم: في المقالة الأولى، ٦١ من العهد القديم و٥٤ من العهد الجديد. في المقالة الثانية، ٤١ من العهد القديم و٩٥ من العهد الجديد. في المقالة الثالثة، ٧٢ من العهد القديم و٩ من العهد الجديد. في المقالة الرابعة، ٩٩ من العهد القديم و٢٦ من العهد الجديد. في المقالة الخامسة، ١٣٨ من العهد القديم و١٤ من العهد الجديد. في المقالة السادسة، ٨ من العهد القديم و١٦١ من العهد الجديد. ولكن هذه الأرقام لا تساعدنا على تكوين فكرة واضحة. فهناك إيرادات قصيرة وهناك إيرادات طويلة تمتدّ على بضعة آيات، بل حتّى على فصل كامل كما هي الحال مثلاً في سفر دانيال.

هنا نتساءل إلى أيّ الكتب رجع إفراهاط في العهد القديم؟

إذا نظرنا إلى النصوص، نكتشف أنّ الحكيم الفارسيّ أخذ من جمع أسفار التوراة العبرانيّة، من أسفار الشريعة وكتب التاريخ، من الأنبياء والمزامير وسائر الكتب الحِكَميّة. أخذ من دانيال واستير، واستقى من طوبيّا والجامعة وابن سيراخ. ولكنّه لم يلجأ مرّة إلى الكتب المنحولة التي كانت معروفة في محيط المعلّمين. إلى أيّ نصّ لجأ أفراهاط؟ نشير هنا إلى أنّ الترجمة السريانيّة البسيطة لم تفرض نفسها قبل القرن الخامس، وهذا يعني أنّنا مضطرّون أن نرجع إلى الترجمة السريانيّة القديمة التي نشر كيورتون الإنكليزيّ نسخة عنها أو إلى النسخة السينائيّة. وبما أنّه ليس في أيدينا نسخة علميّة لهذه الترجمة السريانيّة القديمة، فنحن لا نستطيع أن نجزم الأمر، لا سيّما وأنّ أفراهاط كان يورد النصوص غيبًا. وقد حصل له بعض المرّات أن نسب نصًّا إلى شخص آخر. إليك على سبيل المثال هذه الآية: «يكون في ذلك اليوم، يقول الربّ، إنّي أغيِّب الشمس وقت الظهر واجعل الظلام على الأرض في يوم منير» (١١/١). يقول أفراهاط: كما كُتب في زكريّا النبيّ. والواقع هو أنّ الآية مأخوذة عن عاموس ٨: ٩. وهناك بضعة أمثلة[1] من هذا الخطأ، يشارك فيه أفراهاط غيره من الكتّاب. وهذا ما حدا بالنقّاد إلى القول بأنّه كان هناك سلسلة شواهد مأخوذة من الكتاب المقدّس يلجأ إليها الواعظ أو الكاتب ولا يحتاج إلى أن يرجع إلى نصّ الكتاب المقدّس كلّه.

أمّا في العهد الجديد، فأورد أفراهاط نصوصًا من الأناجيل وأعمال الرسل ورسائل القدّيس بولس بما فيها الرسالة إلى العبرانيّين، ورسالة يوحنّا الأولى ورسالة يعقوب. ولكن يبدو أنّه لم يورد نصوصًا من رسالتَي بطرس ولا من سفر الرؤيا. والمعلوم أنّ الكنيسة الشرقيّة لم

---

(١) راجع ١٥/٧ حيث نقرأ: وقال أشعيا أيضًا: انفصلوا عنهم وسمّوهم أنجاسًا. لا تعود هذه الآية إلى أشعيا بل إلى مراثي إرميا ٤: ١٥.

تأخذ بسفر الرؤيا إلاّ في وقت متأخّر جدًّا. وحين يورد الأناجيل، لا يسمّي الإنجيليّين، بل يقول: قال ربّنا أو قال مخلّصنا أو قال محيينا. نقرأ مثلاً ٤/١٠: كما كتب ربّنا: أبوكم عارف قبل أن تسألوه. ونقرأ أيضًا في ٤/١١: قال محيينا كلمة أخرى: حيث اجتمع اثنان وثلاثة باسمي[٢]. أمّا اسم الكتاب فهو البشارة، سبرتو في السريانيّة. نقرأ في ١/١٠: كما كُتب في رأس بشارة محيينا، وفي ١٤/١٣: وكا ديّانًا وربًّا للموتى والأحياء كما قال في بشارته[٣]. وترد كلمة إنجيل أو (إنجيليّون) ثلاث مرّات. ففي ٦/٢٠، نقرأ مَن يهزأ بأخيه ويسخر منه، تتمّ فيه الكلمة المكتوبة في الإنجيل[٤]. هذا الإنجيل هو إنجيل المسيح. هذا ما يعترف به أفراهاط قائلاً: كما كتب ربّنا (٤/١٠)، وهذا ما يُقرُّ به أيضًا خصمه اليهوديّ قائلاً: يسوع المدعوّ معلّمكم كتب لكم (٢١/١).

ونتساءل: هل استعمل أفراهاط الأناجيل الأربعة المسمّاة منفصلة أمّ الإنجيل الواحد في أربعة والمسمّى دياطسارون؟[٥] إذا

---

(٢) راجع أيضًا ٨/٣، محيينا الذي أتى كتب لنا. في ١٤/١٠١ نقرأ: لأنّ هذا ما كتب لنا الملك. في ٢١/٢٢: يسوع كتب لنا... وعلّمنا. وفي ٢٣/٥٣: كما علّمنا حبيبك... وكتب لنا.

(٣) نقرأ على لسان بولس الرسول (أف ٦: ـ ١٥ ـ ١٦): إعداد بشارة الخلاص (٦/١). وفي ٢٣/٩: كرزت عليكم مجّانًا بشارة المسيح، وقال أيضًا: أريد أن أعطي البشارة من دون نفقة. وعلى لسان أفراهاط، نقرأ نصّ المزمور ١٩: ٤: في كلّ الأرض خرجت كلمة بشارة المسيح (٩/١).
ونقرأ في ٢٠/١١: كما هو مكتوب في إنجيله.
وفي ٢٢/١٨: وافهم ما عرّفنا ربّنا في بشارته.

(٤) ترد العبارة «أعداء الإنجيل» مرّتين في ٦/٢ وفي ١٢/٩.

(٥) دوّن الدياطسرون طاطيانس في القرن الثاني ب.م. ففرض نفسه في الكنائس الشرقيّة. أتلفت كلّ النسخات السريانيّة، ولكن هناك مقاطع في شروح مار أفرام، وهناك نسخات في العربيّة والفارسيّة...

رجعنا إلى النصوص الإنجيليّة الواردة في المقالات، نلاحظ أنّ النصّ يجمع آيات من أناجيل مفترقة. ولكن هناك بُرهانان يَبدوان حاسمَين. الأوّل: يقول أفراهاط: كلمة الربّ وقوله هما المسيح، كما كُتب في رأس بشارة محيينا: في البدء كان الكلمة وشهد أيضًا على النور فقال: النور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه. فبُشارة يسوع تبدأ في متّى، لا في يوحنّا، ثمّ إنّ يو ١: ٥ يتبع حالاً يو ١: ١، في الدياطسارون. والبرهان الآخَر: يورد أفراهاط في موضعَين نصًّا من يوحنّا، ثمّ يعود إلى الإزائيّين، فيبدو وكأنّ الايرادَين يرجعان إلى إنجيل واحد. فالمناسبة الأولى هي حادثة لعازر والغنيّ: يقرّب أفراهاط لو ١٦: ٢٢ من يوحنّا ٢٠: ١٣ الذي يتحدّث عن مريم المجدليّة عند القبر فيقول (٢٠/١١): «ومات المسكين وأوصلته الملائكة إلى حضن إبراهيم (لو ١٦: ٢٠)، كما قالت مريم: «أخذوا ربّنا ولا أعرف أين حملوه» (يو ٢٠: ١٣). فقال هؤلاء الملائكة لمريم: قام وذهب إلى من أرسله (مت ٢٨: ٦. يو ١٦: ٥). وخدمة الملائكة كما قيل أعلاه في إنجيله: نزل الملائكة، وخدموا يسوع (مت ٤: ١١) حين تقرأ هذا المقطع، لا تعرف إلى أيّ إنجيل يشير، إلاّ إذا كان الدياطسارون ذلك الإنجيل الذي هو خلاصة الأناجيل الأربعة.

والمناسبة الثانية نقرأها في المقالة عن الاضطهاد، وهي المقالة الواحدة والعشرون. قال يسوع: إن اضطهدوني، فسوف يضطهدونكم أيضًا. ولهذا يضطهدونكم، لأنّكم لستم من العالم كما إنّي لست منه (يو ١٥: ٢٠، ١٩؛ ١٧: ١٤). وكان قد كتب سابقًا: يبغضكم كلّ إنسان من أجل اسمي (لو ٢١: ١٦ ـ ١٧). فهذا يعني أنّ يو ١٥: ١٩ ـ ٢٠ يرد في الإنجيل قبل لو ٢١: ١٦ ـ ١٧. هذا صحيح، لا في الأناجيل المنفصلة، بل في الدياطسارون (٢١/٢١). وهناك إشارة أخرى حين يقول: والكلمة صار جسدًا (فغرو) كما في الدياطسارون، ولا يقول بشرًا (بسرو) كما في الأناجيل

المنفصلة، وحلّ فينا (١٠/٦). وحين يتحدّث أفراهاط عن غفران الخطايا أربعمائة وتسعين مرّة في اليوم الواحد، يجمع لو ١٧ : ٣ إلى مت ١٨ : ٢١ ـ ٢٢ (١٣/٢). وأخيرًا يذكر في المقالة الثانية سلسلة من المعجزات بشكل عقد من اللؤلؤ بحسب ترتيب الدياطسرون.

كلّ هذا يدفعنا إلى القول بأنّ أفراهاط استعمل الدياطسارون. ولكن النصّ السريانيّ فُقد، فلم يبق لنا إلاّ مقاطع عند مار أفرام السريانيّ. فإذا قابلناها بما نقرأه عند أفراهاط، نجد أنّها مطابقة في أكثر الأحيان. أمّا الخلافات المتبقيّة بين نصّ أفرام ونصّ أفراهاط، فتعود إلى وجود نسختَين لنصّ واحد، وهذا أمر معقول جدًّا.

ويورد أفراهاط نصوصًا عديدة من رسائل القدّيس بولس يستهلّها بهذه العبارة: قال الرسول (٨/٢٣، ١١، ٥٠، ٦٣) وشهد الرسول (١٠/٢٣، ٤٧) أو شهد بولس الرسول (٤٤/٢٣). ولكنّنا نجد في المقالات الأولى هذه العبارة: قال أو شهد أو فسّر الرسول الطوباويّ (٣/١، ٤، ٨، ١٢، ٠٠٠٠١٦). ونجد أيضًا: قال الرسول المجيد (٢٢/١٣) أو معلّم الشعوب (٢٢/٢٣). ترد في المقالات نصوص من الرسالة إلى أهل رومة، من الأولى والثانية إلى الكورنثيّين، من الرسائل إلى أهل غلاطية، وأهل فيلبّي وأهل كولسي، من الأولى إلى التسالونيكيّين، من الأولى والثانية إلى تيماوتاوس، من الرسالة إلى تيطس ومن الرسالة إلى العبرانيّين التي ينسبها بكلّ بساطة إلى بولس الرسول (١٤/٢، ١٣ : ١٢، ١٣).

إذا قابلنا نصوص أفراهاط البولسيّة، نرى أنّها تختلف عمّا نجده في النسخة السريانيّة البسيطة. ولقد انطلق بعضهم من اختلاف بين نصّ الحكيم الفارسيّ ونصّ الكتاب الرسميّ، فحسب أنّ أفراهاط تصرّف بنصّ القدّيس بولس. واتّخذ مثلاً على ذلك ١ كور ١٠ : ٢٧. يقول النصّ: إذا دعاك وثنيّ، فزاد أفراهاط: إلى عشاء. ولكن هذه

العبارة موجودة في المخطوطات اليونانيّة الغربيّة وفي نسخات لاتينيّة وفي الترجمة الصعيديّة. هذا يعني أنّ النسخة التي كانت بيد أفراهاط كانت مختلفة عن النسخات التي بين أيدينا.

يورد أفراهاط النصّ الكتاب فيُسبقه بمقدّمة: كما قال، كما شهد . . . وكلّ هذا يدلّ على سلطة الكتاب المقدّس الآتية من الله أو من الذي يحمل كلمته: موسى، الأنبياء، يسوع، بولس الرسول. أقوال يسوع وأقوال بولس، ككلّ أقوال العهد القديم، هي كلمة الله، وقد كُتبت بإصبع الله. العهد القديم والعهد الجديد يخرجان من فم الله. يسوع هو الفمّ المقدّس (١/١٥) كالله، والأنبياء يتكلّمون فيبدو كلامهم وكأنّه آتٍ من عند الله. هكذا هو موسى (٩/٨، ١٠) الذي تكلّم بفم الله (٣/٢٢)، وهكذا كان أشعيا (٢/٢١) وسائر الأنبياء (٥٩/٢٣). كلّ هذه الكتب هي تعبير عن إرادة الله الواحدة في تدبيره الخلاصيّ. كلمات تكمل بعضها بعضًا ولا تتعارض، لأنّ الله واحد وكلمته واحدة، وإن تنوّعت في الزمان والمكان.

ب ـ شخصيّات الكتاب المقدّس

هذا فيما يختصّ النصوص الواردة. أمّا الأشخاص الكتابيّة فهي عديدة: من آدم حتّى موسى وداود إلى المسيح وسمعان بطرس وإسطفانوس. منهم مَن يذكرهم مرّة واحدة، كإسطفانوس الذي استُشهد رجمًا بالحجارة (٢٣/٢١) ومنهم مَن يُطيل الحديث عنهم كآدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود ودانيال وغيرهم. وها نحن نتوقّف عند بعض هذه الأسماء.

١ ـ آدم. خلقه الله (١/٨، ٨)، بل أخذه من تراب الأرض (٨/٦، ١٤/٩) فما حبل به بشر (٦/٨). هو بكر كلّ الخلائق، وقد حبل الله به في فكره أوّلاً (٦/١٧، ٧) ثمّ ولده بعد سائر الخلائق

فكان الأوّل والآخِر. هو أفضل من حوّاء (٨/١٨)، وقد ظلّ محبوبًا ما دام بتولاً. ولّما ولد حوّاء، ضلّ وعصى الوصيّة (٩/١٨). باركه الله ليملأ الكون (١/١٨، ٢) كما بارك نوحًا وإبراهيم وأعطاه وصيّة في أمر الشجرة (١٧/٨، ٣/١١، ١١؛ ٤/١٣، ٢٢/١٤؛ ١/٢٢)، إلاّ أنّ الشيطان أضلّه (٣/٦؛ ٣/٢٣)، وأغوته حوّاء (١٢/١٤) فعصى الوصيّة وتمرّد (٩/١٨). دعاه الله إلى التوبة حين سأله: أين أنت؟ فأخفى آدم خطيئته أمام الذي يمتحن القلوب (٨/٧؛ ٤٢/١٤). فطُرد من الفردوس (١٠/١٤، ١٢؛ ٤٠/١٤) ونال اللعنة. خضع للعمل والتعب والموت (٨/٧) وخسر المجد الذي تحلّى به منذ البدء (٥١/٢٣). ولكن المسيح أعاد له ذلك المجد فحمل البركة مرّة أخرى وحفظ نسل القدّيسين (١٤/٢٣) وصار حارسًا للحبّة التي ألقاها الله في الأرض. لم يكن خاضعًا إلاّ لوصيّة واحدة، هي وصيّة الشجرة، فلم يعرف وصيّة السبت (٤/١٣) ولم يخضع لأحكام الطعام النقيّة والنجسة، مثل بني إسرائيل (٣/١٥). عمّر آدم طويلاً فعرف لامك، ولكنّه مات قبل الطوفان بأربع سنوات (٣٠/٢٣).

وكان لآدم ابنان، هابيل الذي قبل الله قرابينه فأرسل عليها النار فأحرقتها (١/١٤؛ ٢/١٤). أمّا قرابين قايين، فلم تُقبل، بل رذلها الله. صام هابيل فكان صومه نقيًّا حين قدّم تقدمته (٢/٣) وصلّى فكانت صلاته نقيّة (٢/٤). أمّا صلاة قايين فلم تكن نقيّة، فلعب الحسد والغشّ في قلبه فقتل أخاه. هابيل هو ابن الإيمان الذي يُرضي الله (١٤/١) فلم يحتجّ إلى الختانة ليُرضي الله، بل حفظ عهده مع الله فبرّره (٣/١١).

كان شيت ابن آدم وجدّ المسيح (٦/١٣؛ ٢١/٢٣) والنسل المبارك بعد قايين (٣٣/١٤)، ولكن نسله سيختلط بنسل قايين

(٥/١٣) فيحلّ الفساد في الأرض. وننتقل من أنوش إلى رعو وسروج... أجداد المسيح، حتّى نصل إلى أخنوخ.

أخنوخ هو ابن يارد وجدّ المسيح (٦/١٣ ; ٢٧/٢٣)، ومثال الصوم النقيّ (٢/٣). أرضى الله بإيمانه، فانتُزع من الموت (١٤/١) وانتقل حيًّا إلى الله (٣/١١). لم يُرضِ الله لأنّه حفظ الشريعة، لأنّ رضى الله لا يقابَل بوصيّة، بل أرضى الله بكلّ حياته، فنقله إليه فلم يكن للموت سلطان عليه (٣/٢٢) كسائر البشر.

٢ ـ نوح: هو ابن لامك (٦/١٣، ٢٠/٢٣) وابن الراحة، لأنّه أراح الله (٤/٢٣، ١٣، ١٤). كان رجلاً بارًّا وكاملاً ومتواضعًا في وسط جيل فاسد (٢/٣). وبسبب كماله وجد حظوة عند الربّ فحفظه من الطوفان (١/٩). لم يكن كاملاً لأنّه حفظ السبت، بل لأنّه حفظ عهده مع ربّه (٥/١٣). أحسّ أنّ نسل الشرّ يكثر فرفض أن يتزوّج ويُنجب أولادًا لئلاّ يختلط نسله بنسل قاين ويصير ملعونًا كنسل قاين. غير أنّ الله طلب منه أن يتزوّج ليجدِّد نسل الأبرار على الأرض، ففعل وهو ابن خمسمائة سنة، وسينبِّه أبناءه ألاّ يأخذوا من نسل قاين، بل زوّجهم من نسل الصدّيقين ليُحفظ نسل الأبرار ويُعاد بناء الأرض (٥/١٣).

طلب الربّ منه فبنى السفينة وأقام فيها اثني عشر شهرًا وعشرة أيّام (٧/١٣). نجّاه الله من الموت لأنّه آمن (١٣/١)، وحفظه من غضب الطوفان وقطع عهدًا معه ومع نسله من بعده لينموا ويكثروا (٣/١١). المحبّة هي التي نجّته (٤/١٤)، وهي التي رفعته ليكون أبا العالم الثاني (٣٣/١٤)، واختاره الروح وامتحنه، لأنّ من نسله سيولد المسيح محيي العالم والذي يلغي اللعنة عن آدم (٧/١٣). إختاره من أجل تجديد العالم (٥/١٣) والمحافظة على نسل الصدّيقين. كان أفضل من كلّ جيل الأشرار في أيّامه، فباركه الله أيضًا لينمو ويكون

له أولاد يمتلئ منهم العالم ويكثر نسل بني آدم (١٨/١).

كان نوح أبا الأتقياء والصدّيقين وجدّ المسيح. عمّر طويلاً فرأى شيثًا ونسله (٢٣/٣١)، وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة. أقام في أور الكلدانيّين (٢٣/١٥) وهناك سلّم البركة إلى إبراهيم. مات بعد ناحور بإحدى عشرة سنة (٢٣/٣٩) ورأى نسل شيث ومات في شيبة صالحة، حين كان عمر إبراهيم ثمانية وخمسين سنة (٢٣/٣١). فكانت سنوات حياته تستعمائة وخمسين سنة (٢٣/١٥).

لعن نوحُ كنعان (٣/١٣) ابن حام، وسلّم البركة إلى سام ابن الصدّيقين (٢٣/١٤). صلّى فنجا هو أهل بيته من الطوفان، ولكن صلاته من أجل الجيل الخاطئ لم تُستجب (٢٣/٥). ثمّ إنّ أبناءه، حين كثروا وقوى نسلهم، نسوا الله وعبدوا الأصنام (١٨/٢). حُسبوا كَلا شيء أمام الله، كنقطة في قدر وكرجحان في ميزان.

كان سام بكر نوح: باركه الله فكان أبا الصدّيقين وجدّ المسيح. أرضى الله بإيمانه فعمّر طويلاً. رأى متوشالح وعاش حتّى أيّام إسحٰق ويعقوب (٢٣/٣٢). وزال حكمه يوم زال بنو إسرائيل واستعاد أبناؤه السلطة في شخص عيسو أي الرومان إلى أن يخرج رئيس من يهوذا فيتسلّم الحكم عندما يأتي في مجيئه الثاني (٥/١٠). وهذا الرئيس هو يسوع المسيح.

٣ - إبراهيم. هو ابن تارح وجدّ المسيح (٢٣/٢١، ٤٠) جاء من بلاد الكلدان إلى حاران، ثمّ إلى أرض كنعان (١١/ ٤; ٢٣/ ٤، ١٥). إختاره الله بسبب إيمانه وباركه (١/ ١٤; ١١/ ٣). كان إبراهيم محبًّا للغرباء، وحين استقبلهم، كان له أن يستقبل ملائكة الله (٢٠/١٧).

قَبِل إبراهيم المواعيد قبل أيّة شريعة وأيّة وصيّة. حلف الله له

أن يتبارك كلّ الشعوب في نسله الذي هو المسيح (٣/٢). صلّى فوعده الله، وكان قد حصل بفضل صلاته على نصر على أعدائه وعلى ابن يولد من سارة امرأته (٤/٤). إستجابه الله وبدّل له اسمه (١١/١٢)، وقطع معه عهدًا كان الثالث بعد عهد آدم وعهد نوح، بانتظار العهد الرابع مع موسى (١١/١١). قال أفراهاط: إختار الله إبراهيم من أجل إيمانه وأعطى الختان لابنه كوسم وعلامة. وهكذا اقتبل إبراهيم أيضًا الختان. قال له الله: هذا هو عهدي الذي تحفظونه بأن تختنوا كلّ ذكر. فختن إبراهيم أبناءه وبالأخصّ إسحق (٢/١١) واسماعيل، كما ختن نفسه.

عُرف إبراهيم بإيمانه قبل كلّ شيء، وكانت له نقاوته صومًا دائمًا (٢/٣). كان بارًا قبل أيّة شريعة، فتجلّت فيه قدرة الله وسخاؤه، فانتصر على الأعداء ولم يترك لنفسه شيئًا من الأسلاب (٢/٢١). أمر الأولاد ألاّ يصنعوا النجس، قبل أيّة شريعة عن الأطعمة النجسة أو الصالحة (٣/١٥). كان متواضعًا فقال للربّ: أنا تراب ورماد (١٦/٧). إقترب من التواضع فنال ميراثه أرض الحياة. إرتمى على الأرض أمام الله وتذلّل فنال البركة (١٣/٩ ; ١٧/٢٠). كان رجل صلاة، وبفضل صلاته صنع المعجزات وصار حبيب الله (١٦/٢٠). حين وعده الله أن يكون له ابن، طلب منه أن يقدّم ذبيحة ففعل (٣/٤). وحين كبر هذا الابن، طلب منه الله أن يقدّمه له، فأخذ ابنه وقيّده وجعله على المذبح الذي بناه (٥/٢١). وفي كلتا الحالتَين رضي الله عنه. في المرّة الأولى، مرّت نار بين شطرَي الذبيحة فأحرقتهما، وفي المرّة الثانية رضي الله عنه فصار الجبل جبل أورشليم حيث معبد الله.

باركه الله فكان أفضل من الأجيال العشرة التي سبقته، بل ومن الأجيال التي لحقته (٣/١٨). وباركه ملكيصادق قبل ختانته فبدا صغيرًا أمامه (٣/١١)، كما قالت الرسالة إلى العبرانيّين (٧: ٧).

وباركه الله في إسحٰق ابنه (١/١٨) فحفظ البركة لإسحٰق وأرسل أبناء إسماعيل وأبناء قطورة إلى الصحراء (٩/١١). ورافق هذه البركة إلى أرض مصر فعاش في قلبه مسبقًا عبوديّة نسله (٤/٢).

إبراهيم هو رأس المؤمنين والأبرار والأتقياء (١/١١) وأبو جميع الشعوب (١٢/١١)، لا أبو شعب واحد هو الشعب اليهوديّ (١/١٦). يفتخر اليهود بأنّهم أبناؤه لأنّهم مختونون مثله. فيبيّن لهم أفراهاط أنّ هناك مختونين لا يعبدون الله الواحد، وأنّ الله يستطيع أن يُخرج من الحجارة أولادًا لإبراهيم (١٠/١١ ; ٨/١٦)، بل سمّاهم يسوع أبناء قايين، لا أبناء إبراهيم. أبناء إبراهيم الحقيقيّون هم المختونون في قلوبهم، المولودون مرّة ثانية من ماء الختان. هؤلاء يكونون وارثي إبراهيم (١٢/١١) لأنّهم يؤمنون إيمانه.

ومع إبراهيم نذكر لوطًا ابن أخيه الذي خرج مع عمّه من حاران (١٦/٢٣) وقَبِل الختان مثل إبراهيم وختن أولاده هو أيضًا (٤/١١). إضطهده أهل سدوم (٣/٥) فنزلت نار من السماء عليهم فأحرقتهم وقلبت مدينتهم، فلم تُبنَ من بعد (١/١١). أحبّ الغرباء واستضافهم فاستضاف الملائكة فيهم. ولهذا نجا من كارثة سدوم واستحقّ أن يُشارك في البركة المعطاة لإبراهيم (١٧/٢٠؛ ١٦/٢٣، ١٧) بواسطة راعوت الموآبية.

إسحٰق هو ابن إبراهيم وابن الموعد. وُلد لإبراهيم بعد طول انتظار وخُتن في اليوم الثامن (٤/١١). إختاره الله بسبب إيمانه وأحبّه (١٤/١) وأعطاه مكانة إسماعيل (٣٣/١٤) نظرًا إلى تواضعه. إعترف الملوك به وأحبُّوا عهده (١٣/٩) فسار على خطى آبائه الأبرار. كان غنيًّا، وبالرغم من ذلك أرضى الله (١٧/٢٠). كان بارًّا أمام الله قبل كلّ شريعة، فكان صومه نقيًّا بسبب عهد إبراهيم (٢/٣) وصلاته فاعلة وذبيحته مقبولة (٤/٤). هو أيضًا جدّ المسيح وقد أوصل إليه البركة عَبرَ ابنه يعقوب (٢٧/١٤).

عيسو ويعقوب يقابلان قايين وهابيل. وعيسو هو أيضًا من نسل سام. كان حسودًا ومضطهدًا فخسر البركة (٣/٥؛ ٩/ ٨) وحقوق البكر. ذُلَّ فخضع لأخيه (٢٤/٥؛ ١٠/١٤). خُتن هو أيضًا ولكن ختانه لم ينفعه. أمّا يعقوب فقد اختاره الله من بطن أمّه (٢٧/٤، ٢٨) فصار ابن الموعد وأفضل من كلّ الأموريّين الذين أقام بينهم (٣/١٨). كان بارًّا قبل الشريعة، فخضع لوصايا آبائه وسار على خطاهم (٢/٢؛ ٨/١٣؛ ١٧/٢٠). كان خادم الله المتواضع الذي قهر بتواضعه غضب أخيه عيسو (٣/٩) وحصل على البركة وحقوق البكر (٨/٩). تغلّب المتواضع على المتكبّر وارتفع بفضل تواضعه (١٣/٩). كان رجلاً كاملاً فتحلّى بإيمان راسخ وصوم نقيّ فأرضى الله في كلّ أعماله (١٣/١؛ ٢/٣؛ ٢/٣؛ ٨/١٣) بعد أن عرفه.

ويورد أفراهاط أحداث حياة يعقوب مع عيسو أخيه ولابان خاله، في كنعان وفي حاران، ثمّ ينتقل معه فيخبرنا بحياته في مصر وحياة أبنائه بعده. تزوّج ليئة وراحيل وكان راعي غنم وربّ عائلة كبيرة. باركه الله في نسله فكثّر له أولاده (١/١٨) وبارك هو أولاده ولا سيّما يهوذا، فانتقلت البركة منه إلى المسيح. فيعقوب هو جدّ المسيح والمنادي بالمسيح (١١/١٩؛ ٢١/٢٣)، بل هو نموذج المسيح. رأى باب السماء، أي المسيح. رأى السلّم، سرّ الصليب. مسح الحجارة رمزًا إلى ما عمله المسيح مع الشعوب... «يا سرّ مخلّصنا العجيب، حين جاء ربّنا للمرّة الأولى، خرج كفرع من نصبة يسّي شبيهٍ بعصا يعقوب. ولكن، عندما يعود إلى أبيه في مجيئه الثاني، يذهب إليه بمعسكرَين، معسكر الشعب ومعسكر الشعوب، مثل يعقوب الذي عاد إلى أبيه إسحق بمعسكرَين: رجع يعقوب مع أبنائه الأحد عشر ورجع مخلّصنا مع تلاميذه الأحد عشر لأنّ يهوذا لم يكن معهم (٦/٤).

ويوسف، ابن يعقوب وراحيل، هو مثال المسيح المضطهَد. يوسف ألبسه أبوه قميصًا بأكمام، ويسوع ألبسه أبوه جسدًا من البتول. يوسف أحبّه أبوه أكثر من إخوته، ويسوع هو حبيب أبيه وعزيزه. يوسف رأى وحلم أحلامًا، ويسوع أتمّ الأحلام والنبوءات. يوسف كان راعيًا مع إخوته، ويسوع هو ربّ الرعاة. حين أرسل يوسفَ أبوه ليفتقد إخوته، رأوه آتيًا فخطّطوا لقتله. ويسوع أرسله أبوه ليزور إخوته فقالوا: هذا هو الوارث تعالوا نقتله. يوسف رماه إخوته في الجبّ، ويسوع أنزله إخوته إلى مقرّ الموتى. يوسف صعد من الجبّ ويسوع قام من مقرّ الموتى. بعد أن صعد يوسف من الجبّ تسلّط على إخوته، وبعد أن قام يسوع من مقرّ الموتى، وهب له أبوه اسمًا أعظم وأفضل ليخضع له إخوته ويجعل أعداءه تحت قدميه... (٩/٢١).

٤ - موسى. وتصل البركة إلى موسى. فماذا نقول عن قوّة صلاة موسى التي لا حدّ لها؟ صلاته نجّته من يد فرعون ودلّته على مسكن إلهه. بصلاته جلب عشر ضربات على فرعون. صلاته شقّت البحر وحلّت المياه المرّة وأنزلت المنّ وأصعدت السلوى وزعزعت الصخر وأجرت الماء وغلبت عماليق وقوّت يشوع وضربات عوجا وسيحون في الحرب وأنزلت الأشرار إلى الجحيم وأرجعت حدّة غضب الله عن شعبه وسحقت عجل الخطيئة وأنزلت اللوحَين عن الجبل وجعلت وجهه يُشرق (٧/٤).

هذا هو موسى الذي أرسله الله (٨/٢) ليخلّص الشعب ويُخرجه من مصر (٨/٦) من بيت فرعون وعبوديّة المصريّين (١/١٩). ولكن شعبه رفضه فعاقبهم الله (٨/٢). إضطهده المصريّون (١٠/٢١)، بل اضطهده شعبه فخلّصه الربّ من يد مضطهديه. كان موسى بارًّا قبل الشريعة (٢/٢). وكان متواضعًا، بل كان أكثر الناس تواضعًا فاختاره الله لتواضعه (٢/٩، ٣، ٨). كان موسى رجل الإيمان والصلاة، رجل

الصوم والعفّة. مارس القداسة مدّة أربعين سنة، أي منذ كلّمه الله فلم تعد تخدمه امرأته، بل يشوع بن نون (٥/٦). وهكذا صار حبيب الله الذي اختاره وجعله رئيسًا ومعلّمًا وكاهنًا في شعبه وسمّاه «إلهًا» (٣/١٧). كان في نظر الله أفضل من بني إسرائيل كلّهم لأنّهم أحزنوا الله وعاندوه، فما استطاعوا أن يدخلوا أرض الموعد (٣/١٨). أوحى الله إليه أسماءه وجعله نبيًّه (٤٢/١٤) وكلّمه فمًا إلى فم، فبدت كلمته وكأنّها خارجة من فم الله (٣/٢٢).

ويكفي موسى فخرًا بأنّه كان نموذج المسيح. قال أفراهاط (١٠/٢١): «واضطُهد موسى أيضًا كما اضطُهد يسوع. حين وُلد موسى، خبّأه أهله من مضطهديه لئلاّ يقتلوه. وحين وُلد يسوع، هرّبه أهله إلى مصر لئلاّ يقتله هيرودوس مضطهده. في الأيّام التي وُلد فيها موسى، كانوا يُغرقون الأطفال في النهر، وفي ميلاد يسوع قُتل الأطفال في بيت لحم وجوارها. لموسى قال الله: مات الرجال الذين يطلبون نفسك، وليوسف قال الملاك في مصر: قم وخذ الصبيّ واذهب إلى أرض إسرائيل، فقد مات الذين يطلبون نفس الصبيّ ليُهلكوه. أخرج موسى شعبه من عبوديّة فرعون، وخلّص يسوع كلّ الشعوب من عبوديّة الخطيئة. تربّى موسى في بيت فرعون وتربّى يسوع في مصر، حين هرب به يوسف إلى هناك. وقفت مريم عند حافة النهر، حين طاف موسى فوق الماء، وولدت مريم يسوع حين بشّرها الملاك جبرائيل.

«حين ذبح موسى الحمل، قُتل أبكار المصريّين، ويسوع صار الحمل الحقيقيّ حين صلبوه، وبموته مات الشعب القاتل. أنزل موسى المنّ لشعبه، ويسوع وهب للشعوب جسده. حلّى موسى المياه المرّة بخشبة، وحلّى يسوع مرارتنا حين صُلب على خشبة. أنزل موسى الشريعة لشعبه، ويسوع وهب عهوده للشعوب. قهر موسى عماليق بمدّ يديه، وقهر يسوع الشيطان بعلامة صليبه. أخرج موسى المياه من

الصخر لشعبه، وأرسل يسوع سمعان الصخر (أي بطرس) ليحمل تعليمه إلى الشعوب. أنزل موسى الحجاب عن وجهه فتكلّم الله معه، وانتزع يسوع الحجاب عن وجه الشعوب ليسمعوا تعليمه ويقبلوه. وضع موسى يده على مُرسَليه فقبلوا الكهنوت، ووضع يسوع يده على رسله فنالوا الروح القدس. صعد موسى الجبل ومات هناك، وصعد يسوع إلى السماء وجلس عن يمين الآب».

لن نذكر هارون ومريم، ولن نذكر يشوع بن نون الذي كان هو أيضًا نموذجًا ليسوع المسيح (١١/٢١)، ولن نذكر القضاة جدعون ويفتاح وشمشون وصموئيل، لن نذكر عالي الكاهن وولديه وحنّة أمّ صموئيل. لن أذكر راحاب التي خلّصها يشوع فخلَصت بإيمانها ومحبّتها وتباركت مع أهل بيتها (٣/١١ ; ١٤/١٤ ; ٢١/٣)، وراعوت الموآبية التي صارت أمّ الملوك وجدّة المسيح (١٦/٦، ٢٣/١٦)، فأنتقِلُ حالاً إلى داود جدّ المسيح الذي سمّته الأناجيل ابن داود.

٥ ـ داود. هو ابن يسّى وسليل راعوت الموآبية (٢٣/١٦). إختاره الله مكان شاول ومسحه صموئيل ملكًا. إضطهده شاول ولاحقه حتّى في الجبال والأودية والمغاور، ولكنّه نجا بفضل الصلاة (٤/٨). عفا عن شاول، فحماه الله مرّات عديدة بفضل محبّته لربّه ولقريبه (٢/١٧). كان الراعي الذي امتاز بمحبّته وتواضعه (٩/٨) ومساعدته للمساكين والبؤساء واليتامى والأرامل (٢٠/٤). أحبّ الله، ولكنّه أخطأ إليه مرّة أولى فتعدّى ثلاث وصايا معًا، هي: لا تشتهِ، لا تقتل، لا تزن (١٨/٩). وأخطأ مرّة ثانية حين أحصى الشعب فحلّ الغضب عليهم. ولولا صلاة داود، لفُنوا (١٠/٢). أخطأ فأقرّ بخطيئته وندم فتنقّى من خطيئته (٧/١٤).

باركه الله لأنّه كان بحسب قلب الله، فما ابتعد الخير عن بيته (٢/١٧ ; ٢١/١٣). بسببه غفر الله خطايا أبنائه، وبسببه لم يُحرم ابنه

رحبعام من الملك كلّه. إنتصر في الحروب (٣/٦) وسلّم الملك إلى سليمان ومات في شيبة صالحة. دعا المسيح ابن الله (٩/١٣) وأعلن القيامة (١٠/٨). كان المسيح، بل كان نموذج المسيح في كلّ حياته. وإليك ما يقول أفراهاط (١٣/٢١):

«واضطُهد داود أيضًا كما اضطُهد يسوع. مُسح داود على يد صموئيل ليكون ملكًا، بدلَ شاول الذي أخطأ، ومُسح يسوع ليكون كاهنًا عظيمًا، بدَل الكهنة الذين تعدّوا الناموس. إضطُهد داود بعد أن مُسح، واضطُهد يسوع بعد أن مُسح. ملك داود أوّلاً على سبط واحد فقط ومن بعدُ على كلّ شعب إسرائيل، وملك يسوع أوّلاً على القلّة التي آمنت به، وفي آخر الأيّام سيملك على العالم كلّه. كان داود ابن ثلاثين سنة حين مسحه صموئيل، وكان يسوع بعمر يقارب الثلاثين سنة حين وضع يوحنّا يديه عليه. أخذ داود ابنتي ملك نساءً له، وأخذ يسوع ابنتي الملوك، جماعة الشعب وجماعة الشعوب. جازى داود بالخير عدوّه شاول، ويسوع علّمنا قائلاً: صلّوا لأجل أعدائكم.

«كان داود بحسب قلب الله، وكان يسوع ابن الله. قبل داود المُلك من شاول الذي اضطهده، وقبل يسوع المملكة من شعب إسرائيل مضطهده. بكى داود وولوَل على شاول عدوّه حين مات، وبكى يسوع على أورشليم مضطهدته لأنّها ستُخرب. سلّم داود الملك إلى سليمان وانضمّ إلى شعبه، وسلّم يسوع المفاتيح إلى سمعان وذهب صاعدًا إلى مرسِله. بسبب داود غُفرت خطايا أبنائه، وبسبب يسوع غُفرت الخطايا للشعوب».

ويضيق بنا المكان لنذكر الملوك الذين خلفوا داود، من آسا إلى حزقيا إلى يوشيا، والأنبياء إيليّا وأليشاع وميخا وأشعيا وإرميا الذين كانوا صورة مسبقة ليسوع. فأشخاص العهد القديم وصوره ونظمه موجّهة كلّها لتدلّ على العهد الجديد، على المسيح وكنيسته. هذا مبدأ

عند آباء الكنيسة غربًا وشرقًا، وأفراهاط لم يحد عنه، بل استفاد منه لينطلق من كلّ شخص فيصل إلى يسوع، ولينطلق من الشعب اليهوديّ ليصل إلى الكنيسة، ابنة الشعوب.

ج - تفسير الكتاب المقدّس

ما هي طريقة أفراهاط في تفسير الكتاب المقدّس؟ نعلن أوّلاً أنّ أسلوب أفراهاط ليس أسلوبًا نظريًّا يوضّح الأمر كما يفعل الفلاسفة، بل هو ينقل التعليم الذي قبله من الآباء. هو أوّلاً وأخيرًا تلميذ الكتب المقدّسة، وهو يعرف تقاليد تفاسيرها المعطاة في الكنيسة. هو حكيم وحكمته تكمن في أن يكون حامل براهين تُقنع القارئ. هو حكيم، بل هو ذاكرة الجماعة، ولهذا تختفي شخصيّته الخاصّة وراء المعلّم. هو يأتي قرّاءه بشواهد من الكتاب المقدّس تؤيّد إيمانهم وتُبرهن عنه، حين تجابههم الصعاب المتعلّقة بتفسير الكتاب. ثمّ إنّ أفراهاط يتوجّه بتعليمه إلى الشعب مباشرة، بل هو يكتب مقالاته لجماعة العهد والقيامة، لهؤلاء المتنسّكين المسؤولين عن التعليم ونقل الكتب المقدّسة إلى الجماعة. يذكّر أفراهاط هؤلاء المعلّمين بالآيات التقليديّة ويقدّم لهم نموذجًا عن كرازة تعرض على مؤمنين تأثّروا بالبراهين اليهوديّة.

حاول النقّاد أن يروا التشابه القائم بين أفراهاط والعالم اليهوديّ في ما يتعلّق بتفسير الكتاب، فرأوا تقاربًا كثيرًا بين النصوص اليهوديّة والتقاليد التي يوردها أفراهاط. فقال بعضهم، وقد أفرطوا في القول، إنّ أفراهاط كان تلميذًا خاضعًا لليهوديّة. واستنتج غيرهم أن لا اتّصال بين أفراهاط والفرّيسيّين، لأنّه لا يورد ممارسة يهوديّة وضعها الفرّيسيّون ولا نجدها في التوراة. وبما أنّ أفراهاط لا يعرف من العالم اليهوديّ إلاّ ما يجده في الكتاب المقدّس، فقد حسبه نقّاد آخرون قريبًا

من جماعة الأسّيانيّين[٦] أو بالأحرى من جماعة القارئين [٧] الذين يرفضون التقاليد الشفهيّة ولا يستندون إلاّ إلى النصّ المكتوب في التوراة.

ونحن، قبل أن نُجيب على هذا السؤال المطروح، نودّ أن نتوقّف عند نبعَين استقى منهما أفراهاط في كتاب مقالاته. النبع الأوّل هو المحيط المتهوِّد في فلسطين، الذي مرّ عَبرَه الإيمان المسيحيّ، قبل أن يصل إلى بلاد فارس. ماذا حمل معهم هؤلاء المسيحيّون الآتون من اليهوديّة بتقاليدها في الأرض التي عاش فيها يسوع والرسل؟ النبع الثاني هو المحيط المتهوِّد في فارس خلال القرن الرابع والذي يبلبل الجماعة المسيحيّة التي ينتمي إليها أفراهاط. فكما أنّ يهودًا اعتنقوا المسيحيّة في فلسطين، كان هناك يهود اعتنقوها في فارس وحملوا معهم غنى مدارس بابل التي عرفت في ذلك الوقت نهضة روحيّة سيكون بعض ثمارها تلمود بابل[٨].

نجد هنا الإيرادات الكتابيّة مع شرحها الحرفيّ. فالرسل الذين أعلنوا مجيء المسيح من مجمع إلى مجمع، حتّى وصلوا إلى فارس، نقلوا معهم مجموعة من التقاليد والعبارات، كما نقلوا نموذجًا من التنظيم الكنسيّ. نقلوا معهم ما وجدوه في كنيسة أورشليم بقيادة

---

(٦) عاشوا في مغاور قمران قرب البحر الميّت على هامش العالم اليهوديّ الرسميّ، فاعتبروا أنفسهم جماعة الأطهار المرتبطين بالشريعة ارتباطًا دقيقًا، المُمارسين الطهارة الطقسيّة، والمبتعدين عن العالم الوثنيّ.

(٧) شيعة يهوديّة بدت امتدادًا للصادوقيّين. يعتبرون أنّ التوراة وحدها تحمل الوحي إلى البشر فيختلفون عن سائر اليهود الذين يجعلون التقليد أيضًا جزءًا من الوحي الإلهيّ.

(٨) هناك نسختان للتلمود، نسخة طويلة وهي تلمود بابل. دُوِّن وانتهى من تدوينه حوالى السنة ٥٠٠، ونسخة قصيرة وهي تلمود أورشليم، دُوِّنت حوالى السنة ٤٠٠.

يعقوب أخي الربّ، وبالأخصّ بعض الممارسات اليهوديّة المتّسمة بالنسكيّة، بل بالتعفّفيّة. حافظوا على الممارسات اليهوديّة الموجودة في التوراة، وحجّر البعض مواقفهم فرفضوا بولس الرسول وتعليمه إلى الوثنيّين. سمّى العلماء هؤلاء المسيحيّين ناصريّين في القرن الرابع ليميّزوا بينهم وبين سائر المسيحيّين الذين يعتبرون أنّ ممارسات الشريعة قد تخطّاها الزمن، فلم تعد ضروريّة للخلاص.

بواسطة هذه الجماعة المتهوِّدة، وصلت سلسلة من التقاليد الكتابيّة، قريبة من التي نجدها في تلمود أورشليم. وصلت عبر التقاليد المجمعيّة، ولا تزال الجماعات اليهوديّة تردّدها في أيّامنا. من هذه التقاليد: إنّ آدم هو البكر. حُبل به قبل المخلوقات، ولكنّه وُلد بعد المخلوقات (٧/١٧). إنّ الأرض كانت بكرًا قبل الشتاء المخصب (٦/٨). وهناك تقاليد عن سمّ الحيّة (١٢/١٤) وتبدّلها من خلال ثلاث لعنات: إنتُزعت أرجلها فسارت على بطنها، انتُزع منها طعامها فأُعطيت التراب، جُعلت خصمًا فداسها الإنسان (٨/٩). دُعي آدم إلى التوبة من خلال سؤال الربّ له: أين أنت (٧/٧). وهناك توسُّع في نوح الذي بقي دون زواج إلى عمر متأخّر، لئلاّ يختلط نسله بنسل الأشرار (٥/١٣) وفي إبراهيم الغريب الذي استضاف الغريب (١٧/٢٠) وربّي إسحٰق ويعقوب بحسب البرّ والعدل، فما احتاجا إلى الشريعة (٢/٢)، وفي فنحاس الذي عمّر طويلاً لينقل البركة إلى عالي (٢٧/١٤).

يعقوب هو آخر الآباء وأبو الشعب، وقد تميّزت شخصيّته عن الذين سبقوه أو لحقوه (٤٣/٢٣). وموسى هو المخلِّص الممتلئ من الروح القدس، الذي يحمل قضيب السلطة ويحمل النور إلى الشعوب. أُجبر على الطلاق من امرأته ليتفرّغ لربّه، وعارضه أبناء شعبه فرجموه (٣/٦; ٨/١٠; ٤٥/١٤). ونلاحظ أيضًا تقاليد عن

خطيئة عزّة، وعن امرأتَي داود ميكال وميراب، وعن تضاعف خيرات أيّوب، وعن بقاء بني عماليق الذين فنوا بصلاة أستير ومردخاي.

ونزيد على هذه التقاليد عناصر خاصّة بالأدب اليهوديّ: صفتا الله هما الرحمة والعدالة (٢٧/٧). وفي الإنسان مَيلان متناقضان (١٤/١٤). الذبائح المقبولة تشهد عليها النار التي تُحرقها (٢/٤). وتتحدّث التقاليد عن الملاك الحارس، عن ستّة آلاف سنيّ العالم، عن كتابة أسماء الأبرار على لوحات في السماء، إنسان واحد تقيّ أفضل عند الربّ من البشريّة الخاطئة، وخصلة بركة هي في قلب عنقود إسرائيل المهترئ. الكرمة هي إسرائيل، والله أحبّها فذهب معها إلى السبيّ. قيامة الموتى تُعلنها النبوءة إلى رأوبين (٨/٨)، وهم يقومون على صوت البوق أو حين يسمعون النشيد السماويّ فيقومون وهم يُنشدون.

كان بإمكاننا أن نذكر أيضًا عددًا أكبر من النصوص التي تدلّ على علاقة حميمة بين أفراهاط والفكر اليهوديّ. فلا ننسَ أنّ الإيمان المسيحيّ وُلد في عالم يهوديّ واستعمل الكتب المقدّسة التي استعملها اليهود. فاليهود الذين آمنوا بيسوع عبّروا عن إيمانهم بطريقة هي امتداد لِما عرفوه في محيطهم. أخذوا بالأساليب عينها والقواعد عينها. وهنا نفهم أنّ أفراهاط، حين كتب، لم يشعر بحاجة إلى أن يدافع عن نقطة الانطلاق عنده. فالمسيحيّ واليهوديّ متّفقان على أنّ التوراة هي أساس التعليم، ويجب أن تفسَّر بحسب الأساليب الموروثة عن الكتبة. فالموضوع الواحد، كقيامة الموتى مثلاً، تؤيّده مجموعة من الشواهد الكتابيّة فتبيّن حقيقته. وإذا عارضت آيةٌ آيةً أخرى، جاءت آية ثالثة فحسمت المسألة.

ولكن نقول إنّ أفراهاط ليس يهوديًّا، بل هو مسيحيّ. ولهذا فإن قرأ الكتاب المقدّس بحسب التقليد المُتبع في العالم اليهوديّ، فهو يقرأه

أيضًا باسم إيمانه بالمسيح الذي يُتمّ النبوءات. وعلى خطى المسيح وعلى خطى بولس يعارض قيمة أحكام الشريعة بالنسبة إلى الخلاص. كانت اليهوديّة الفرّيسيّة تهتمّ بحراسة الشريعة فتحيطها بسياج من الفرائض المفصّلة. أمّا أفراهاط فيفكّك هذا البناء ليهدّمه ويجعل محلّه شيئًا آخر. فهو لا يتوجّه بكلامه إلى اليهود، بل إلى أعضاء جماعة القيامة ليثبّتهم في إيمانهم المتقلقل. أمّا قلقهم فمصدره هذا التخلّي عن الختان والفصح اليهوديّ والسبت وطهارة الأطعمة. كلّ هذه الممارسات كانت عابرة ومؤقّتة وانتهى دورها بمجيء المسيح. فيسوع، النبيّ العظيم وموسى الجديد، لا يعلّم شيئًا آخر إلاّ وصيّة المحبّة، كما أخذها من العهد القديم (تث ٦: ٥).

إذا نفسّر الكتاب المقدّس، بحسب الروح، وهذا الروحُ مفاض في قلب كلّ مؤمن يلج عتبة الإيمان. صار أفراهاط تلميذ الكتب المقدّسة فقرأها في ضوء الروح فأصبح إنسانًا روحيًا وصاحب حكم يساعده على أن يذوق ثمار معرفة الله.

أفراهاط: الإيمان والعقيدة

سأل أحد المتنسّكين أفراهاط أسئلة متعدّدة باسم جماعته. ولكن، حين سأله، أعلن عناصر إيمانه، قال: «أمّا أنا فأومن إيمانًا بأنّ الله واحد، وهو خلق السماء والأرض في البدء، وزيّن العالم بأنظمته وصنع الإنسان على صورته. هو الذي قَبِل قربان هابيل، ونقل أحنوخ لأنّه أرضاه، وحمى نوحًا من أجل تقواه. واختار إبراهيم من أجل إيمانه، وتكلّم مع موسى بسبب تواضعه. وتكلّم أيضًا مع كلّ الأنبياء، وأرسل أخيرًا مسيحه إلى العالم». إلى فعل الإيمان هذا الذي نقرأه في مقدّمة المقالات بلسان السائل، يجيب أفراهاط بفعل إيمان مماثل فيقول: «هذا هو الإيمان. يؤمن الإنسان بإله، سيّد الكلّ. خلق السماء والأرض والبحار وكلّ ما فيها، وصنع الإنسان على صورته، ووهب الشريعة لموسى، وأرسل روحه في الأنبياء وأرسل مسيحه إلى العالم لكي يؤمن الإنسان بقيامة الموتى ويؤمن أيضًا بسرّ المعموديّة. هذا هو إيمان كنيسة الله. وهكذا ينجو الإنسان من حفظ الساعات والسبوت والشهور والأوقات والقدَر والفأل والعرّافة والرقيّة. ويمتنع من الزنى وأمور الجسد والتعاليم الفارغة التي هي أداة بين الشيطان، ومن الانخداع بالكلام المعسول والتجديف والفجور، ولا يشهد شهادة زور ولا يتكلّم بلسانَين. هذه هي أعمال الإيمان المبنيّ على صخرة الحقّ الذي هو المسيح الذي عليه يرتفع كلّ البُنيان» (١/١٩).

حين كتب الحكيم الفارسيّ مقالاته، كانت عشر سنوات ونيف

قد مرّت على مجمع نيقية (٣٢٥)، ولكن التعبير الإيمانيّ الذي نجده فيها لا يستقي معلوماته من هذا المجمع. فمن الواضح أنّ أفراهاط لم يعرف المسائل التي طرحتها الأزمة الأريوسيّة، ولم يعرف المقرّرات التي أعلنها مجمع نيقية. فهذه كلّها دُوِّنت في لغة يونانيّة وفي إطار فكريّ فلسفيّ. أمّا كنيسة أفراهاط فهي كنيسة سريانيّة لم تتذوّق سمّ الفلسفة اليونانيّة، كما يسمّيها القدّيس أفرام. وفعلا الإيمان اللذان ذكرناهما أعلاه يبيّنان أنّ جوهرهما مختلف عن تعابير نيقية، وترتيبهما يختلف عمّا في نيقية. فسنتوقّف عند فعل إيمان السائل وفعل إيمان أفراهاط.

أ ـ فعل إيمان السائل

يتألّف فعل إيمان السائل من عشر عبارات وهو يردّد عشر أعمال عجيبة قام بها الله الواحد. فبعد الإيمان بوحدة الله، يعلن السائل نشاط الربّ الخلاّق: خلق السماء والأرض (تك ١ : ١)، خلق الإنسان على صورته (تك ١ : ٢٧). وبين هذه الخلق وذاك، يتزيّن العالم بالكواكب والنبات والحيوان، وتكون المخلوقات كلّها في خدمة الإنسان. قال أفراهاط (٧/١٧): «فاعرف يا عزيزي أنّ كلّ الخلائق العليا والسفلى خُلقت أوّلاً ثمّ خُلق كلّ البشر. فحين فكّر الله أن يخلق الكون بكلّ زينته، حبل بآدم وصوّره في عقله أوّلاً. ومن بعد أن حبل بآدم في فكره، حبل بالبرايا كما قيل: قبل أن تحبل الجبال، وقبل أن تحبل الأرض. فالإنسان كمحبول به هو أعتق وأقدم من المخلوقات، أمّا كمولود، فالخلائق أعتق وأقدم من آدم. حُبل بآدم فسكن في فكر الله. وحين حبل به، حبسه في فكره، ثمّ خلق كلّ الخلائق بكلمة فمه. وحين أتمّ العالم وزيّنه بحيث لا ينقصه شيء، ولد آدم من فكره... ومن بعد أن حبل الله بآدم وولده، سلّطه على كلّ خليقته... بعد أن ولد الله آدم من فكره، جبله ونفخ فيه معرفة

التمييز، ليميِّز الخير من الشرّ وليعرف أنّ الله صنعه».

هذه الفكرة بأنّ آدم وُجد قبل سائر الخلائق على مثال الحكمة، نجدها عند أي ١٥ : ٧، وهي تقابل أم ٨ : ٢٥. ونجدها عند أفرام وفي كتاب النحلة والتقاليد اليهوديّة التي تقول: خُلق آدم بعد عمل آخِر يوم وقبل عمل أوّل يوم.

أعمال الله هذه صُنِعت في البدء، ولكنّها ارتبطت بالأعمال السبعة اللاحقة التي تُشير إلى علاقة الله مع بعض أُناس مميَّزين في العالم. يذكر النصّ أوّلاً هابيل الذي قبل الربّ ذبيحته، ثمّ أحنوخ الذي نقله إليه لأنّه أرضاه. إنّ التوراة تتحدَّث عن هابيل في تك ٤ ولا تعود تذكره. أمّا العهد الجديد فيشير إليه في مت ٢٧ : ٣٥; لو ١١ : ٥١; عب ١١ : ١٤; ١٢ : ٢٤). وأمّا الأدب اليهوديّ فهو متحفّظ بالنسبة إلى هابيل لأنّه رأى المسيحيّين يكتشفون فيه صورة يسوع البار الذي قتله إخوته. والأدب اليهوديّ متحفّظ أيضًا بالنسبة إلى أحنوخ الذي عرف رواجًا في الكتب الجلّيانيّة التي تحاول أن تكشف أسرار العالم الآتي. قال فيه فيلون الإسكندريّ: رضي الله عنه لتجرّده (سي ٤٤ : ١٦). أمّا كتاب المراقي فيقول إنّ أحنوخ تخلّى عن كلّ شيء وصار ثابتًا وحمل صليبه.

بعد هابيل وأحنوخ، يأتي نوح الذي حفظه الله لتقواه، وإبراهيم الذي اختاره الله لإيمانه. ولكن اليهود لم يتحدَّثوا كثيرًا عن إيمان إبراهيم، لا سيّما حين توسَّع المسيحيّون في عبارة تك ١٥ : ٦: آمن إبراهيم بالله فُحسب له ذلك برًّا. ثمّ تكلّم الله مع موسى، وتكلّم أيضًا بواسطة الأنبياء. إنّ كلمة الله هذه هي الوحي الكتابيّ وعمل الله الخلاصيّ العظيم الذي يتمّ بإرسال المسيح إلى العالم. هذا العمل العاشر والأخير، الذي يقابل تتمّة عمل الستّة أيّام، يعني تزيين العالم والكشف الكامل لصورة الله.

هذا الفعل الإيمانيّ فريد في الأدب المسيحيّ، لهذا بدا غريبًا كفعل إيمان في الكنيسة. ولكن، إذا رجعنا إلى أفعال الإيمان في الكتاب المقدّس، وجدنا أنّها تتركّز كلّها على الخروج من مصر، وهو نموذج كلّ خلاص. هذا ما نقرأه في تث ٢٦: ٥ ـ ١٠: أساء إلينا المصريّون، فصرخنا إلى الربّ فسمع صوتنا وأخرجنا من مصر بيد قديرة وذراع ممدودة (رج مز ١٠٥، ١٣٦). وهذا ما نكتشفه أيضًا في البركات الليتورجيّة اليهوديّة التي تُستعمل كإطار للإعلان عن عقيدة المؤمنين.

في هذا الفعل الإيمانيّ مقابلة بين عطيّة الله وصفة أحد الآباء التي أهّلته لأن يقبل عطيّة الله. وهذا الفعل لا يعلن عقيدة كنسيّة، بل لائحة من الأعمال النموذجيّة التي بها كشف الله الواحد عن نفسه كخالق ومخلّص منذ بداية الكون إلى نهايته. فكما أنّ عمل تكوين العالم تمّ في اليوم السادس بخلق الإنسان على صورة الله، كذلك يُزهر تاريخ عطايا الله لأناس عكسوا هذه الصورة، ويزهر بطريقة كاملة حين يرسَل المسيح في نهاية الزمن، فنكتشف بواسطة الابن سرّ الله الواحد.

أين نجد مثل هذه اللائحة التي تورد أسماء أشخاص مميَّزين؟ في ابن سيراخ (ف ٤٤ ـ ٥٠) أوّلاً حيث نجد أخنوخ ونوحًا وإبراهيم وموسى وبعض الأنبياء، وفي الرسالة إلى العبرانيّين التي استوحى منها أفراهاط في مقالة الإيمان فكتب (٣/١): «هابيل: قبل الله تقدمته نظرًا لإيمانه. أخنوخ: نجا من الموت لأنّه أرضى الله بإيمانه. نوح: حُفظ من الطوفان لأنّه آمن. إبراهيم: تبارك لإيمانه فحُسب له برًّا. إسحق: أحبّ لأنّه آمن. يعقوب: حُفظ بسبب إيمانه... موسى: صنع أيضًا بإيمانه عجائب ومعجزات كثيرة». ونجد هذه اللائحة أيضًا عند يوستينوس في حواره مع تريفون (٣/١٩) وفي كتاب التقليد

الرسوليّ. أمّا أقرب النصوص إلى فعل إيمان السائل هذا فنقرأه في أعمال فيلبّس السريانيّة. نحن هنا أمام فعل إيمان يتلفّظ به يهوديّ فينقل على شخص المسيح كلّ مضمون إيمان إسرائيل بالله الواحد والخالق. نصّ موسّع يشتمل تسعًا وعشرين عبارة. ولكن التشابه واضح في العبارات المشتركة بينه وبين أفراهاط هو لا يذكر أيّ حدث من أحداث المسيح، الذي هو عمّانوئيل في نبوءة أشعيا (٥: ١٤؛ ٩: ٥)، الذي كان حاضرًا منذ البدء وسيرسَل بالجسد في النهاية.

ب ـ فعل إيمان الحكيم

بعد أن أعلن السائل إيمانه، طرح سؤالاً على الحكيم: ما هي الأعمال المطلوبة من المؤمن؟ فأجاب الحكيم وأعلن إيمانه فعبَّر بكلماته عن إيمان الكنيسة كلّها. دُوِّن فعلُ إيمان الحكيم بالروح عينها التي بها دُوِّن فعل إيمان السائل، ولكن أفراهاط لم يعتبره يومًا قانون إيمان على مثال قانون نيقية فتتلوه الجماعة في ليتورجيتها. دوَّنه أفراهاط واعتنى بتدوينه ليُحفظ في ذاكرة المؤمنين كنموذج للتعبير عن الإيمان التقليديّ. يمكن أن يُستعمل عند فحص طالبي العماد أو كمسودّة فعل إيمان أو بركة ليتورجيّة. أمّا بُنية هذا الفعل الإيمانيّ فهي مزدوجة: عرض الإيمان يتبعه عرض أعمال الإيمان. كلّ عبارة تقابل الأخرى، وكلّ عبارة مبنيّة على رفيقتها.

يتألّف الفعل الإيمانيّ الحصريّ من سبع عبارات تحيط بها هذه الكلمات: هذا هو إيمان. ويتردَّد فعل آمن ثلاث مرّات ليُبرز الوجوه الثلاثة في العقيدة الواحدة عند المؤمن: أوّلاً: أن يؤمن بالله سيّد الكلّ. فهو قد خلق السماء والأرض والبحار وكلّ ما فيها (خر ٢٠: ١١)، وصنع أيضًا آدم على صورته. هذا هو مجمل الخلق الذي تمّ في ستّة أيّام. ويُزهر الخلق في زمن البشريّة في محطّات ثلاث: عطيّة

الشريعة لموسى، إرسال الروح على الأنبياء، إرسال المسيح إلى العالم. بعد الكتب المقدّسة، أُعطي ملء الروح، وبالمسيح كشف الله عن نفسه كشفًا تامًّا لجميع البشر، حين وضع شريعته في أعماق قلوبهم.

بعد أن ذكر أفراهاط أعمال الله الخالق والمخلّص، أدخلنا في عبارتَين جديدتَين: أن يؤمن ببعث الموتى، أن يؤمن بسرّ المعموديّة. أمّا القيامة فيتطرّق إليها أفراهاط في المقالة الثامنة. وأمّا سرّ المعموديّة، الذي هو ختان ثان وجديد، فقد صوّره لنا من خلال مياه جدعون وعبوريْ البحر الأحمر ونهر الأردن وغسل الأرجل، فأضفى عليه أبعادًا غنيّة جدًّا.

هذا هو فعل إيمان الحكيم: بعد أن نعلن أنّ الله نزل نحو الإنسان وتنازل إلى العالم، نعلن خلاص الإنسان المخلوق على صورة الله بإيقاف سلطان الموت، وتَبني الإنسان كابن له كرامته.

ونصل إلى أعمال الإيمان التي تنقسم ثلاثة أقسام. يتضمّن القسم الأوّل أربع عشرة عبارة، والقسمان الآخران يحتويان وصايا سلبيّة كالوصايا العشر. فالذي يؤمن يتحرّر، فلا يعود تحت سلطان الموت القاهر، ولا خاضعًا لعناصر الطبيعة والقوى الخفيّة. يصبح عقل المؤمن صحيحًا بالغًا لأنّه يعرف الله، فيتحرّر من الوصايا التربويّة المرتبطة بالزمن. والنير لا يُفرض عليه من الخارج كما على العبد. فالمؤمن حمل صليبه بنفسه كالابن الخاضع فصار واحدًا على مثال الله الواحد، وتصالح مع نفسه ومع الآخرين. لهذا تصبح كلمته صادقة وثابتة وحقيقيّة، تصبح كالصخر الذي تستند إليه والذي هو المسيح الأمين. وهكذا لا يعود الإيمان فعلاً عقليًّا، بل قبولاً لأحداث نموذجيّة تنبع من التاريخ. وهذه الأحداث تكون حقيقيّة، حين يبني الإنسان تصرّفه على إيمان اعترف به.

ولنسمع هنا ما يقول أفراهاط (٢٣/٦١): «إذا اعترف الإنسان

بأنّ الله واحد وتجاوز الوصايا وما عمل بها، لا يعتبر أنّ عبارة الله واحد هي حقيقيّة، كما قال معلّم الشعوب: نعترف بأنّهم يعرفون الله ولكنّهم يكفرون به بأعمالهم. وقال أشعيا أيضًا: هذا الشعب يُكرّمني بشفتَيه، وأمّا قلبه فبعيد عنّي. وقال داود: يباركون بفمهم، وبقلبهم يلعنون. فكيف يعترفون بأنّهم يعرفون الله، ثمّ يكفرون به بأعمالهم؟ إذا آمن إنسان أنّ الله واحد ولم يصنع ما أمر به الله، فهو لا يعتبر حقيقةً أنّ الله واحد. فقد أمر الله: إحفظ وصاياي واعمل بها. ومن الواضح أنّ مَن لا يحفظ وصايا الله يكفر بالله لأنّه لا يعتبره حقًّا سيّد الوصايا. قال الله: لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد شهادة زور، أكرم أباك وأمّك. وما تبغضه لنفسك لا تصنعه لرفيقك. فمَن يؤمن أنّ الله يدين القتلة لا يقتل، ومَن يقتل لا يعتبر أنّ الله موجود. ومَن يؤمن أنّ الله يدين الزناة لا يزني، ومَن يزني لا يعتبر حقًّا أنّ الله موجود. ومَن يؤمن أنّ الله يدين السارقين لا يسرق، وإن سرق لا يعتبر حقًّا أنّ الله موجود. وهكذا هو الأمر بالنسبة إلى سائر الوصايا».

اللاهوت عند أفراهاط

ونتطلق من فعل إيمان أفراهاط لنكتشف ما هو اللاهوت عنده. مَن هو الله؟ مَن هو الثالوث؟ كيف يتمّ خلاص الإنسان؟ ما دور الأسرار، ولا سيّما سرّ المعموديّة وسرّ الإفخارستيّا؟

١ ـ الله

أوّل عبارة نقولها: نؤمن بالله، كما كشف لنا عن نفسه في تجلّياته. لا يبحث أفراهاط عن طبيعة الله كما فعلت الفلسفة اليونانيّة. فالإله الواحد لا شيء يحدّه ولا شيء يعبّر عنه. «إذا أردنا أن نقوله، لا نقدر. وإن حاولنا الولوج فيه أصابنا الضرر» (٢٣/٦٠). إن فعلنا، كوّنّاه بحسب مقوّلاتنا في الزمان والمكان، وحصرناه داخل تصوّراتنا الضيّقة. وفي النهاية، لن يعود الله سيّدَ الكلّ، بل خليقتنا وعبدنا، وهذا علامة ظلمة تسيطر على عقولنا وتُخسّرنا كلّ تمييز.

ولنسمع هنا ما يقول أفراهاط (٢٣/٥٩ ـ ٦٠): «نعظّمك من الأعماق السفلى، يا مَن مسكنه في سماء السماوات. إرادتك أُعلنت من السماوات وأمرك يصل إلى تحت الأرض... أردنا أن نحيط بك فلم نقدر، وأردنا أن نقابلك، ولكن ليس ما يشبهك. منظرك خفيّ وقوّتك كبيرة وعظمتك سرّيّة... المياه الكثيرة توقّفها راحة يديك، والجبال العالية تزنها في القبّان والتلال في الميزان...

«حين يريد الإنسان أن يحيط بك، يبقى مكانه، وحين يوسّع عقله، لا يكفي. إن رفع تفكيره أعلى من السماء، يجد نفسه يسير على

الأرض، وإن نزل إلى أعماق فكره، يعود في وقت قصير إلى الأرض ويبطل فكره. . .

«نحن من آدم وندرك شيئًا قليلاً. . . لا ينقصنا أن نتكلّم أكثر من هـذا. وإن أردنا أن نتكلّم خسرنـا، وإن بحثنا أصـابنا ضرر. كثيرون ضلّوا الطريق وتركوا السبيل وساروا تائهين في طريق المعثرة. حبلوا وفكّروا بكلمات فاسـدة، تنبأوا بـالكذب وأرادوا أن يـظهروا عقلاء فخسروا التمييز. هم عقول مظلمة يتلمّسون العتمة».

كم نلتقي هنـا بالقـدّيس أفـرام الـذي كـان يـرفض البحث والتفتيش الحشريّ عن الله على مثال فلاسفة اليونان، الذين كانوا في أساس الأزمة الأريوسيّة في الكنيسة. هذا الحسّ السريانيّ عند أفرام هو ذاته عند أفراهاط. نتعرّف إلى الله من خلال صنائعه، نردّد كلمات كتابه ونتوقّف عند عتبة الولوج إلى كيانه في صمت عميق هو صمت التأمّل والصلاة.

ولكنّ الإنسان ليس ببعيد عن الله، لأنّه هيكل الله خـالقه. هناك علاقة بين الله والإنسان، لأنّ الله في الإنسان والإنسان في الله (٦/١١؛ ١٧/٧). هذه هي مفارقة الحياة بحسب الإيمـان، حيث يحتاج الله إلى أن يهب الحياة لمن هم في حاجة إليها. نحن نمجّده، وإن لم نزده مجدًا (٢٣/٥٢). يستطيع فمُنا البشريّ أن يمـدح الله، ولكن كلّ الأفواه لا تكفي وكلّ الألسنة تبقى عاجزة (٢٣/٥٩). هذه المفارقات عديدة عند أفراهـاط، وليست تلاعبًـا على الألفـاظ. إنّها الوسيلة لنقول ما لا تستطيع أن تمسكه مقولاتنا البشريّة. الله فينا، ولكنّنا في الله بعد أن جعلنا الله تجاهه في الكتب المقدّسـة (١/٥. ٦/١١). فإذا تعدّينا الظواهر، تؤلّف هاتان العبارتان وحدة خصبة تجعلنا لا نفصل ما جمعه الله. وإذا توقّفنا عند مستوى الخلق، فهما تـدخلاننـا إلى معرفـة الواحـد الحيّ والحقيقيّ، وتصدمـان تفكيرنـا

فتُجبرانه على تبديل نظرته والتطلّع إلى عالم القيامة الذي يتحرّر من قياسات الأرض.

«نحن من آدم ولهذا لا ندرك إلاّ شيئًا قليلاً. نحن لا نعرف إلاّ هذا: إنّ الله واحد، إنّ مسيحه واحد، وإنّ الروح واحد. والإيمان واحد والمعموديّة واحدةٌ (٢٣/٦٠؛ رج أف ٤: ٥). هذا الإيمان بوحدانيّة الله هو موضوع الوصيّة الأولى (١/١١) ومبدأ كلّ شيء. ولا بدّ من إعلانها أمام الوثنيّين، أمام ماني الذي يزرع تعليمه الضالّ في مبدأيْن (٣/٩؛ ٢٣/٣)، أمام مرقيّون الذي ينكر صلاح الإله الخالق وأمام ولنطينس الذي يُذيب الله في الكثرة فيعلن عجز العقل البشريّ عن إدراك الله الكامل. أمّا أفراهاط فيتمسّك بحقيقة الوحدة الخصبة التي يستطيع أن يصل إليها الإنسان بعقله. ومعرفة الخالق الواحد مطلوبة من كلّ إنسان حتّى وإن لم تصله الكتب المقدّسة. على الإنسان أن يعرف الله من أعماله، لأنّ العالم ونظامه ليسا وليد الصدف. فالذين يختارون أن ينفصلوا عن هذا الإيمان الضروريّ بالروح والعمل يُحسبون وكأنّهم غير موجودين، لأنّهم انقطعوا عن الأصل، عن الإرادة الخلاّقة التي لا وجود لشيء خارجًا عنها. وبما أنّ الله واحد وسيّد الكلّ، فهو الأوّل والآخِر، فهو إله الأوائل والأواخر، أي إله كلّ أجيال الأرض: هو إله الآباء الذين أظهر لهم نعمته وإله الزمن الحاضر الذي نستطيع أن نثق به على مثالهم ونصلّي إليه في الضيق أو نشكره لأنّه واحد. ووحدته ترتبط بصلاحه. هو يعطي دون حدّ ولا حساب من كنزه الذي لا ينفد، لأنّ ما يوزّعه لا يُفقره، بل هو لا يرفض للبشر، حتّى اسم اللاهوت (١٧/٤)، هو الذي تنازل وَقبِل اسم إنسان.

وهذا الإله الواحد كشف عن نفسه في تعدّديّة أسماء تهدف إلى إظهار غنى كيانه. لا نستطيع أن نعتبر أيّ اسم كتحديد يساعدنا على

الأرض، وإن نزل إلى أعماق فكره، يعود في وقت قصير إلى الأرض ويبطل فكره. . .

«نحن من آدم وندرك شيئًا قليلاً. . . لا ينقصنا أن نتكلّم أكثر من هذا. وإن أردنا أن نتكلّم خسرنا، وإن بحثنا أصابنا ضرر. كثيرون ضلّوا الطريق وتركوا السبيل وساروا تائهين في طريق المعثرة. حبلوا وفكّروا بكلمات فاسدة، تنبأوا بالكذب وأرادوا أن يظهروا عقلاء فخسروا التمييز. هم عقول مظلمة يتلمّسون العتمة».

كم نلتقي هنا بالقدّيس أفرام الذي كان يرفض البحث والتفتيش الحشريّ عن الله على مثال فلاسفة اليونان، الذين كانوا في أساس الأزمة الأريوسيّة في الكنيسة. هذا الحسّ السريانيّ عند أفرام هو ذاته عند أفراهاط. نتعرّف إلى الله من خلال صنائعه، نردّد كلمات كتابه ونتوقّف عند عتبة الولوج إلى كيانه في صمت عميق هو صمت التأمّل والصلاة.

ولكنّ الإنسان ليس ببعيد عن الله، لأنّه هيكل الله خالقه. هناك علاقة بين الله والإنسان، لأنّ الله في الإنسان والإنسان في الله (٦/١١؛ ١٧/٧). هذه هي مفارقة الحياة بحسب الإيمان، حيث يحتاج الله إلى أن يهب الحياة لمَن هم في حاجة إليها. نحن نمجّده، وإن لم نزده مجدًا (٢٣/٥٢). يستطيع فمُنا البشريّ أن يمدح الله، ولكن كلّ الأفواه لا تكفي وكلّ الألسنة تبقى عاجزة (٢٣/٥٩). هذه المفارقات عديدة عند أفراهاط، وليست تلاعبًا على الألفاظ. إنّها الوسيلة لنقول ما لا تستطيع أن تمسكه مقولاتنا البشريّة. الله فينا، ولكنّنا في الله بعد أن جعلنا الله تجاهه في الكتب المقدّسة (١/٥. ٦/١١). فإذا تعدّينا الظواهر، تؤلّف هاتان العبارتان وحدة خصبة تجعلنا لا نفصل ما جمعه الله. وإذا توقّفنا عند مستوى الخلق، فهما تدخلاننا إلى معرفة الواحد الحيّ والحقيقيّ، وتصدمان تفكيرنا

فتُجبرانه على تبديل نظرته والتطلّع إلى عالم القيامة الذي يتحرَّر من قياسات الأرض.

«نحن من آدم ولهذا لا ندرك إلاَّ شيئًا قليلاً. نحن لا نعرف إلاَّ هذا: إنّ الله واحد، إنّ مسيحه واحد، وإنّ الروح واحد. والإيمان واحد والمعموديّة واحدةٌ (٢٣/٦٠؛ رج أف ٤: ٥). هذا الإيمان بوحدانيّة الله هو موضوع الوصيّة الأولى (١/١١) ومبدأ كلّ شيء. ولا بدّ من إعلانها أمام الوثنيّين، أمام ماني الذي يزرع تعليمه الضالّ في مبدأين (٣/٩؛ ٢٣/٣)، أمام مرقيّون الذي ينكر صلاح الإله الخالق وأمام ولنطينس الذي يُذيب الله في الكثرة فيعلن عجز العقل البشريّ عن إدراك الله الكامل. أمّا أفراهاط فيتمسّك بحقيقة الوحدة الخصبة التي يستطيع أن يصل إليها الإنسان بعقله. ومعرفة الخالق الواحد مطلوبة من كلّ إنسان حتّى وإن لم تصله الكتب المقدّسة. على الإنسان أن يعرف الله من أعماله، لأنّ العالم ونظامه ليسا وليد الصدف. فالذين يختارون أن ينفصلوا عن هذا الإيمان الضروريّ بالروح والعمل يُحسبون وكأنّهم غير موجودين، لأنّهم انقطعوا عن الأصل، عن الإرادة الخلاّقة التي لا وجود لشيء خارجًا عنها. وبما أنّ الله واحد وسيّد الكلّ، فهو الأوّل والآخِر، فهو إله الأوائل والأواخر، أي إله كلّ أجيال الأرض: هو إله الآباء الذين أظهر لهم نعمته وإله الزمن الحاضر الذي نستطيع أن نثق به على مثالهم ونصلّي إليه في الضيق أو نشكره لأنّه واحد. ووحدته ترتبط بصلاحه. هو يعطي دون حدّ ولا حساب من كنزه الذي لا ينفد، لأنّ ما يوزّعه لا يُفقره، بل هو لا يرفض للبشر، حتّى اسم اللاهوت (١٧/٤)، هو الذي تنازل وَقبِل اسم إنسان.

وهذا الإله الواحد كشف عن نفسه في تعدّديّة أسماء تهدف إلى إظهار غنى كيانه. لا نستطيع أن نعتبر أيّ اسم كتحديد يساعدنا على

أن نضع يدنا على الله. فالأسماء تعبّر عن الله بحسب وجهات علاقته مع الإنسان: نشاطه، صفاته. فبما أنّه الواجد الكلّ وبما أنّ لا شيء خارج عنه فاسمه يمثّل للإنسان شكلاً من العلاقة والارتباط به. عندما يلفظ الإنسان اسم الله، يدفعه ذلك إلى اتّخاذ موقف يقابل هذه التسمية. فإن قال: «أبانا»، اعترف بالذي ولده وأعلن أنّه ابن. وإن أعلن اسم الله، صار مؤمنًا. وإن قال «الربّ»، أقرّ خالقه ومبدأ حياته وسلطة الوصايا التي تدير الكون وأفعال البشر. هو العليّ للذين تختفي عظمتهم في التواضع، وهو الصالح والديّان بحسب أعمال خلقه. وهو القدّوس مع القدّيسين بالنظر إلى الخطأة.

وبما أنّ الكتب المقدّسة هي موضع الوحي التاريخيّ، فقد سمّى الله نفسه أمام موسى في العلّيقة: أنا إله أبائكم، إله إبراهيم، وإله إسحٰق وإله يعقوب (١٤/٧، ٨)، فدلّ على دوام حضوره وعلى علاقته الثابتة بالآباء. وسمّى نفسه الكائن وشدّاي وربّ الجنود. هنا نذكر تقليدًا يهوديًا فلسطينيًا دُوِّن حوالى السنة ٣٠٠، قال: «حين أراد موسى أن يعرف اسم الله العظيم لينقله إلى بني إسرائيل، قال له الله: «أنت تطلب أن تعرفني باسمي؟ أنا أُسمّى بحسب أعمالي. فأنا شدّاي وصباؤوت والله ويهوه. بما إنّي أدين الخلائق اسمي الله، وبما إنّي أحارب الأشرار فأنا صباؤوت (أي القدير)، وبما إني أترك الدعوى على خطايا الإنسان معلّقة فاسمي شدّاي (أي الشديد كالجبل)، وبما إني الرحيم اسمي يهوه». أما الكائن فيعبّر عن دوام حضوره مع شعبه في كلّ عبوديّة يعرفها. في نظر أفراهاط إذًا، الله يعمل لشعبه من أجل اسمه ليكون منطقيًا مع نفسه. هكذا يسمّونه وهكذا يعترفون به (١٩/٨؛ ٢٣/١٦).

هذه الأسماء عرفها أفراهاط في العهد القديم، ولكن هناك أيضًا الأسماء الثلاثة السامية والمجيدة المذكورة على رأس المعمّد: الآب

والابن والروح القدس. كان دور الثالوث الأقدس أساسيًا في تكوين «أمانة» نيقية. أمّا في فعل إيمان أفراهاط، فنستشفّه استشفافًا. فالروح والمسيح هما موضوع إرسال من قبل الله ربّ الكلّ. ونحن لن نجد كلمة في العلاقات المباشرة بين الأقانيم الثلاثة. فأفراهاط لا يعرف التمييز بين الطبيعة والأقنوم أو الشخص كاليونان. وإن أورد نهاية إنجيل متّى (٢٨ : ١٨) فهو يوردها في إطار ليتورجيا المعموديّة أو المجدلة (٢٣/٦١، ٦٣).

٢ ـ من الخلق إلى الخلاص

ويسير فعل إيمان الحكيم مسيرته التاريخيّة منذ البداية إلى النهاية ليصوِّر ملء عطيّة الله في مراحلها الأساسيّة. فالخلق والخلاص عمليّة يُنتج الله بها خارجًا عنه خلائق استعدّت لقبول عطيّته. هنا نجد الله بصورة إنسان. فهو يعمل ويرتاح، ينظر من أعالي السماء، يرضى أو يغضب. وعمله معرَّض لنداء الرغبة والمحبّة والإيلاد، وكلّها كلمات تتنافى والنظرة اللاهوتيّة المجرّدة. يعرف أفراهاط أنّ هذه العبارات رمزيّة ولكنّها ضروريّة. فالواعظ يحتاج أن يستعمل الصور (٢٣/٦١) ليقول ما تمسكه مقولاتنا البشريّة. ولكن ابن الله صار جسدًا. وهكذا فالجسد والكنيسة هما سرّ حضور الله الحقيقيّ والمكان الذي فيه تلتقي السماء بالأرض. فالخلائق لم تولد من خارج الله، وكأنّها انتُزعت منه فحرمته من بعض كيانه. ولائحة أعمال الله من خلق الكون وآدم، وعطيّة الشريعة لموسى والروح للأنبياء والمسيح للعالم، ليست بناءً خارجيًا لا نفهم منه شيئًا. فالله والإنسان واحد (٦/١٢) إذا اعترف الإنسان بأنّه مخلوق وعاش نظام الوصايا العشر. حين يخلق الله، لا يحرم نفسه من شيء، ولا يحصل له ضرر إن هو تقاسم غناه مع الكثرة، لأنّه لا يُحسب معها. وآدم لا ينقص، حين تؤخذ حوّاء منه

(١٣/٢٢)، وموسى لا ينقص حين يأخذ الله من الروح الذي عليه ويعطيه للسبعين شيخًا (١٢/٦)، ولا يخسر أفراهاط حين يقاسم قارئيه إيمانه ومعرفته للكتب (٦٧/٢٣).

فآدم الحكيم يسكن السماء ويشارك في الخلق وفي تزيين الكون. أمّا المتنسّكون فإن انفصلوا عن العالم، فلكي يتكرّسوا بكلّيّتهم لطاعة الإيمان هذه.

٣ - الروح والمسيح

إذا تأمّلنا مليًّا في فعل إيمان أفراهاط، نلاحظ أنّه يذكر الروح في العبارة الرابعة، حين يتحدّث عن إرسال حصص من الروح في الأنبياء. ولكن الروح حاضر في كلّ مكان منذ خلق العالم وآدم الذي نفخ فيه من روحه ليكون نفسًا حيّة (٦/١٧، ٧). والروح حاضر في موسى وفي عطيّة الشريعة (٢١/٢١) وفي الأنبياء، وهو يرتاح أخيرًا في المسيح. الروح يتشفع من أجل الموتى ويقيمهم (١٤/٦) ويحيط مياه المعموديّة في الخلق الثاني وينتشر على كلّ البشر ليصيروا أنبياء وحاملي كلمة الله (١٢/٦؛ ٤٦/١٤؛ ٥/١٦؛ ٢٦/٢٢). إنّ عطيّة الروح تتدرّج على مدى ثلاثة وستّين جيلاً حتّى تصل إلى المسيح الذي يجمع في شخصه كلّ نماذج العهد القديم. قَبِل يسوع المسيح روح الآب من دون قياس فأفاضه على كلّ إنسان مُسح مثله وتصوَّر بصورته. لهذا يسمّى روح المسيح، وهو الذي يُحيي البشر ويوحّدهم في صورة واحدة فيصبح ابن الأرض من السماء وابن الزمن من الأبديّة.

وهكذا، فحين نتكلّم عن الروح، نتكلّم عن مشاركة الإنسان لله. هذه المشاركة كاملة في يسوع الإنسان، الهيكل والكاهن وقدس الأقداس، وهي محدودة عند سائر البشر الذين يقبلون من روحه. ولكن الروح عينه هو في الله وفي البشر. فلا روحَ في الله يقابل الروح

الذي في البشر وكأنّنا أمام طبيعتَين مختلفتَين. لا نستطيع أن نفصل الروح عن المادّة، وعندما يُفاض الروح فهو لا ينقص ولا يبتعد عن ينبوعه، بل هو يخلق الاتّحاد والمشاركة، يخلق مدى الحبّ، لا مدى البعد والفراغ والمسافة. به يتمّ الاتّحاد بين الرجل والمرأة، بين الإنسان والأرض. به تنقلب اللعنة الأولى الناتجة عن الخطيئة إلى بركة. فينال المؤمن ويختبر هذا السرّ حين يسمع الكلمة ويخضع للوصايا. لا شكّ أنّ هذا الاتّحاد كاملٌ بين الآب والمسيح بواسطة الروح، ولكنّه حاضر أيضًا في هؤلاء الصغار الذين يرى ملائكتهم وجه الآب دومًا. فحيث يكون الروح، لن تعود مقاومة في طريق الاتّصال بين الإنسان وربّه فيطير المؤمنون إليه بسرعة وخفّة كالحمائم (١٨/٦) وكالرياح أو كشعاع الشمس (٣٥/١٤). أو هم يعودون شبّانًا كالنسور القائمين على القمم ومن هناك يرون المسيح. ترتفع أيديهم كأجنحة فتحمل صوتهم إلى السماء (١/٦). فالمتنسّكون البتولون والقدّيسون هم قريبون من الروح، متّحدون بابن الله الوحيد والمحبوب (٦/٦).

وحين نتحدّث عن المسيح نعرف أنّنا لا نجد نظريّة ولادة الابن عند أفراهاط خارجًا عن الوحي بسرّ التدبير الخلاصي. ابن الله هو المسيح الذي بشّرت به الكتب وولدته مريم العذراء. عنه شهد يوحنّا المعمدان أنّ الروح نزل وحلّ عليه. ويهاجم أفراهاط الكافرين الذين يستندون إلى نصّ الرسول فيعتبرون أنّ هناك آدمَين: هناك جسد حيوانيّ وجسد روحانيّ كما كُتب: حبل آدم الأولّ نفسًا حيّة وآدم الثاني روحًا محييًا. فليس إلاّ آدم واحد حُبل به في فكر الله قبل أيّة خليقة، ثمّ جُبل ووُلد ونُفخ فيه روح وجُعل في الفردوس في نهاية أسبوع نشاط الله في الخلق (٧/١٧). ولكنّه يتقبّل صفتَين: هو أرضيّ لأنّه خطئ وطُرد من عدن، وهو سماويّ لأنّه ابن بحسب إرادة الآب. فالذي جاء من الله ولم يكن أصله من التراب صار طعام الحيّة. ففي وقت الخلق، لا يوجد آدمان، واحد بشريّ وشرّير، وآخر روحانيّ

وصالح، لأنّه لا يوجد إلهان كما يقول الهراطقة (٣/٢٣). في البداية، لم تكن السماء بعيدة عن الأرض، بل ألِفت معها وحدة خصبة، فصارت الأرض المكان الذي تصبّ فيه قدرة السماويّ وتزهر. وفي وقت الخطيئة، انقلب الأرضيّ وعارض السماويّ فصار مثال العداوة. فكما أنّنا نحن الخطأة لبسنا صورة الأرضيّ، فعلينا أن نلبس صورة السماويّ ونعيد في داخلنا عمل الخلاص. وهكذا فآدم المسيح يستطيع أن يجلس عن يمين العظمة وأن يسير على الأرض بعد أن ربط السماء بالأرض (١٠/٦).

حين أخذ المسيح جسدًا أعاد النظام الأوّل إلى ما كان عليه. وهكذا أخذ مكانه في خطّ أبناء آدم وصار مستعدّاً لأنّ يتألّم وأن يموت. ولكن الحبل به لم يكن من مبادرة البشر، بل جاء الروح فأخصب العذراء مريم. المسيح هو الإنسان الحرّ وابن الملك الذي قبل أن يلبس لباس العبوديّة ويخضع لنتائج اللعنة الناتجة عن الخطيئة، وذلك حتّى الموت. إنذهل الموت حين رآه داخلاً إلى عرينه، لأنّ مَن لا خطيئة عليه لا يدخل إلى عالم الموتى. وسيخزى الموت، بل سيسمَّم لأنّه أكل من ثمرة الحياة والمعرفة التي صلبها بجسده على خشبة الصليب (٣/٢٢). لقد سُمِّرت اللعنة الأولى وصار الصليب علامة موت المسيح، بل علامة انتصاره. فكشف ما في العهد القديم من أسرار ورموز: السلّم التي توصّل إلى السماء (٤/٤)، وعصا يعقوب والمنارة التي لا تدرك الظلمة نورها (١١/١)، وعلامة الانتصار على عماليق (١١/٣). فجسد المسيح هو موضع الخلاص، والإنسان الأرضيّ عاد فتوجّه نحو السماء، فارتفع وحمل اسمًا جديدًا بقدر ما يصوِّر مرّة أخرى تواضع الابن. ولم يعد الموت الطبيعيّ علامة اللعنة، بل صار إمكانيّة جديدة للدخول في جنّة الحياة الحقيقيّة (٢٢/١٤؛ ٢٤/٢٢). وهكذا يتمّ بالإيمان اقتداؤنا بالمسيح.

هذا المسيح، الذي مثّله أبرار العهد القديم، له أسماء عديدة توافق أعماله من أجلنا. فهو الراعي والباب والطريق والكرمة والزارع والختن واللؤلؤة التي نبحث عنها، والسراج والنور والملك والله والمحيي والمخلّص (١١/١٧).

٤ ـ القيامة

يصوِّر الحكيم الفارسيّ القيامة على أنّها انتصار المسيح على الشيطان وقوّاته (١٢/١١؛ ٥/١٣) بعلامة الصليب (١٠/٢١؛ ٤٩/٢٣)، وهو بهذا لا يفترق عن القدّيس أفرام. فعلى كلّ الناس أن يقوموا بهذا الجهاد في حياتهم لينتصروا هم أيضًا. فالموت هو النهاية، ويبدو في الظاهر نجاح الشرّير. ولكن الإيمان يحوِّل هذا النجاح إلى فشل بفضل خضوع ذلك الذي بذل حياته. فالمسيح لم يعد خاضعًا لسلطان الموت (١٣/١٢) لأنّه يملك ملح البركة أو ملح الروح الذي يمنع الجسد من الذوبان والفناء. فاللعنة المفروضة على آدم ونسله وجُّهت الإنسان نحو الموت. وجبلة الإنسان الخارجة من يد الله تغذّت من كلمة الحيّة، لا من أمر الله، فعادت ترابًا وصارت طعامًا للحيّة (٨/٩؛ ٩/١٤، ١١، ٣٧؛ ٢/١٥).

ولكن، حين مات المسيح، نزل إلى الجحيم، إلى قلب الأرض حيث يخفي الموتُ أسلابه، فحطّم مغاليق عالم الموت وحرَّر المسجونين، وعادت الأرض موجَّهة نحو إرادة الله. وهكذا انتقل الجسد من هناك إلى أرض الحياة. كان ضعيفًا فصار قويًّا، وكان من الأرض فصار من السماء، وكان حيوانيًّا فصار روحانيًّا، وهكذا تغيّر طبعه الفاسد (٤/٨، ٥). أمّا الخطأة، فالأرض تصبح لهم ترابًا تأكله الحيّة. لا روح لهم ولا حياة. لا تُكتب أسماؤهم في سجلّ السماء، فينساهم الله ويصبحون وكأنّهم غير موجودين (٤/٩؛ ٢/١٨).

وهكذا يرتبط الخلق بالقيامة والبدء بالنهاية. قال أفراهاط (٨/ ٦) «أودّ يا عزيزي، أن أُقنعك قدر استطاعتي في أمر بعث الموتى. في البدء خلق الله آدم، من التراب جبله وأقامه. فإن كان قد صنعه يومَ لم يكن شيء موجودًا، فكم يكون أسهل عليه أن يقيمه الآن لأنّه زُرع زرعًا في الأرض. فإن كان الله يصنع الأشياء السهلة في عيوننا، فلا تبدو لنا أعماله خارقة، فبين البشر أُناس حاذقون يصنعون أشياء مذهلة.

«ليس بكثير على الله أن يُحيي الموت. حين لم يُزرع زرع في الأرض، ولدت الأرض شيئًا لم يسقط فيها. وحين لم تحبل ولدت وهي بتول. فأيّ صعوبة أن تنبت الأرض أيضًا ما وقع فيها وأن تلد ما حبلت به».

ولكن إن تركنا جانبًا البرهان الذي يتضمّن موضوع الزرع، نجد الله في الخلق والقيامة يُنهض آدم من تراب الأرض. وقد كتب أفراهاط أيضًا: «في البدء كان الصوت الذي هو الكلمة. وقال أيضًا: الكلمة صار جسدًا وحلّ فينا. فهو صوت الله الذي يصرخ من العلاء ويقيم جميع الموتى» (٨/ ١٥). إذًا صوت البدايات يقيم الموتى الذين عادوا إلى التراب. وهكذا يرتبط البعث الأوّل بالبعث الثاني. ونفهم هنا أهمّيّة صوت البوق الذي يصرخ من العلاء ويقيم الموتى. هذا الصوت دعا المتنسّكين، وهو يشبه صوت الختن الذي يوقظ العذارى النائمات.

٥ ـ المعموديّة والإفخارستيّا

سبق لنا أن تكلّمنا عن المعموديّة عند أفراهاط في معرض حديثنا عن المتنسّكين أو أبناء العهد. والآن نعود إليها بسبب موضعها في الأمانة ودورها في العمل الخلاصيّ. أفراهاط لا يصوِّر بطريقة ماديّة

طقوس الاحتفال بالمعموديّة، بل يُدخلنا في المعرفة الروحانيّة لِما يؤسّس ممارسات الكنيسة المختلفة. ويعود إلى الكتاب المقدّس فيجد أنّ ثمر الزيتونة هو ماء ودم وزيت ولبن، وهو يقابل ثمر الكرمة المبارك. هذه الثمار هي شجرة الحياة وشجرة المعرفة، هي المسيح الذي يشاركه المؤمنون حين يغتسلون ويتغذّون بالماء الجاريّ من جنبه، وبالخبز والخمر اللذين هما جسده ودمه. وهكذا لا تنفصل الإفخارستيّا عن المعموديّة، وإن احتُفل بها بعد المعموديّة في الزمن.

أما الخلاص الذي تعطيه الأسرار، فيصوِّره أفراهاط رجوعًا إلى الفردوس يتحقّق بالمسيح. يعرف المؤمنون أنّ الموت غُلب بالقيامة وأنّ الزمن لا يسير إلى الهلاك، بل يبقى مرتبطًا بالمسيح الذي هو واحد مع الآب. أمّا الدخول في هذا السرّ فيتمّ بالماء. ولهذا فكلّ مقاطع الكتاب هي نموذج للخلاص. فالمؤمنون يولدون من الماء. وهذا موضوع يرتبط بالختان الثاني بعد التغطيس في الأردن. وهو يقابل الإيمان بالله الواحد الذي يقطع بكلمته الأعمال السيِّئة ويساعدنا على تتميم الوصايا. فمياه العماد التي نزلوا فيها دفنتهم، فعاشوا سرّ آلام المسيح. ولكن هذه الدفنة جعلت جسدهم المائت روحانيًّا. جعلته زرع قيامة وعربون حياة (١٢/ ١٠ ; ١٤/ ١٦). والمياه التي تُغرق هي مياه البحر الأحمر الذي ينفتح ليخلّص الشعب من عداوة مصر، وهي تعليم الكتب المقدّسة المُفاضة كنبع حيّ على وادي الشعوب (٢٠/ ١٤).

وفي مشهد غسل الأرجل، يذكِّر المسيح تلاميذه بسرّ الولادة الجديدة وبالمسؤولية التي تلقيها على عاتق المؤمن: إذا كنت أنا، معلّمكم وربّكم، قد غسلت لكم أرجلكم، فكم يجب أن تغسلوا أرجل بعضكم بعضًا (٢٣/ ١٠): فالمعموديّة ليست غسلاً خارجيًّا يستطيع اليهود أن يفتخروا به (١٥/ ١). مثل هذا العماد لا يمنح

غفران الخطايا لأنّ تدبير العهد القديم ولّى وزال، والهيكل لم يعد له من وجود، ومعصرة كرم أشعيا، التي تدلّ على عماد كهنة العهد القديم، لم تعد تنفع (٢٢/٥).

تشبه المعموديّة مياه جدعون التي نشربها ولا نعبر فيها. وهي امتحان للمستعدّين لأنّ يهبوا حياتهم كلّها للكلمة، وللكلاب الشجعان الذين يحبّون معلّمهم ويضحون بحياتهم من أجله (٢٠/٧).

نحن نستحمّ في هذه المياه ونشربها أيضًا، فتغسل قلوبنا من الداخل وتُطفىء عطشها وتحييها. إنّها مياه صخرة موسى وبئر مريم، أنّها المياه التي تجري من صدر المخلّص، الذي يقابل صدر آدم الذي أخرج المرأة ومعها الخطيئة والشهوة (٢/٦، ٧). والشعوب الذين يسمعون الكلمة يغطسون في هذه المياه ويشبعون منها. لأنّ هذه المياه هي نهر الفردوس الذي ينبع من شجرة المعرفة وشجرة الحياة، رغم الحاجز الموضوع، فيصبّ ثمار الرحمة على عالم لا يستطيع أن يعيش بدونها. والذين ينالونها يشبهون خصلة العنب وسط العنقود الفاسد التي تحمل البركة وتنقلها من جيل إلى جيل. فزرع الكلمة هو منذ البداية دواء حياة يعارض سمّ الحيّة وهو يبدو لنا بشكل عهود متعاقبة وعطايا متلاحقة. وهو زيت الزيتونة الذي نستعمله لمسحة المعموديّة فنصبح كهنة وملوكًا وأنبياء، فنضيء في الظلمة ونمسح الضعفاء بالزيت ونقرّب التائبين من السرّ الخفيّ (٣/١). هذا الثمر، الذي زُرع كابن حبيب في مريم، الأرض البكر (٥/٩)، يُزهر ويُولَد ويتجلّى على عود الصليب. فالشجرة والثمر يصبحان واحدًا. تجتمع شجرة البدايات إلى الأصل السماويّ فتتجلّى زيتونة وزيتًا، كرمة وعنبًا. هنا نكتشف خصب هذا الموت الذي يفتح الجنّة ويمنح عربون الحياة، لأنّ الجسد البريء المأخوذ من مريم هو عربون السماء، وقد جُعل طعامًا

روحيًا للمؤمنين. هو الخبز والخمر لكرمة شُذِّبت بإرادة الله من الأعمال السيِّئة. هذا الخبز والخمر أعطاهما يسوع بحرِّيَّة لتلاميذه ليلة العشاء، ومنذ ذلك الوقت الذي أكل فيه تلاميذه الخبزُ حُسب ميِّتًا. فطعام الحقّ هذا هو وحده يُشبع. هو وحده عطيّة روحيّة كالماء الذي أُعطي للسامريّة (١٢/٤ ـ ٥). والأغصان المتّحدة بالكرمة هم المؤمنون الذين يشربون من هذه الكأس، والكلاب الأمينة التي تلحس جراح المسيح الفقير. والذي يقدّم الشراب يصبح لبنًا أو خمرًا، يصبح خبزًا متكاثرًا ليكفي العالم، وحَمَلَ فصح مشويًّا في النار ومقبولاً كذبيحة من أجل جماعة كثيرة. فالذين يستحمّون في مياه المعموديّة ويأخذون جسد المسيح، دمه يكفر عن دمهم، وجسده يطهّر جسدهم، وتغسل المياه والصلاة خطاياهم بقوّة الله العظيم (١٩/٤).

نشير هنا إلى أنّ أفراهاط أفرد مقابلة كاملة عن الفصح هي المقالة الثانية عشرة، فذكّر اليهود بأنّ لا حقّ لهم بعد أن دُمِّر الهيكل أن يحتفلوا بالفصح، كما ذكّرنا نحن المسيحيّين بخلاصة القدّاس وهو ما نسمّيه الكلام الجوهريّ. قال: «بعد أن خرج يهوذا من عندهم، أخذ خبزًا وبارك وأعطى تلاميذه وقال لهم: هذا هو جسدي. خذوا كلوا منه كلكم. ثمّ على الخمر كذلك، بارك وقال لهم: هذا هو دمي العهد الجديد الذي يراق من أجل كثيرين لغفران الخطايا. هكذا تصنعون لذكري حين تجتمعون» (٦/١٢).

ونُنهي حديثنا عن الإفخارستيّا بهذا المقطع الذي يقابل فيه أفراهاط موسى والمسيح، الفصح القديم والفصح الجديد. قال (٨/١٢): «فصح اليهود هو اليوم الرابع عشر بلَيله ونهاره. وفصحنا هو يوم الآلام العظيم، يوم الجمعة، يوم الخامس عشر بلَيله ونهاره. بعد الفصح، أكل شعب إسرائيل الفطير سبعة أيّام حتّى الحادي والعشرين من الشهر. ونحن نحفظ الفطير كعيد مخلّصنا. هؤلاء أكلوا

الفصح مع أعشاب مرّة، ومخلّصنا رذل كأس المرارة هذه وانتزع كلّ مرارة الشعوب حين ذاقها ولم يرد أن يشرب. يذكر اليهود خطاياهم زمنًا بعد زمن، ونحن نتذكّر صلب مخلّصنا وإهانته. بالفصح خرج هؤلاء من عبوديّة فرعون، ونحن في يوم الصلب نخلُص من عبوديّة الشيطان. هم ذبحوا حَمَلاً من القطيع وبدمه نجوا من المُفسد، ونحن خلصنا بدم مختار من أعمال الفساد التي عملناها. كان لهم موسى قائدًا، ولنا كان يسوع هاديًا ومخلّصًا. لهم شقّ موسى البحر وأجازهم، ومخلّصنا شقّ الجحيم وحطّم أبوابه ودخل إلى الداخل ففتحها ورسم الطريق أمام كلّ الذين يؤمنون به. لهم وُهب المنّ ليأكلوا، ولنا وَهب ربُّنا جسده لنأكله. لهم أُخرج الماء من الصخرة، ولنا أخرج مخلّصنا الماء الحيّ من صدره. وعدهم موسى بأرض الكنعانيّين ميراثًا، ووعدنا ربّنا بأرض الحياة مِلكًا. لهم رفع موسى حيّة النحاس بحيث إنّ مَن ينظر إليها يبقى حيًّا، ولنا علّق يسوع نفسه بحيث إنّ مَن ينظر إليه ينجو من جرح الحيّة التي هي الشيطان. لهم صنع موسى الخيمة الزمنيّة ليقدّموا فيها الذبائح والقرابين فيطهروا من خطاياهم. ويسوع أقام مسكن داود الذي سقط، ثمّ قام».

٦ ـ مسيرة الإيمان

وهكذا حين يصل الروحانيّ إلى جنّة عدن وهيكل الله ينتج ثمار الروح، بحرّيّة بعيدة عن عبوديّة الجسد وبطاعة للوصايا. أمّا لائحة ثمار الروح التي يوردها أفراهاط فهي قريبة جدًّا مما نقرأه في رسالة القدّيس بولس إلى أهل غلاطية (٥: ١٩ ـ ٢١). فهي تتضمّن تحرّرًا من أربع نزوات: تحرّرًا من الممارسات الدينيّة الخاضعة للشرائع الزمنيّة (الساعات والسبوت والأزمنة ورؤوس الشهر) أو التي أفسدتها الممارسات الخفيّة (الفأل والعرّافة والسحر)، تحرّرًا من شهوات الجنس

والشره الفوضويّة (الفسق والفجور)، تحرّرًا من ميول العقل وانحرافاته (التعاليم الباطلة، التملّق)، تحرّرًا في العلاقات مع الآخرين لتصبح قويمة دون غضب ولا فجور. وهناك وصيّتان آخريان تتعلّقان باستقامة الكلام الذي يجب أن يكون صدى لكلمة الله الثابتة والمستقيمة. فالفم هو الباب الذي به يَقبل الإنسانُ جسد المسيح ودمه، فلا يليق أن تخرج كلمات نجسة من هذا الباب. وهذه الكلمات النجسة هي انعكاس لنوايا شرّيرة وقلب دنس، فلا تستطيع التطهيرات الخارجيّة أن تغسلها (٢/٣).

وتزهر أعمال الإيمان في عمل التوبة والرجوع عن العالم على مثال المسيح الذي سار في طريق غير طريق آدم. علينا أن نشارك المسيح ليكون لنا حظّ في قيامته وفي موته، أي أن نموت مسبقًا معه فنقدّم حياتنا على مثاله. وهذا ما نحتفل به بطرق عديدة. أوّلاً في المعموديّة والتوبة التي تصل بنا إلى الاختيار الجذريّ الذي يقوم به المتنسّكون. ثانيًا في الإفخارستيّا التي نأكلها وأحقاؤنا مشدودة ونحن منتعلون إعداد الإنجيل مع سيف الروح (٩/١٢). ومشاركتنا للمسيح وقيامته تسمّى محبّة وهي وصيّة مضاعفة تتعلّق بها كلّ قوّة الشريعة والأنبياء. «أحبّ الربّ الإله من كلّ نفسك ومن كلّ قدرتك ومن كلّ قوّتك، وأحبّ قريبك كنفسك» (٢/١). هذه الوصيّة الواحدة هي انعكاس الله الواحد، وقد أتمّها يسوع كاملة طائعًا حتّى الموت على الصليب وعلّمها لسامعيه، فكان مثال الكلمة الحقّة التي تفعل ما تقول (١٩/٢). وحين نصير نحن أبناء في المسيح، فنؤلّف معه جسدًا واحدًا، نُقطع من اللعنة الآدميّة القاتلة. ففينا كما في المسيح الرأس، سينقلب العصيان الأصليّ. وفي الإيمان يصبح الصليب حضور رجاء لارتفاع في المجد (١/٦).

بين الله والإنسان أو في المسيح الذي يصوّره إيمان الحكيم، لا نجد الطبيعة البشريّة قرب الطبيعة الإلٰهيّة وعلى مستوى واحد، كما لو كان بالإمكان أن يوجد شيء قرب الله. بل هناك الله أصل كلّ شيء. هو الحيّ والقدير ويخلق أمام قدرته الضعف الذي يتمثّل في الجسد أو الأرض. يستعمل هنا أفراهاط كلمات مضادّة ليعبّر عن المسافة التي يمثّلها مجد الله الذي لا حدود له. بالخطيئة قام الجسد على الله، صار العدوّ. ولكن الله سيمسك بهذا العدوّ بواسطة الخلاص، دون أن يُزيل المسافة. والكلمات ستصوِّر عظمة الله اللامحدودة ونشاطه الكامل الذي لا يتحرّك ووحدانيّته التي تتعدّى التناقضات. ويسمّي الابن المسيح هذا التقارب عدن قلب الإنسان حيث يسكن الله. أمّا عمل الإنسان في زمن العالم فيقوم بأن يرجع إلى ينبوعه فتطابق إرادتُه إرادةَ الخالق.

هنا يحسّ أفراهاط بالصعوبة لدى قرّائه الذين لا يفهمون آيتَيْن من الكتاب تبدوان متناقضتَين. الآية الأولى: «أسكن فيهم وأسير بينهم» (لا ٢٦: ١٢؛ ٢ كور ٦: ١٢). والآية الثانية: «أيّها الربّ، كنت لنا مسكنًا قبل أن تحبل الجبال، قبل أن تحبل الأرض وقبل أن يتأسّس الكون» (مز ٩٠: ١ ـ ٢). كيف نفهم أن يكون الله ساكنًا ومسكنًا؟ إنّ الله، وقبل أن يخلق شيئًا، حبل بآدم وكوّنه في فكره. ثمّ حبل بالعالم وخلقه وزيّنه. وحين أنهى كلّ شيء في اليوم السادس، ولد آدم من فكره وجبله بيدَيه وأدخله كسيّد إلى العالم الذي هيّأه له. أولاه السلطان على كلّ ما صنع، كرجل له ابن يريد أن يزوّجه فينتقي له عروسًا ويبني له بيتًا ويهيّئ له كلّ ما يحتاج إليه ابنه. وهذا ما عمله الله. أخفى آدم طوال عمله كبنّاء حكيم. وحين ولده وجبله، نفخ فيه من روحه وأعطاه علم التمييز يميِّز الخير من الشرّ ويعرف أنّ الله صنعه.

وفي المقابل كوّن الخالق وحُبل به في عقل الإنسان الذي يصبح هيكله. وكلّ زمن العالم سيكون مرآة لأسبوع الخلق. الله مخفي في الإنسان، ولن يُكشف إلاّ في النهاية، في القيامة. والقيامة ستلتقي اليوم الأوّل من الخلق بعد مسيرة تنطلق من الله فتصل إلى آدم، ثمّ تنطلق من الإنسان فتصل إلى الله، وذلك بعد ستّة آلاف سنة، بعد أيّام الخلق المضروبة بألف، لأنّ كلّ يوم في عين الله كألف سنة[1].

(١) راجع ٧/١٧، نشير هنا إلى أنّنا نجد هذا التفسير عينه في الفصل الأوّل من كتاب النحلة، وقد كتبه سليمان البصريّ في القرن الثالث عشر.

صورة الإنسان عند أفراهاط

بعد أن تحدَّثنا عن الله وما هيَّأ للإنسان من عطايا ليعيش تاريخ الخلاص، نعود إلى الإنسان فنتعرَّف إلى نظرة أفراهاط ونحلّل عناصرها: النفس، الروح، الجسد واللحم، القلب. ونُنهي بنظرة إلى عالم الموت.

١ ـ نظرة متحرّكة

تحدَّثنا عن الله فما وجدنا له تحديدًا، ونتحدَّث عن الإنسان صورة الله، فما نجد له تحديدًا عند أفراهاط. فالحكيم يقترب من الإنسان ويصوّره شيئًا فشيئًا انطلاقًا من وجوه تساعدنا على الإحاطة بمداه والتعرّف إلى نطاق عمله. وهذه الوجوه تبدو غير محدودة، أقلّه نظريًّا. وكلّ الكلمات المستعملة: الإنسان، القلب، النفس، الجسد، ليست أشياء تكوّن الإنسان، بل هي مظاهر الكائن الحيّ الموحَّد، التي تدلّ على عمله ونشاطه، بل على إمكانيّاته وضعفه. بين هذه الكلمات، نجد تحرُّكًا دائريًّا من كلمة إلى أخرى، فتكوّن «جسمًا» تشارك كلّ منها في بنائه. إنّها تلفت النظر إلى هذا الوجه أو ذاك، مثل أسماء الله التي تقول لنا شيئًا من الله ولكنّها لا تحصره في إطار تحديد مغلَق.

التحديد جامد وهو يحصر الكائن في إطار. يفيدنا إن أردنا أن ندرس الكائنات الجامدة، ولكننا نفشل إن لجأنا إليه لكي نكتشف شخصيّة الإنسان في حرِّيَّته وتجدّده الدائم. أمّا أن نحدِّد الله، فهذا

منتهى التناقض، وما يساعدنا على اكتشاف غناه هو أسماؤه المتعدّدة (٣/١٧، ٥، ١١).

من هنا نفهم لماذا يشدّد أفراهاط على الأفعال التي تدلّ على العمل، لا على الصيرورة. فالفعل يدلّ على قدرة الشخص ويبيّن هويّته. أمّا الأسماء المتعدّدة (النفس والقلب) التي نستعملها لتصوير الكائن البشريّ فهي تمثّل وجوهًا خاصّة لهذا الشخص. فالذي يصنع الوصايا مثلاً وينفّذ في أعمال إيمان ما قالته شفتاه من كلمات، يبيّن أن لا انفصام بين قلبه وفمه، ويقدر أن يسمّى ابن الله أو جسد المسيح، وأن يكون ذلك حقيقة. والأعضاء والحواس تعبّر عن قدرة الخروج من الذات، عن إمكانيّة الاتّصال بالآخرين ولا سيّما بالله. الكائن موجود كلّه في كلّ عمل، وكلّ عضو يشارك بحسب وظيفته ومكانته في نشاط الجسد، في كلّ نشاط الإنسان الفاعل. وكما كان الأنبياء ورجال العهد القديم حضورًا محدّدًا لكلمة المسيح الواحد (١١/١١) الذي هو ملء صورة الله، هكذا كلّ إنسان، بقدر ما يشارك الروح، هو في الوقت نفسه الكنيسة وابن الله والله نفسه في وحدته الحيّة (١١/٤).

٢ ـ كلمات تعبّر عن الإنسان

إذا أردنا أن نكتشف عمق الإنسان وغناه، لا بدّ أن ننظر إلى الوجهات المتعدّدة الحاضرة في الإنسان. ولكن هذا أمر صعب. لأنّنا كلّ مرّة نتطلع إلى وجهة خاصّة من نشاط الإنسان علينا أن نقول حالاً إنّ الإنسان هو كلّ كيفما نظرنا إليه. كلّ شيء يتحرّك، الناظر، والمنظور. والحيّ الواحد يتكلّم ويُتكلَّم عنه. والكلمات التي يستعملها الحكيم ليست عناصر التكوين البشريّ كما نقول إنّ الإنسان مكوّن من نفس وجسد مع ما في هذا القول من نقص. نحن لا نستطيع أن

ب ـ النفس

النفس هي هدف عمل الإنسان، وهي مرآة ينعكس فيها. بها يُزهر ويتحرّك ويعمل. فيها يمتزج العقل والحرّيّة والمسؤوليّة في حوار داخليّ. أمّا الموت فسكوت وجمود. يبقى الكائن ولكنّه خسر المدى الذي فيه. حُجز في عزلة فلم يعد يقدر أن يتّصل بالآخرين (٤/٢٢). توقّف حوار الإنسان مع نفسه فلم يعد له معرفة ولا تمييز لأنّه خسر المدى الذي تتفجّر منه الحواس.

غير أنّ هذه الإمكانيّة التي تساعدنا على الحوار الداخليّ والعمل الذي يعكس الذات، يمكن أن تكون أيضًا مسافة الانفصال والتمزّق. وهذا هو خطر الوجود البشريّ: عليّ أن أختار (٢٠/٧)، أن أُحارب نفسي لئلاّ أعود إلى الحالة السابقة (٢٥/٧). عليّ أن أحفظ نفسي من كلّ وصمة ولا أعود إلى الأعمال السابقة (١/٦)، أحفظها من الشرّير (٨/٦). قال أفراهاط (١٧/٣): «ما هو لك لا تخسره لئلاّ تتعب في البحث عنه ولا تجده. وإن وجدت ما هو لك فلا يكون هو ذاته... أنت أحببت الخطّ الأعلى، فابتعد عن كلّ انحطاط وكن قويًّا بسلاحك». علينا أيضًا أن نهب نفوسنا على مثال المسيح الذي وهب نفسه بحرّيّة تامّة (١/٨; ٢/٦، ١٧...).

الإنسان نفس حيّة (٦/١٤; رج تك ٢: ٧; ١ كور ١٥: ٤٥). فهو حياة وحركة وحرّيّة وحوار. فالنفس الحيّة تفرض تمييزاً للخير وإمكانيّة سقوط في الخطيئة، تفرض إمكانيّة معرفة الله وحفظ وصاياه والاختيار بين الخير والشرّ، تفرض علينا أن نكون «آلهة» فنشارك النسمة الخلاّقة حياتها.

نفصل كلّ كلمة عن المجموع الذي هو الإنسان، ولا نستطيع أن نتأمّل النفس مثلاً بمعزل عن القلب والروح. فالإنسان ليس بآلة مكوّنة من قطع متعدّدة. فالآلة لا تموت ولا تعرف رباط القرابة وعمق الرموز وغنى المعاني. أمّا الإنسان فقد قال عنه الحكيم: «يَسيرُ جسدُه المنظور على الأرض، لكن كلّ أفكاره موضوعة قرب الله» (٤/٩). هذه الكلمات تملأ المدى الواقع بين السماء والأرض، وزمن حياتها يملأه زمن الكون وأزليّة الله.

سنتوقّف على هذه الكلمات فنكتشف وجهاتها وعلاقاتها بعضها ببعض.

أ ـ آدم والإنسان

عندما يتحدّث أفراهاط عن الإنسان فهو لا يعتبره كائنًا معزولاً نبت فجأة وصنع نفسه بنفسه. فالله لم يصنع أشياء عديدة من الطين ونفخ في كلّ شيء من روحه فكان إنسان قرب إنسان. لا، بل إنّ الله اكتفى بشيء واحد: جبل آدم، ثمّ صنع من الضلع التي أخذها منه حوّاء ابنته وزوجته وشبيهته (١٨/٨ ـ ٩).

ثمّ انتقلت الحياة من جيل إلى جيل بموجات متلاحقة تنطلق من ينبوع واحد. هذه الملاحظة مهمّة وهي تساعدنا على فهم سرّ الخلاص. فالإنسان يحمل اسم الذي ولده وطَبعه وضُعفه. وهو يرثه. وهكذا، فلعنة آدم انتقلت إلى كلّ نسله (٢٣/٣). ونقول كذلك إنّ البركة انتقلت من الأباء إلى البنين بفضل الصدّيقين الذين هيأهم الله لينجو نسل آدم من الفساد. هذا هو كلّ موضوع المقالة الثالثة والعشرين التي تتحدّث عن خصلة العنب التي تحفظ العنقود كلّه، فهي كالصدّيقين الذين هم خميرة العالم وملحه.

ب ـ النفس

النفس هي هدف عمل الإنسان، وهي مرآة ينعكس فيها. بها يُزهر ويتحرّك ويعمل. فيها يمتزج العقل والحرّيّة والمسؤوليّة في حوار داخليّ. أمّا الموت فسكوت وجمود. يبقى الكائن ولكنّه خسر المدى الذي فيه. حُجز في عزلة فلم يعد يقدر أن يتّصل بالآخرين (٤/٢٢). توقّف حوار الإنسان مع نفسه فلم يعد له معرفة ولا تمييز لأنّه خسر المدى الذي تتفجّر منه الحواس.

غير أنّ هذه الإمكانيّة التي تساعدنا على الحوار الداخليّ والعمل الذي يعكس الذات، يمكن أن تكون أيضًا مسافة الانفصال والتمزّق. وهذا هو خطر الوجود البشريّ: عليّ أن أختار (٢٠/٧)، أن أحارب نفسي لئلاّ أعود إلى الحالة السابقة (٢٥/٧). عليّ أن أحفظ نفسي من كلّ وصمة ولا أعود إلى الأعمال السابقة (١/٦)، أحفظها من الشرّير (٨/٦). قال أفراهاط (١٧/٣): «ما هو لك لا تخسره لئلاّ تتعب في البحث عنه ولا تجده. وإن وجدت ما هو لك فلا يكون هو ذاته... أنت أحببت الخطّ الأعلى، فابتعد عن كلّ انحطاط وكن قويًّا بسلاحك». علينا أيضًا أن نهب نفوسنا على مثال المسيح الذي وهب نفسه بحرّيّة تامّة (١/٨; ٢/٦، ١٧...).

الإنسان نفس حيّة (٦/١٤; رج تك ٢: ٧; ١ كور ١٥: ٤٥). فهو حياة وحركة وحرّيّة وحوار. فالنفس الحيّة تفرض تمييزاً للخير وإمكانيّة سقوط في الخطيئة، تفرض إمكانيّة معرفة الله وحفظ وصاياه والاختيار بين الخير والشرّ، تفرض علينا أن نكون «آلهة» فنشارك النسمة الخلاّقة حياتها.

ج - الروح

إنّ النسمة التي نفخها الله في آدم هي روح الله (٧/١٧) وليست نسمة عابرة. ونلاحظ أنّ أفراهاط يستعمل فعل «نفخ» (تك ٢ : ٧) ولكنّه لا يورد الآية بكاملها، فلا يستعمل كلمة «نشمتو»، بل كلمة «روحو» الروح فيقول: «نفخت فينا من روح حياتك» (٥٨/٢٣). والروح الذي في الإنسان هو مشاركة في روح الله (١٧ : ٦، ٧).

ويعود أفراهاط إلى نصّ حزقيال (٣٧: ١ - ١٠): حين تتكوّن الأجساد، يدعو النبيّ الروح فيدخل في الموتى فيحيَون (١٢/٨). وينفخ يسوع في وجه تلاميذه (١٤/٢١) فينتقل إليهم روحه كخلق جديد. ونحن أيضًا نشارك المسيح فنصير رائحته الطيّبة وعطره الذي ينتشر على كلّ الذين حولنا (١/٦). وهكذا تنتشر الحياة من الله مرجعها وتسمّى روحًا حين تُرسَل.

د - الجسد

منذ البداية، يحارب الشيطان أبناء آدم. كلّهم جُرحوا ولم يسلم إلاّ المسيح (١/٧). يتحدّث أفراهاط عن الخطايا، ولكنّه يقول إنّ الجراح هي جراح الجسد (٢/٦). فإن لم نعتنِ بالجسد، اهترأ وأنتن. ثمّ يموت في العار ويأكله الدود (٣/٧ - ٥، ٦/٢٣). يكفي أن يصاب عضو، العين مثلاً، ليتشوّه الجسد كلّه ويخسر جماله وقوّته على التحرّك (٢٦/١٤). أمّا الموت الذي عرفناه سكوتًا وجمودًا في معرض حديثنا عن النفس، فيصبح للإنسان سقوطًا في الأرض على مثال الخطيئة (٢/٨). ينهار الجسد الواقع وتسلّم صورته إلى الدمار والفساد. يتفكّك الكائن المجبول فيعود إلى التراب ولا يميَّز عن التراب (٧/٢٢) فلا يبقى منه شيء في القبر.

ولكن ما معنى هذه المقابلة بين الانحطاط الجسديّ والهلاك؟ هل هناك رباط ضروريّ بين الجسد والخطيئة؟ كلاّ. ولكنّ أفراهاط يشدِّد على أنّ التركيب الغنيّ يمكنه أن يتفكّك. وعندما نكون أمام الكثرة، فنحن أمام كائن سريع العطب. هذه هي حالة آدم الأرضيّ. سمع صوت الحيّة فصار عدوّ الكلمة الخلاّقة والبركة المُحيية، وحصل على اللعنة المميتة وعاد إلى ما كان عليه، ترابًا تأكله الحيّة. فإذا أراد الإنسان أن يتجنّب التفتُّت وخسران الذات، فهو مدعو إلى السهر على جسد المسيح، وإلى أن يحفظ جسده في النقاوة والكمال (١/٦، ١٤).

إذا كان الجسد يتفكّك، فهذا يعني أنّه متماسك. فنحن لا نسمّي جسدًا بقايا انحلال إنسان أو حيوان ولا كمّيّة من التراب. لا شكّ أنّنا نتحدّث عن جسد المائت، ولكن هذا المائت لم يصل إليه الانحلال بعد ولم يزل شكلاً محدّدًا. الجسد مجموعة أعضاء، والجسد هو الإنسان كلّه إذا نظرنا إليه من جهة نشاطه المتعب. ونتكلّم أيضًا عن جسد المسيح في حقيقته البشريّة وسرّه الإفخارستيّ وفي كنيسته التي تجمعنا في الإيمان.

هـ ـ الجسم البشريّ أو اللحم

إذا نظرنا إلى الجسد من وجهة التعب والألم والموت، نجد الجسم البشريّ. هذا الجسم يتحمّل الألم والاضطهاد، وهو ملموس كاللحم الذي يأكله الإنسان والحيوان (٦/٢، ٧; ١/٣; ٩/٤...). بعد هذا يستطيع الحكيم الفارسيّ أن يتحدّث عن الأفكار البشريّة التي هي ثقيلة وأرضيّة وغريبة عن الحكمة السماويّة (٥/٨; ٣٤/١٤). فالذي هو بشريّ يحمل ثمار الموت. والجسم البشريّ يرتبط بالولادة والقرابة، وهو يدلّ على النسل البشري المولود ضعيفًا. فيسوع هو ابن داود بحسب الجسم البشري (١٦/٢١).

وحين نتكلّم عن البشر، نتكلّم عن عالم الضعف والخطيئة. غير أنّه من الممكن أن نلبس الجسم البشريّ ونعمل أعمال الروح. والروح يجتمع ببشريّتنا فتصبح موضع إقامته وترتفع حتّى تشاهد الله (٦/١٢؛ ١٦/٧؛ ٢٢/٢٦).

و ـ القلب

الجسد يدلّ على مدى الإنسان الخارجيّ. أمّا عمقه فيسمّى القلب[١]. نحن هنا في العالم الثمين والخفيّ الذي نمنعه عن نظر الآخرين ونحفظه باهتمام. فالقلب هو الداخل والأعماق والخفيّ والخدر والأحشاء والضمير والكنز. هو المكان المسيَّج حيث يتّخذ الإنسان قراره. بهذا المعنى نقول إنّ الأفكار تتحرّك في القلب وتصعد منه أو تُحفظ فيه بالذاكرة. الحبّ والفرح يغليان في القلب، كما لو كانت النار تحتهما. وكما يستطيع الإنسان أن يتكلّم مع نفسه، فهو يستطيع أن يتكلّم مع قلبه. وإذا ارتبط الجسد والنفس بالولادة، فالقلب هو الرحم الذي توضع فيه الحبّة فيحبل بها ويلدها. هذا ما نقرأه في المقطع الرابع من المقالة الثانية: «حين قيلت هذه الكلمة لإبراهيم: سيكون لك ابن، فبإيمانه تكوّن هذا الابن في قلب إبراهيم كما كُتب: آمن إبراهيم بالله فحُسب له ذلك برًّا». حبل إبراهيم في قلبه بكلمة الله التي قبلها بأذنيه فولدها من حقويه.

ولكن لكي يستطيع القلب أن يثمر، يجب أن يشذَّب، أن يُختَن، وهذا عمل الإيمان المحيي والكلمة التي هي سَيف بحدَّين تقطع القلب عن الأعمال السيّئة وتورثه مع إبراهيم (١١/٥، ٦، ١٢: ٩). فالقلب

---

(٢) يستعمل أفراهاط كلمة قلب «ليبو» ١٦١ مرّة، وكلمة الجسم البشريّ «بسرو» ٦١ مرّة، وكلمة جسد «فغرو» ١٣٠ مرّة، وكلمة «روح» «روحو» ٢٤٦ مرّة، وكلمة نفس «نفشو» ٢٠٧ مرّات.

يمثّل مركز الكائن الحيويّ وعدّة نشاطه والموضع الذي يتقرّر فيه خلاصه.

الله لا يرذل القلبَ التائب، قلب الذي يخافه ويحفظ وصاياه (٤/٥ ; ٤٠/١٤). مثل هذا القلب يرفعه الله ولكنّه يَضَعُ قلب المترفّع (٤/٥، ٩، ١٦). الله يسبر أعماق الإنسان ومن اختصاصه أن ينظر إلى القلب لا إلى الوجه (٢٩/١٤). وحين يكون الإنسان قريبًا من الله، يعطي قلبه رؤية الله. يجتذب الله قلبه كما فعل بإيليّا فصيّره كملائكة السماء (٥/٦) أو يحضر فيه فيصبح موضع الصلاة والهيكل الذي يقيم فيه الله (٣/١ ـ ٤ ; ٩/٩). وحين تتصاغر العظمة الإلٰهيّة، تحوّل قلب الإنسان إلى قدس أقداس، إلى قلب السماء ومخزن كلّ كنوز الحكمة. هذه الحالة من الكمال التي يرغب فيها الإنسان يسمّيها الحكيم الفارسيّ نقاوة القلب (٢/٣ ; ١/٤، ٢).

ولكن ليست الحال دومًا على هذا الشكل. فالقلب يُجتذب ويَبتعد عن الله ويميل عنه. (٣/١٦ ; ١٢/١٠). ويذكر أفراهاط أنّ النساء ملن بقلب سليمان فترك عبادة الله وتعلّق بالأصنام (٣/٦ ; ١٨/٩). والقلب يستطيع أن يُنتج أفكارًا شرّيرة (١٧/٦ ; ١١/٩)، بل أن يفرز الكذب والغشّ والخصام، وهذه أعظم الخطايا عند أفراهاط (١٢/١٤). ويمكن أن تكون المسافة بعيدة بين الشفاه والقلب، والشفاه تعبّر عمّا في القلب وتلد ما يحبل به القلب (٢٠/٢ ; ٤/٩، ١١). فالخبث والرياء والتخفّي تدخل في القلب وتفسد الكلمة المستقيمة (٨/٧).

ويأتينا أفراهاط بما يستطيع أن يُخرج القلب من شرّ (٣٧/١٤): «ها قد انتشر وسط شعبنا أناس مقهورون أشرار، منافسون ودنيئون، شتّامون وثمّامون، حسودون وغيّورون، فاسدون ومحبّو الطمع، يفرحون بالدمار ويرضون بالفخاخ، يُبغضون الحقّ ويطردون التقوى، سالبون وجائرون، دجّالون ومحتقرون لرفاقهم، ثابتون في الزيف ومتستّرون

بالشرّ، يهزأون بالأخيار ويجمعون الأرباح، يحتقرون الأبرار ويحبّون المنازعات، يُقلقون المعلّمين ويدفعونهم إلى المخاصمات، يجبلون بالإثم ويلدون الزور، يشوّهون الكلام ويبتعدون عن التأديب، مملوءون غضبًا ومعاندون في ضميرهم. يثبّتون نزواتهم ويبغضون المساكين، مفتخرون ومتزمّتون، سارقون وظالمون، ممالقون وثرثارون، طمّاعون ونجسون، يغوون ويقودون إلى الهلاك، سكّيرون وشرهون، ماكرون وكذّابون، يخفون الجسد ويحبّون الفساد والشرّير، هم سبب الحسد ومسبّبو الخصومات، مملوءون من الغشّ وفارغون من الصلاح، يُقرضون الفضّة بالربى ويبيعونها مع الفائدة، عمّال أشرار وأجراء كسالى».

٣ ـ رقاد النفس

هذا الموضوع اهتمّ به أفراهاط في إطار حديثه عن الموت والأزمنة الأخيرة ولمح إليه في المقالة عن بعث الموتى.

أ ـ النفس في القبر

لكي نفهم هذا الموضوع، نستعيد العلاقة القائمة بين الخلق والقيامة. فالخلق والقيامة هما تعبير لسرّ واحد، لأنّ آدم عينه هو الذي ينهض في البداية ويقوم في النهاية. ولكن ما يميّز القيامة بالنسبة إلى الخلق هو ذكر الزرع. فالله خلق في البدء من لا شيء، أمّا في القيامة فهو يقيم زرعًا هو نتاج الخلق. تأتينا الصورة من ١ كور ١٥: ٣٥، حيث يشبّه الجسد الساقط في الأرض بحبّة ستنهض في الساعة المحدّدة وتخرج إلى الضوء (٥/٨). ولكن أفراهاط يسير على خطى بولس الرسول فلا يهتمّ بنموّ النبتة، بل بالرسم الخفيّ ـ الظاهر. إنّ الشيء الظاهر هو ذاته الذي كان خفيًا، ولهذا يُذهلنا ظهوره. ويستعمل أفراهاط كلمة طمر (٣٧ مرّة) ليدلّ على هذه الحبّة التي تُدفن فتختفي. ولكن فعل طمر أوسع من ذلك عند الحكيم

الفارسيّ. فعندما ينفتح الله على الإنسان، يَطْمُر فيه شيئًا من روحه. وعندما جاء يسوع، طمر فينا الملح ليمنع الفساد (٢٣/٤٩) اللاحق بالجسد بسبب لعنة الخطيئة. والربّ يطمر البركة خاصّة (٢٣/١، ١٣) والعهد الذي هو وعد المسيح، آدم الحقيقيّ، والابن الحاضر في أجداده (٢٣/١٥) ليخلّص النسل كلّه. فكما أنّ الله حبل في البدء بالإنسان في فكره، حبل الإنسان في ذاته بآدم الحقيقيّ الذي ينكشف في القيامة. نلاحظ هنا أهمّيّة الأجيال والأنساب، فهي تحمل عبر الزمن البركة التي تزهر في النهاية فجأة عندما يظهر جسد المسيح الكامل والكلّيّ.

بفضل هذا الزرع، لم تكن اللعنة نهائيّة ولا التفكّك نهائيًّا. فموت الأبرار هو رقاد فحسب. والجسد، وإن انحلّ كلّه في الظاهر، إلاّ أنّه يُخفي في ذاته إمكانيّة جمع ونهوض يحفظ هويّة يسمّيها أفراهاط النفس، ويقول فيها إنّها مطمورة مع الجسد (٦/١٤). وما نسمّيه رقاد النفس هو حالة الإنسان كلّه، لا حالة جزء أو وجه منه. ينتظر الإنسان ساعة النهوض ودخول الكائن القائم، أي المسيح الروح، في كيانه. عند الموت يتوقّف ضجيج الحواس والأفكار ويفقد الإنسان معرفة الخير والشرّ، لأنّ النفس تنسى كلّ شيء (٨/٢٠). ولكن كلمة البدايات من وعد وعهد وقيامة لا تبقى من دون مفعول (٨/١٥). والجسد الذي نُفخ فيه الروح القدس يحفظ، وإن مشتّتًا، إمكانيّة وحدة جديدة فيصبح زرعًا. فالتراب حبّة، وفي آدم الأرضيّ والمطمور، نجد قوّة نهوض هي النفس التي لا تنام إلاّ زمنًا يسيرًا.

ولنسمع ما يقول أفراهاط في هذا الرقاد (٨/١٩): «الشرّير لا يستعذب نومه لأنّه يفكّر بمجيء الصباح، فينسحق قلبه في حلمه. وينام الأبرار، ولكن نومهم عذب في النهار والليل. لا يحسّون بكلّ الليل الطويل فيحسبونه في عيونهم ساعة واحدة. ومنذ الساعة الأولى

من الصباح، ينهضون فرحين. أمّا الأشرار فالنوم ثقيل عليهم، وهم يشبهون رجلاً مصابًا بحمّى ثقيلة جدًّا. يتقلّب الشرّير هنا وهناك في فراشه ويحيط الرعب بلَيله الذي يطول عليه، فيخاف من الصباح الذي فيه يعاقبه سيّده».

ب ـ رقاد الروح النفسيّ

نعود هنا إلى عبارة ترد أربع مرّات عند أفراهاط في إطار الرقاد: الروح النفسيّ الذي يقابل الروح السماويّ (٦/٤، ١٨). هذا الروح النفسيّ مطمور مع الجسد ومحروم من الحسّ حين يموت الإنسان. من أين تأتي هذه العبارة؟ لم نعثر عليها في النصوص السريانيّة، ولكي نفهمها، نعود إلى الكتاب المقدّس. فالقدّيس بولس يقول: يُدفن جسد نفسانيّ (حيوانيّ) فيقوم جسد روحانيّ (١ كور ١٥: ٤٤). وهذا يعني أنّ النفس مرتبطة بالجسد حتّى في الموت، وأنّ القيامة هي استعادة هذا الجسد الذي يحييه فيسمّى سماويًّا (أي روحيًّا)، وهذا ما يقابل المعموديّة التي هي نموذج القيامة.

الجسد النفسيّ المطمور هو جسد آدم الأوّل الذي خلقه الله نفسًا حيّة (تك ٢: ٧)، أي إنّه نفخ فيه من الروح الذي هو خالد في ذاته. هذا الروح النفسيّ يعود إذًا إلى هاتَين الآيتَين الكتابيّتَين اللتَين ذكرنا، ويدلّ على الإنسان، تلك الخليقة الإلٰهيّة، التي تحتفظ حتّى في الخطيئة والموت بإمكانيّة حياة، ولو كانت هذه الحياة لا تستطيع أن تعبّر عن نفسها حين يتفكّك الجسد. ولكن ما هي وظيفة الرقاد؟

نلاحظ هنا بادئ ذي بدء أنّ الحكيم الفارسيّ لا يعرض لاهوتًا منظّمًا ولا يفرض، كعقيدة موحاة، بعض استنتاجات من الكتاب المقدّس. كلّ ما يريد هو أن يَفهم إيمانه واختباره، فيروي لتلميذه «قصّة» تُدهش السامع بتماسكها الرمزيّ وتُفرح القارئ، عندما تساعده على اكتشاف العلاقات بين اختبار الإنسان اليوميّ وبين خلق

الله وبين كلمة الكتاب المقدّس. فتعليم أفراهاط يُقنع[1] ويحثّ القارئ على أن ينتهج الطريق التي أخذها هو.

بعد هذه الملاحظة، نعود إلى رقاد النفس الذي يقوم بدور هامّ. فهو يملأ الفراغ بين الموت الفرديّ والقيامة الأخيرة. نحن مُجبرون أن نقول بعبارات زمنيّة ما يحدث خارج الزمن. فالإنسان، أكان آدم أمّ نسله، يرقد في الأرض إلى أن تتمّ ستّة آلاف سنيّ العالم. هو لا يُدرِك شيئًا، ولا يتألّم، ولا ينتظر. زمن فارغ يعيش فيه الإنسان. وهكذا لا يخسر الأوّلون ولا ينتفع اللاحقون. بهذا يتحدّث أفراهاط عن «تحرير» النفس أو الروح النفسيّ. ثمّ إنّ موضوع الرقاد يلتقي موضوع الحبل بآدم ستّة أيّام ويظهر كصدى لكلمات الكتاب المقدّس. فالعذارى العشر سهرن ثمّ رقدن. وحين كنّا راقدات، انفجرت صَيحة الختن، وهو لم يَلُمهنّ على رقادهنّ. كان عليهنّ أن يَنمن ليستيقظنّ ويدخلن إلى العرس.

وفي إطار الموت والزمن الأخير، نُنهي بفكرتَين لإفراهاط. الأولى تقول إنّه لا جزاء للإنسان قبل القيامة الأخيرة. والثانية تُميِّز بين السماء ومكان الأبرار قبل القيامة الأخيرة، لكنّها تصوّر هذا المكان بكلمات يقولها الكتاب عن السماء.

يقول أفرهاط في ٢٢/٨: «من كلّ هذا افهم، يا عزيزي، أنّه حتّى الآن لم يقبل أحد جزاءه. فلا الأبرار ورثوا الملكوت ولا الأشرار ذهبوا إلى العذاب. فالراعي لم يفصل بعد قطيعه. والعمّال تعبوا في الكرم، وإلى الآن لم ينالوا أجرهم. وعاد التجّار بالفضّة، وإلى الآن لم يأت سيّدهم ليأخذ الحساب. والملك ذهب ليأخذ ملكه، وإلى الآن لم

(١) يستعمل أفراهاط كلمة «فيوسو» (التي تدلّ على البرهان والإقناع) مع الأفعال المشتقّة منها ١٤٥ مرّة.

يأتي مرّة ثانية. وهؤلاء العذارى اللواتي ينتظرن الختن يرقدن حتّى الآن، وإلى الآن ينتظرن الصيحة ليستيقظن. والأوّلون الذين تعبوا في الإيمان لا يكمّلون إلى أن يأتي الآخرون».

ويصوِّر أفراهاط مكان الأبرار على هذه الصورة فيقول (١٢/٢٢): «في ذاك المكان ينسى الأبرار العالم. هناك ليس لهم فيه حاجة. يحبّون كلّ واحد بمحبّة فائضة، وليس في أجسادهم ثقل، فيطيرون سريعًا بخفّة الحمام إلى كواهم. هناك لا يتذكّرون الشرّ إطلاقًا في عقولهم ولا تخطر على بالهم نجاسة. لا رغبة طبيعيّة في ذاك المكان. هناك يُفطمون من كلّ الرغبات. لا يخطر على بالهم الغضب ولا الفسق، وكلّ ما يلد الخطايا يتعدّاهم. يفور فيهم حبّ بعضهم ولا يقبع فيهم البغض إطلاقًا. لا يحتاجون هناك إلى بيت يبنونه لأنّهم مقيمون في النور، في ديار القدّيسين. لا يحتاجون إلى لباس منسوج، لأنّهم يتجلببون بالنور الأبديّ. لا يحتاجون إلى طعام لأنّهم يجلسون إلى المائدة ويقتاتون منها إلى الأبد. الهواء هناك شهيّ بهيّ والنور يشعّ جميلاً فتّانًا. زُرعت هناك أشجار جميلة. ثمرها لا ينقطع وورقها لا يسقط. أغصانها وارفة ورائحتها عذبة وطعمها لا تملّ منه النفس إلى الأبد. واسع المكان وغير محدود، ويقدر سكّانه أن يروا ما هو بعيد وما هو قريب. هناك لا يُقسم الميراث ولا يقول أحد لرفيقه: هذا لي وهذا لك. لا يُؤسَرون بالرغبة الجامحة ولا تقع الذاكرة في ضلال. لا يحبّ الواحد رفيقه بخوف كثير، بل يحبّ بعضهم بعضًا باندفاع وبشكل واحد. لا يأخذون هناك نساء ولا يلدون أولادًا: هناك لا يميِّز الذكر عن الأنثى. بل يكونون كلّهم أبناء الآب السماويّ، كما قال النبيّ: أليس لنا كلّنا آب واحد، أو ليس إله واحد خلقنا»؟

ثمّ يقول أفراهاط: «في ذاك المكان ليس من أنثى، كما أنّه ليس من أنثى في السماء ولا إيلاد ولا استعمال الرغبة» (١٣/٢٢). إذًا يميّز

الحكيم بين ذاك المكان والسماء، وسيطرح على نفسه سؤالاً: أين يكون مكان سعادة الأبرار قبل القيامة؟ أفي السماء أمّ على الأرض؟ فيجيب مستندًا إلى قدرة الله الذي يفعل ما يريد. ولكنّه حين يتحدّث عن مكان راحة الأبرار، يصوّره لنا وكأنّه السماء عينها. ولنسمع ما يقول الحكيم الفارسيّ:

«هناك ما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولم يخطر على قلب بشر. شيء لا يستطيع أن نتكلّم عنه ولا يقدر الإنسان أن يقوله. قال الرسول: ما هيأه الله للذين يحبّونه. حين يُكثر البشر الكلام، لا يقدرون أن يقولوه. وما لم تره عين لا يستطيعون أن يخبروا عنه. وما لم تسمعه أذن، هل يشبه ما سمعته الأذن ورأته العين؟ ليس لهم أن يقولوه. وما لم يخطر على القلب، مَن يتجرّأ أن يتكلّم عنه؟ هل يشبه ما يخطر على القلب؟ بل يليق بالخطيب أن يستعمل التشابيه فيدعو هذا المكان: مسكن الله، ويوم الراحة، وراحة الصدّيقين، وعذوبة الأبرار، ومسكن الأبرار، وديار الصدّيقين، وموضع رجائنا، وبيت اتّكالنا القويّ، وموضع كنزنا، والمكان الذي يمحو تعبنا ويُزيل ضيقاتنا ويُطفىء نواحنا. يجب أن نعود إلى هذه التشابيه لنسمّي هذا المكان» (١٣/٢٢).

الخاتمة

إنتهت رحلتنا مع الحكيم الفارسيّ ونتمنّاها رحلة ناجحة. رافقناه فاكتشفنا تعليمه المسيحيّ والكتابيّ. أمّا أقواله فاتّسمت بالاتّزان والرصانة، ومضمونها مطعم بالمحبّة، محبّة الله لنا التي نتأمّل فيها، ومحبّتنا لله وللقريب التي هي امتداد لمحبّة الله. أمّا روحانيّته فهي روحانيّة التفاؤل والبساطة والفرح، وهي بعيدة كلّ البعد عن البكّائيين السريان، عن هؤلاء الأبيليّين كما تسمّيهم النصوص

العربيّة، الذين لم يتركوا يومًا يمرّ دون أن يبكوا فيه، والذين لم يقرّب الضحكُ يومًا إلى شفاههم. أفراهاط بعيد عن مثل هؤلاء الرهبان، وهو الذي قال «المتواضع يضحك وشفتاه تضحكان». فالله إله الفرح، لا إله الحزن، إله نستلقي بين يديه كالطفل في حضن أمّه. فالله إله السلام، نعيشه بالإيمان الذي تنعشه المحبّة. هذا هو هدف تعليم أفراهاط، وهو الذي يدعو المسيحيّين أبناء السلام، لأنّهم أبناء الآب السماويّ وإخوة المسيح الملك.

مختارات

في الإيمان

المعلّم والتلميذ

١ ـ وصلتني رسالتُك يا عزيزي، وحين قرأتُها فرحتُ لأنّك سلّمتَ فكرك إلى هذه الأبحاث. وإليك جواب ذلك السؤال الذي طرحته عليّ: «مجّانًا أخذتم، مجّانًا أعطوا» (مت: ١٠: ٨). «ومَن له شيء وأراد أن يمنعه عمّن يطلبه، فهذا الشيء الذي يمنعه يؤخذ منه» (مت ٢٥: ٢٩). فمَن أخذ بطريقة مجّانيّة وجب عليه أن يُعطي بطريقة مجّانيّة. وأنت يا عزيزي سألتَني، وأنا أكتُب إليك بحسب ما أدركَتْه حقارتي. واسأل الله أيضًا أن يعطيني فـأُعْلمك مـا لم تسألني. فيـا عزيزي، إفتح لي عيون قلبك الداخليّة وحواسّ عقلك الـروحانيّـة واسمع ما أقول لك.

الإيمان بناء

٢ ـ يتكوّن الإيمان من أمور عديدة ويتزيّن بألوان كثيرة. وهو يشبه بنيانًا بُني بمواد متعدّدة، فارتفع إلى العلاء. واعلم، يا عزيزي، أنّ الحجارة توضع في أساس البنيان. وفوق الحجارة[1] يرتفع البناء كلّه حتّى يتمّ. هكذا نقول في إيماننا كلّه. أساسُه صخرٌ ثابت هـو سيّدنا يسوع المسيح، وبنيانه لا تزعزعه الأمواج ولا تؤذيه الرياح ولا

(١) لم يكن الصخر متوفّرًا. فكانوا يضعون الصخور في الأساس ثمّ يبنون الجدران باللبن.

تُسقطه العواصف، لأنّه ارتفع فوق صخر وحجر ثابت. وإن أنا سمّيت المسيح صخرًا، فهذه التسمية لم تأت من عندي. فالأنبياء سبقوا وأعلنوه صخرًا وها أنا أبيّن لك ذلك.

بناء كامل

٣ ـ والآن، فاسمع عن البناء الذي وُضع على الصخر وعن البناء الذي ارتفع فوقَ الصخر. فالإنسان يؤمن أوّلاً، وعندما يؤمن يحبّ، وعندما يُحبّ يرجو، وعندما يرجو يتبرّر، وعندما يتبرّر يصل إلى الكمال. وعندما يصل إلى الكمال يصير تامًّا. وبعد أن يرتفع البناء كلّه ويكتمل ويتمّ، يصبح الهيكل والبيت مسكنًا للمسيح كما قال إرميا النبيّ (٧: ٤ ـ ٥): «هيكل الربّ، هيكل الربّ. أنتم هيكل الربّ، إن أصلحتم طرقكم وأعمالكم». وقال الربّ أيضًا بواسطة نبيّه: «أسكن فيهم وأسير بينهم» (لا ٢٦: ١٢؛ ١ كور ٣: ١٦؛ ٢ كور ٦: ١٦). ولقد تكلّم الرسول الفاضل هكذا: «أنتم هيكل الله وروح المسيح يسكن فيكم» (١ كور ٣: ١٦؛ ٢ كور ٦: ١٦). وقال ربّنا لتلاميذه أيضًا: «أنتم تكونون فيّ وأنا أكون فيكم» (يو ١٤: ٢٠).

٤ ـ وبعد أن يصير البيت مسكنًا، يهتمّ الرجل بما يطلبه ذاك الساكن في البناء. فإن حلّ فيه ملك أو رجل شريف، سُمّي باسم الملك. حينئذ يُطلَب للملك كلّ ما يجب أن يُصنع للملك وكلّ خدمة تليق بمقام الملك. فالملك لا ينزل ولا يسكن في بيتٍ خالٍ من كلّ خير، بل يطلب أن يزيّن البيتُ فلا ينقصه شيء. وإنّ نقص شيء في بيتٍ نزل فيه الملك، يسلّم حارسُ ذلك البيت إلى الموت لأنّه لم يُتقن خدمةَ الملك. وهذه حالة الإنسان الذي صار بيتًا ومسكنًا للمسيح. فلينظر إلى ما يوافق خدمة المسيح الذي يحلّ فيه، وليرَ أيّة أمور تسرّه. يبدأ أوّلاً فيجعل بناءه على الصخر الذي هو المسيح. وعلى هذا

الصخر يُوضَع الإيمان، وعلى الإيمان يرتفع البُنيانُ كلُّه. ويُطلب صومٌ نقيّ ليصبح البيت عامرًا فيقوم الصوم بالإيمان، وتُطلب صلاة نقيّة فتُقبل الصلاة بالإيمان. ويلزمه حبّ فيتركّب الحبّ بالإيمان (أف ٤: ١٦)، ويحتاج إلى الصدقة فتعطى له بالإيمان، ويسأل التواضع فيتزيّن التواضع بالإيمان، ويختار له البتوليّة فتصبح محبَّبةً بالإيمان، ويتعلّق بالقداسة[٢] فتنتصب بالإيمان، ويرنو إلى الحكمة فيجدها بالإيمان. ويطلب له أيضًا فضيلة الضيافة فتكثر له بالإيمان، ويطلبُ البساطة فتمتزج بالايمان، ويطلب الصبر فيكتمل بالإيمان، ويتأمّل في الحلم فيقتنيه بالإيمان. ويُحبّ النسكَ فيراه بالإيمان، ويطلب الطهارة فيحافظ عليها بالإيمان. كلّ هذه الأمور يطلبها الإيمان الراكز على الصخر الحقيقيّ الذي هو المسيح. وهذه الأعمال تليق بالملك المسيح الذي يسكن في بني البشر المبنيِّين بهذه الأعمال.

عجائب الإيمان

١٨ ـ فلنقترب، يا عزيزي، من الإيمان لأنّ عجائبه كثيرة. الإيمانُ أصعدَ إلى السماء، وسيطر على الأمواج، وأولد العاقر، ونّجى من السيف. وأصعد من الجبّ، وأغنى الفقراء، وحلّ الأسرى وخلّص المضطّهدين، وأطفأ النار، وشقّ البحر، وزعزع الصخر، وأسقى المياه للعطاش، وأشبع الجياع، وأحيا الموتى. وأصعد من الجحيم، وأسكت الأمواج، وشفى المرضى، وقهر الجيوش، وهدّم الأسوار، وسدّ أفواه الأسود، وأخمد لهيبَ النار، وحطّ المتكبّرين، وأوصل المتواضعين إلى المجد (عب ١١؛ ٣٣ ي). كلّ هذه المعجزات تتمّ بواسطة الإيمان.

١٩ ـ هذا هو الإيمان. يؤمن الإنسانُ بإلهٍ سيّد الكلّ. خَلق

---

(٢) أي بالعفّة.

السماء والأرض والبحار وكلّ ما فيها. صنع الإنسان على صورته، ووهب الشريعة لموسى، وأرسل روحه في الأنبياء، وأرسل مسيحه أيضًا إلى العالم لكي يؤمن الإنسان بقيامة الموتى، ويؤمن أيضًا بسرّ المعموديّة. هذا هو إيمان كنيسة الله. وهكذا ينجو الإنسان من حفظ الساعات والسبوت والشهور والأوقات (رج كو ٢: ١٦) والقدر والفال والعرّافة والرقيّة، ويمتنع عن الزنى وأمور الجسد والتعاليم الفارغة التي هي أداة بيد الشيطان، ومن الانخداع بالكلام المعسول (رج روم ١٦: ١٨). هذه هي أعمال الإيمان الموضوع على المسيح صخر الحقّ الذي يرتفع عليه كلّ البنيان.

٢٠ ـ وفي الكتب المقدّسة أمور كثيرة عن الإيمان، يا عزيزي. وهذا قليل من كثير كتبته وسلّمته إلى محبّتك لتعرف وتعلم وتؤمن وتكون سبب إيمان. وحين تقرأ وتتعلّم أعمال الإيمان، تشبه هذه الأرض المفلوحة التي نزل عليها الزرع الجيّد فأعطت ثمارًا، الواحد مئة وستّين وثلاثين. وعندما تذهب إلى ربّك يدعوك عبدًا صالحًا ومجتهدًا وأمينًا دخل بسبب إيمانه الكبير إلى ملكوت ربّه (مت ٢٥ ـ ٢١، ٢٣؛ لو ١٩: ١٧).

المقالة الثالثة

في الصوم

كيف نصوم؟

١ ـ ثمين هو الصوم الطاهر أمام الله، وهو محفوظ مثل كنز في السماء. هو سلاح أمام الشرّير وترس نقابل به سهام العدوّ. لا أقول هذا من عندي، بل من الكتب المقدّسة التي بيّنت مسبقًا أنَّ الصوم الدائم يساعد الذين يعومون بالحقّ. فالصوم، يا عزيزي، لا يكون فقط بالامتناع عن الخبز والماء. فالطرق عديدة لممارسة الصوم. هناك مَن يصوم عن الخبز والماء حتّى يجوع ويعطش، وهناك مَن يصوم ليبقى في البتوليّة فيجوع ولا يأكل، ويعطش ولا يشرب. هذا الصوم هو أفضل الأصوام. وهناك مَن يصوم عن اللحم والخمر وبعض المأكولات، وهناك مَن يصوم ليجعل لفمه سياجًا فلا يتفوّه بكلمات سيِّئة. وهناك مَن يصوم عن الغضب ويمسك رغبته لئلاّ تقهره. وهناك مَن يصوم عن المقتنيات ليجرّد نفسه من عبوديّتها. وهناك مَن يصوم عن الفراش فلا ينام ليكون يقظًا في الصلاة. وهناك مَن يصوم في الضيق الحاضر عن تجارة هذا العالم لئلاّ يغلبه العدوّ. وهناك مَن يصوم ليصير تائبًا فيُرضي ربَّه بكآبته. وهناك مَن يجمع كلّ هذا ويجعل منه صومًا واحدًا. يصوم الإنسان عن الطعام حتّى يجوع، وحين يصوم عن المأكل والمشرب يُدعى صائمًا، وإن أكل أو شرب قليلاً ينحلّ صومه. هكذا الإنسان الذي يصوم عن كلّ هذا، فإن أجاز لنفسه واحدة منها في وقت من الأوقات لا يُحسب له صومه. فالذي أجاز لنفسه واحدة من هذه كلّها لا يُحسَب صومه أكثر من الذي أكل أو

شرب بشراهة. ومَن حصل له فانحلٌ صومه بسبب الجوع لا يخطأ كثيرًا. أمّا مَن نذر على نفسه أن يمتنع عن هذه كلّها وأخذ يحلّل لنفسه الواحدة بعد الأخرى، فخطيئته كبيرة لا صغيرة.

في العهد القديم

٢ ـ فاسمع، يا عزيزي، مقالة في الصوم النقيّ. كان هابيل أوّل مَن دلّ بقربانه على الصوم النقيّ، وأحنوخ حين أحسن بعمله أمام الله، ونوح الذي حافظ على الكمال وسط جيل فاسد، وإبراهيم الذي كان فاضلاً بإيمانه، وإسحٰق من أجل عهد إبراهيم، ويعقوب من أجل حلَف إسحٰق لأنّه عرف الله، ويوسف من أجل رحمته وتدبيره. هؤلاء كلّهم، كانت نقاوتُهم صومًا أمام الربّ. فإنّ نقص نقاء القلب لا يُقبَل الصوم. وتذكّر وانظر، يا عزيزي، أنّه من الأفضل على الإنسان أن ينقّي قلبه ويحفظ لسانه ويَمنَع يديه عن الشرّ على مثال الذين كتبت إليك عنهم أعلاه. لا يليق بالإنسان أن يمزج العسل بالعلقم. فإن صام إنسانٌ عن الخبز والماء، فلا يمزج في صومه التجديفَ واللعنات. واحد هو بابُ بيتك الذي هو هيكل الله، ولا يليق بك، أيّها الإنسان، أن تُخرج الزبلَ والوحلَ في باب يدخل فيه الملك. حين يصوم الإنسان عن القبائح ويتناول جسد المسيح ودمَه، ينتبه إلى ابن الملك الذي دخل في فمه. فلا يحقّ لك، أيّها الإنسان، أن تخرج من فمك كلمات نجسة. إسمع ما يقول معيّنا: «ما يدخل الإنسان لا ينجسّه، لكن ما يخرج من فمه ينجسّه» (مت ١٥ : ١١).

٣ ـ صام موسى صومًا نقيًّا حين صعد الجبل وجاء بالوصايا لشعبه، وتقوّى بصومه الذي دام مرّتَين أربعين يومًا (خر ٢٤ : ١٨؛ ٣٤ : ٢٨)، وقبل الثناء العاطر، حين شعّ أديم وجهه وأبعد الغضب عن شعبه الذي لم يُمحَ من الوجود (خر ٣٢ : ١١؛ ٣٤؛ ٩). وعلى مثال موسى، صام إيليّا الرجل القويّ حين اضطهدته إيزابيل. وبعد

أن صام أربعين يومًا وصل إلى حوريب (١ مل ١٩ : ٨). هناك تكلّم معه الربّ كما تكلّم مع موسى، وتجلّى له وأمرَه فقال له: «إذهب فامسح بالزيت ياهو ابن نمشي وحزائيل ليُعاقبا بني إسرائيل، وامسح بالزيت أليشاع بن شافاط ليحلّ مكانك» (١ مل ١٩ : ١٥ - ١٦). وفرح إيليّا حين تجلّى له ربّه في صومه النقيّ كما فرح موسى حين صام مرّتين أربعين يومًا فأبعد غضب الله عن شعبه وأنزل لوحَيْ العهد المكتوبين بإصبع الله. هذان البارّان افتخرا بصومهما وبه كملا.

المقالة الرابعة

في الصلاة

الصلاة والغفران

١٣ ـ لقد نبّهتك سابقًا. حين تصلّي، إرفع قلبَك إلى العلاء واخفض عينيك وادخُل إلى إنسانك الباطنيّ وصلّ في الخفية إلى أبيك السماويّ. وكتبتُ إليك كلّ شيء عن الصلاة: حين تكون نقيةً تُسمع، وحيث لا تكون نقيّة لا تُسمع. هناك أناس بيننا يُكثرون الصلوات ويطيلون التوسّل ويبسطون أيديهم، إلاّ أنّ أعمال الصلاة بعيدة عنهم. يتلفّظون بصلاة مخلّصنا الذي علم: «إغفر لنا ذنوبنا كما نحن نغفر لمن أذنب إلينا» (مت ٦: ١٢). فأنت حين تصلّي تقدّم لله قربانًا. أفلا يخجل مقدّم الصلوات بقربان فيه عيب؟ أنت تصلّي ليُغفَر لك وتعد أنّك ستغفِر. فكّر في ضميرك أوّلاً إن كنت تقدر أن تغفر، ثمّ عِدْ بإن تغفر. لا تكذب على الله وتقول: أنا غفرت، وأنت ما غفرت. الله ليس إنسان مثلك فتكذب عليه (عد ٢٣: ١٩). وعندما يخطأ إنسان إلى إنسان، يطلب المغفرة من الربّ. ولكن عندما يخطأ إنسان إلى الله فمِمَّن يطلب المغفرة؟ لا تحكم على نفسك بصلاتك. إسمع أيضًا ما يقولُ ربّنا: «حين تقدّم قربانًا وتتذكّر أنّك تحتفظ بغضب على أخيك، فاترك قربانك أمام المذبح واذهب فصالح أخاك، وحينئذ تعالَ وقدِّم قربانك» (مت ٥: ٢٣ ـ ٢٣). فلا تصلِّ وأنت تتذكّر أنّك تحتفظ بغضب. فكّر في ضميرك أنّ صلاتك تبقى أمام المذبح ولا يريد مقدّم الصلوات أن يرفعها عن الأرض لأنّه ربّما يجد علّة في قربانك. فإن كان نقيًّا أصعده إلى الله. وإن وجد في صلاتك،

إغفر لي وأنا أغفر، فيُجيب مقدّم الصلوات إلى ذلك الذي يصلّي: أترك مئة دينار وأنتي فقير، فيترك لك الربّ دينك، عشرة آلاف وزنة، بحسب عظمته، ولا يحسب معك الفائدة والربى. وإن أردت أن تغفر، حمِّل مقدّم الصلوات قربانك وأصعده معه. وإن كنت لا تغفر، فيقول لك: أنا لا أقدّم أمام العرش المقدّس قربانًا نجسًا. أنت تأتي لتعطي حسابًا لمدينك وتحمل معك قربانك، فتترك قربانك وتذهب. فاسمع ما يقول النبيّ: «ملعون مَن له في قطيعه ذَكَرٌ صالح فينذره، ثمّ يذبح المريض للربّ» (ملا ١ : ١٤). وقال: «قدّمه للحاكم، فهل يرضى عنك، وهل تجرؤ أن تواجهه»؟ (ملا ١ : ٨)، يجب عليك إذًا أن تغفر لِمن أذنب إليك قبل أن تصلّي، وبعد هذا تصلّي. وحين تصلّي ترتفع صلاتك أمام الله في العلاء ولا تبقى على الأرض.

الصلاة والإحسان

١٤ ـ قال الربّ بالنبيّ: «هذه هي راحتي، أرح المتعبين» (أش ٢٨ : ١٢). فاصنع أعمالاً تريح الله، أيّها الإنسان، فلا تحتاج أن تقول: إغفر لي. أرح المرهَقين، زُر المرضى، أطعم الفقراء، هذه هي الصلاة. وأبيّن لك، يا عزيزي، أنّه كلّما عمل إنسان أعمالاً تريح الله، كانت أعماله صلاة. وهذا ما كتب: حين زنى زمري مع إحدى المديانيّات، رآه فنحاس بن أليعازر فدخل إلى المخدع وقتل الاثنين، فحُسب قتلُه لهما صلاة. وهذا ما قال فيه داود: «قام فنحاس وصلّى فَحُسِبَتْ صلاته له برًّا للأجيال وإلى الأبد» (مز ١٠٦ : ٣٠ ـ ٣١). وبالقتيلَين اللذَين قتلهما من أجل ربّه، حُسب له عمله صلاة. واحذر، يا عزيزي، إن حصل لك أن تفعل ما يرضي الله، أن تقول: جاء وقت الصلاة، أصلّي وبعدها أعمل. وحين تظلّ تطلب، حين تنتهي صلاتك، يُفلت منك العمل الذي يريح الله وتعجز عن العمل بإرادة

الله وراحته وتكسب بصلاتك خطيئة. ألاَ فاعمل ما يريح الله، وهذه لعمري هي الصلاة.

١٥ ـ فاسمع الكلمة التي قالها الرسول: «إن كنّا لا نَدين أنفسنا فلا نُدان» (١ كور ١١ : ٣١). أحكم بنفسك على الأشياء التي أقولها لك. إن حصل لك أن ذهبت في طريق بعيدة وأحسست بالعطش في أوان الحرّ فعرُّجت على أحد إخوتك وقلت له: أرحني من عذاب العطش. فيقول لك: الوقت وقت صلاة. أُصلّي، وبعدها آتي إليك. ولكنّك تموت عطشًا. ما رأيك، أيّه الأفضل؟ أن يذهب ويصلّي أمّ يريحك من عذابك؟ وإن ذهبت في الطريق في زمن الشتاء ونزل عليك المطر والثلج فتألّمت من البرد، وفي وقت الصلاة تعرّج على صديقك فيجيبك بمثل هذا الكلام وأنت تموت من البرد. فأيّ نفع من صلاة لا تريح المعذّبين؟ فربّنا بيّن لنا أنّه في وقت الدينونة سيميّز البشر ويُقيم قسمًا عن يمينه وقسمًا عن شماله. ويقول للذين عن يمينه: «جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني، كنت مريضًا فزرتموني وغريبًا فاستقبلتموني» (مت ٢٥ : ٣٥ ـ ٣٦). ويقول مثل هذا الكلام للذين عن شماله: بما أنّهم لم يصنعوا ذلك يُرسلون إلى العذاب ويُرسل أبناء اليمين إلى الملكوت.

أبناء العهد أو المتنسِّكون

الحثّ على التوبة: الخطوة الأولى.

١ ـ لائقة هي الكلمة التي قلتها وأهل للقبول: لنستيقظ من نومنا (روم ١٣: ١١) في هذا الزمان ونرفع قلوبنا مع أيدينا نحو إله السماء، لعلّ الربّ يأتي فجأة، وحين يأتي يجدنا متيقّظين (مت ٢٤: ٤٢). نترقّب ساعة الختن المجيد لندخل معه إلى خدره (مت ٢٥: ١٠). نهيِّئ الزيت لقناديلنا نخرج إلى لقائه بالفرح (مت ٢٥: ٤). نعدّ الزاد في مسكننا لطريق حرجة وضيّقة (مت ٧: ١٤). ونرمي ونترك عنّا كلّ نجاسة لنلبس ثياب العرس (مت ٢٢: ١٢). نُتاجر بالفضّة التي قبلناها لنُدعى عبيدًا مجتهدين (مت ٢٥: ٢١). نكون أمناء في الصلاة لنعبُرَ مكان الخوف. ننقّي قلوبَنا من الإثم لنرى العليّ في المجد. نكون رحماء كما كُتب (مت ٥: ٧؛ يو ٦: ٣٦) لكي يرحمنا الله. يكون السلامُ بيننا لنُدعى أبناءَ المسيح (مت ٥: ٩). نكون جياعًا إلى البرّ لنشبع من مائدة ملكوته (مت ٥: ٦). نكون ملح الحقّ (مت ٥: ١٣)، لئلاّ نكون مأكلاً للحيّة. ننقّي زرعنا من الشوك لنعطي ثمارًا واحدًا بمئة (لو ٨: ٧ ـ ٨). نجعل بنياننا على الصخرة فلا يتزعزع بسبب الرياح والأمواج (مت ٧: ٢٧). نكون إناءً مكرَّمًا فيطلبنا الربّ لحاجته (٢ تم ٢: ٢١). نبيع كلّ مقتنانا ونشتري اللؤلؤة التي بها نغتني (مت ١٣: ٤٦). نجعل كنزنا في السماء (مت ٦: ٢٠)، وحين نذهب، يفتح لنا الربّ فنبتهج. نزورُ ربّنا في المرضى (مت ٢٥: ٣٦)، ليدعونا فنقوم عن يمينه (مت ٢٥: ٣٣)،

نُبغض أنفسَنا (يو ١٢: ٢٥)، ونحبّ المسيح كما أحبّنا وبذل نفسه لأجلنا (أف ٥: ٢). نكرّم روح المسيح لنقبل منه النعمة. نكون غرباء عن العالم كما أنّ المسيح لم يكن من العالم (يو ١٧: ١٤). نكون متواضعين وصبورين ليورثنا أرض الحياة (مت ٥: ٤). نكون أمناء في الخدمة ليجعلنا خدمًا في مسكنه المقدّس. نصلّي صلاته بنقاوة فندخل أمام الربّ العظيم. نكون شركاء في آلامه وهكذا نحيا بقيامته. نحمل إشارته على أجسادنا لننجو من الغضب الآتي، فمَن يستطيع أن يتحمّله (يؤ ٢: ١١; ملا ٣: ٢). هو محتدّ وسريع الغضب ويُهلك كلّ الأشرار. نضع في رؤوسنا خوذة الخلاص (أف ٦: ١٧) فلا نُجرَح ونموت في الحرب. نشدُّ أحقاءنا بالحقّ (أف ٦: ١٤) فلا نُوجَد ضعفاء في القتال. نقوم ونوقظ المسيح (مت ٨: ٢٥)، فيُسكت عنّا الأمواج. نأخذ الترس تجاه الشرّير كاستعداد لإنجيل مخلّصنا (أف ٦: ١٦، ١٥). نقتبل من ربّنا القوّة لندوس الحيّات والعقارب (لو ١٠: ١٩). نهدّئ فينا الغضب مع كلّ حدّة وشرّ. لا تَخرج تجاديف من أفواهنا التي بها نصلّي إلى الله. لا نَلعن لننجو من لعنة الناموس. نكون عمّالاً مجتهدين فنحصل على أجرنا مع الأوّلين. نحمل ثقل اليوم لنطلب الأجر الأفضل. لا نكون عمّالاً بطّالين بعد أن استأجرنا رُبّنا لكرمه (مت ٢٠: ١ ي). نُنصب كجفنات في كرمه الذي هو الكرم الحقّ (يو ١٥: ١ ي)، نكون جفنات طيّبة لئلاّ نُقلع من الكرم. نكون رائحة طيّبة (٢ كور ٢: ١٥) فنفوح على الذين يحيطون بنا. نكون فقراء في العالم فنُغني الكثيرين من تعليم ربّنا. لا ندعو لنا في الأرض أبًا لنكون أبناء الآب السماويّ (مت ٢٣: ٩). حين لا يكون لنا شيء حينئذ نملك كلّ شيء. حين لا يعرفنا أحدٌ حينئذ نمتلك معارفَ عديدة. نفرح في رجائنا كلّ حين ليفرح بنا رجاؤنا ومخلّصنا. ندين أنفسنا بالحقّ ونحكم عليها لئلاّ نحني وجوهنا أمام القُضاة الذين يجلسون على الكراسي ويدينون القبائل (مت ١٩:

٢٨). نأخذ لنا سلاحًا للقتال هو استعداد الإنجيل (مت ٦: ١٦). نقرع باب السماء ليُفتح أمامنا فندخلَ فيه (مت ٧: ٧). نسأل المراحم بعناء فنأخذ منها قدر ما نحتاج. نطلب ملكوت الله وبرَّه لننال في الأرض زيادة (مت ٦: ٣٣). نتأمّل بالعلاء، بالسماويّات، وبها نهتمّ، حيث المسيح مرتفع ومتعال (لو ٣: ١ ـ ٢). نترك العالم لأنّه لا يخصُّنا لنصل إلى المكان الذي دعينا إليه. نحفظ عيوننا نحو العلاء لنرى الضياء المتجلّي. نرفع أجنحتنا كالنسور لنرى حيث يكون الجسد (رج مت ٢٤: ٢٨). نُعِدُّ القرابين للملك ثمارًا لذيذة هي الصوم والصلاة. نحفظ بالنقاوة عربونه لكي يأتمنّا على كلّ كنزه. فالذي يغشّ بعربونه لا يُسمح له أن يدخل كنزه. نحتاط لجسد المسيح لتقوم أجسادنا عند صوت البوق. نُنصت إلى قول الختن لندخل معه إلى جنانه. نُهيِّئ الهديّة للوليمة فنخرج للقائه بالفرح. نلبس اللباس المقدّس فنكون أوّل المختارين في وليمته.

حثّ على التوبة: الخطوة الثانية

مَن لا يلبس لباس العرس يُخرجونه إلى الظلمة البرّانيّة (مت ٢٢: ١٣). مَن يستعفي من الوليمة (لو ١٤: ١٨) لا يذوق العشاء. مَن يحبّ المدن والتجارة يُمنع من مدينة القدّيسين. مَن لا يعطي ثمارًا في الكرم يُستأصل ويُرمى في العذاب. مَن أخذ الفضّة من سيّده يعيدها لواهبها مع ربحها (مت ٢٥: ١٦). مَن رغب أن يكون تاجرًا يشتري الحقل والكنز الذي فيه (مت ١٣: ٢٤). مَن يقبل زرعًا طيّبًا (مت ١٣: ٧) يُنقّي أرضه من الشوك. مَن أراد أن يكون صيّادًا يرمي شبكته في كلّ وقت. مَن تربّى على القتال فليحفظ نفسه من العالم. مَن رغب أن يأخذ الإكليل (١ كور ٩: ٢٤) فليركض في الجهاد كالمنتصر. مَن رغب أن ينزل إلى الحلبة ليصارع فليتعلّم تجاه عدوّه. مَن رغب أن ينزل إلى القتال فليأخذ معه سلاح القتال ولينظّفه دائمًا.

مَن أخذ شبه الملائكة صار غريبًا عن البشر. مَن أخذ نير القدّيسين فليُبعِد عنه الأخذ والعطاء (أي التجارة). مَن طلب أن يملك نفسه يُبعد عنها مقتنى العالم. مَن أحبّ البيت السماويّ فلا ينزل ليعمل في بناء من طين. مَن ينتظر أن يُخطَف في السحاب لا يصنع له عربات مزيّنة. مَن ينتظر وليمة الختن لا يحبّ ولائمَ هذا العالم. مَن يرغب أن يلتذّ في الوليمة المحفوظة، يُبعد عنه السكر. مَن دعا نفسه إلى الوليمة فلا يستعفي ويكون تاجرًا (لو ١٤: ١٨ ـ ١٩) مَن نزل عليه زرع طيّب لا يترك الشرّير يزرع فيه الزؤان (مت ١٣: ٢٤ ـ ٢٥). مَن بدأ يبني برجًا يحسب كلّ نفقاته لئلاّ يكون أضحوكة لعابريّ السبيل (لو ١٤: ٢٩). مَن يضع بناء على الصخر يعمّق الأساس لئلاّ يقع بسبب الأمواج (مت ٥: ٢٤ ـ ٢٥). مَن رغب أن يهرب من الظلمة يسير ما دام له النور (يو ١٢: ٣٥). مَن يخاف أن يهرب في الشتاء (مت ٢٤: ٢٠) يهيّئ نفسه منذ الصيف. مَن يرجو أن يدخل في الراحة يهيّئ نفقاته للسبت (عب ٤: ١١). مَن يطلب من ربِّه الغفران يغفر هو أيضاً لَمن أساء إليه (مت ١٨: ٢٤ ي). مَن لا يطالب بمئة دينار يَترك له سيّدُه عشرة آلاف وزنة. مَن يضع فضّة سيّده على المائدة لا يُدعى عبدَ السوء (مت ٢٥: ٢٧). مَن يحبّ التواضع (مت ٥: ٤) يصير وارثًا في أرض الأحياء. مَن يرغب أن يصنع السلام (مت ٥: ٩) يكون من أبناء الله. مَن يعرف إرادة سيّده يتمّمها لئلاّ يُضرب كثيرًا (لو ١٢: ٤٧). مَن يُنقّي قلبه من الغشّ فعيناه تريان الملك في جماله (اش ٣٣: ١٧). مَن يقبل روح المسيح يزيّن إنسانه الباطنيّ. مَن يُسمّى هيكل الله ينقّي جسده من كلّ نجاسة (١ كور ٣: ١٦ ـ ١٧). مَن يضايق روح المسيح فرأسه لن يرتفع فوق المضائق (مز ١٠٩: ٧٠). مَن يأخذ جسد المسيح يَحفظ جسده من كلّ نجاسة. مَن يرمي الإنسان العتيق خارجًا لا يعود أيضًا إلى الأعمال القديمة (أف ٤: ٢٢). مَن يلبس الإنسان الجديد يحفظ نفسه من كلّ وصمة. مَن

يلبس سلاحًا من مياه المعموديّة لا يرمي سلاحه لئلاّ يُقهر. مَن يأخذ الترس تجاه الشرّير يحفظ نفسه من سهام يرميه بها. مَن فترت همّته لا يرضى به سيّده. مَن يتأمّل في ناموس ربّه لا تبلبله هموم الناس. مَن يلهج في ناموس ربّه يشبه شجرة منصوبة عند المياه (مز ١: ١، ٣). مَن اتّكل على ربّه يشبه أيضًا شجرة ثابتة فوق النهر (إر ١٧: ٧ ـ ٨). مَن اتّكل على البشر نال ويلات إرميا (١٧: ٥). مَن له جناحان يطير بهما عنه فلا تصل إليه سهام يرميه بها. الروحانيّون يرونه يحارب فلا يتسلّط سلاحه على أجسادهم. كلّ أبناء النور لا يخافون منه، لأنّ الظلمة تهرب من أمام النور. أبناء الصالح لا يخافون من الشرّير، لأنّه أُعطي لأرجلهم أن تدوسه (تك ٣: ١٥). حين يتشبّه بهم على مثال الظلمة فهم يكونون نورًا (مت ٥: ١٤)، وعندما يزحف عليهم برغبة الأكل يغلبونه بالصوم على مثال مخلّصنا. وإن أراد أن يحاربهم بطريقة مكشوفة يتدجّجون بالسلاح ويقفون بوجهه. وإن أراد أن يدخل عليهم خلال النوم يستيقظون ويسهرون ويرتّلون ويصلّون. وإن جذبهم بالمقتنيات وهبوها للفقراء، وإن دخل عليهم كشيء حلو لا يذوقونه لأنّهم يعرفون أنّه مرّ، وأنّ أهبهم بشهوة حوّاء يعيشون وحدهم لا مع بنات حوّاء.

الحياة جهاد. خطّة العدوّ

٢ ـ يا عزيزي، ماهر هو عدوّنا ومحتال ذاك الذي يقاتلنا، وهو يستعدّ للهجوم على أقوياء وظافرين ليجعلهم يتراخون. فالضعفاء هم له وهو لا يحارب سبيةً سُلِّمت إليه. مَن له جناحان يطير بهما عنه فلا تصل إليه سهام يرميه بها. الروحانيّون يرونه يحارب فلا يتسلّط سلاحه على أجسادهم. كلّ أبناء النور لا يخافون منه، لأنّ الظلمة تهرب من أمام النور. أبناء الصالح لا يخافون من الشرّير، لأنّه أُعطي لأرجلهم أن تدوسه (تك ٣: ١٥). حين يتشبّه بهم على مثال الظلمة فهم يكونون نورًا (مت ٥: ١٤)، وعندما يزحف عليهم برغبة الأكل يغلبونه بالصوم على مثال مخلّصنا. وإن أراد أن يحاربهم بطريقة مكشوفة يتدجّجون بالسلاح ويقفون بوجهه. وإن أراد أن يدخل عليهم خلال النوم يستيقظون ويسهرون ويرتّلون ويصلّون. وإن جذبهم بالمقتنيات وهبوها للفقراء، وإن دخل عليهم كشيء حلو لا يذوقونه لأنّهم يعرفون أنّه مرّ، وأنّ أهبهم بشهوة حوّاء يعيشون وحدهم لا مع بنات حوّاء.

المقالة السابعة

في التائبين

يسوع وحده بلا خطيئة

١ ـ بَيْنَ كلِّ المولودين الذين لبسوا جسدًا، واحد هو البريء. إنّه ربّنا يسوع المسيح كما يشهد عن نفسه. قال: «أنا غلبت العالم» (يو ١٦: ٣٣). وشهد عليه النبيّ أيضًا: «لم يصنع إثمًا ولم يوجد في فمه غشّ» (أش ٥٣: ٩). وقال الرسول الفاضل: «هذا الذي لم يعرف الخطيئة جعله خطيئة من أجلنا» (٢ كور ٥: ٢١). وكيف جعله خطيئة؟ لأنّه حمل الخطيئة وهو لم يرتكبها وسمَّرها على الصليب (كو ٢: ١٤). وقال الرسول أيضًا: «كثيرون هم الذين يركضون في الحلبة، ولكن واحدًا يحصل على الإكليل» (١ كور ٩: ٢٤). بالإضافة إلى ذلك فليس في البشر واحد نزل إلى المعركة ولم يُجرح أو يُضرب، لأنّ الخطيئة سيطرت منذ تجاوزَ آدمُ الوصيّة (روم ٥: ١٤). فضربت الكثيرين وجرحت الكثيرين وقتلت الكثيرين. ولكن بين الكثيرين لم يقتلها أحد قبل أن يأتي مخلّصنا على صليبه. وحين سُمِّرت على الصليب كان لها شوكة تنخز الكثيرين إلى أن تأتي النهاية وتحطّم شوكتَها.

التوبة دواء

٢ ـ لكلّ الأمراض دواء، وهي تشفى أن وجدنا طبيبًا حكيمًا. والذين جُرحوا في جهادنا فلهم دواء التوبة يضعونه على جراحهم فتشفى. فيا أيّها الأطباء، تلاميذ طبيبنا الحكيم، خذوا لكم هذا

الدواء الذي به تَشفون جراحَ المرضى. فالمحاربون الذين أُصيبوا في الحرب بيد مَن تقاتلوا معهم، أن وُجد لهم طبيب حكيم فهو يقدّم الدواء الذي يداوي جراحهم. وعندما يُعيد الطبيبُ الصحّة إلى الذين أُصيبوا في الحرب، ينال الهدايا والكرامة من الملك. فيا عزيزي، هذه حال مَن يتعب في جهادنا. فإن جاء عدوّه عليه وجَرحه، يجب أن نعطيه دواء التوبة، ما دامت ندامة المجروح قويّة، لأنّ الله لا يرذل التائبين. فقد قال حزقيال (٣٣: ١١؛ ١٨: ٢٣، ٣٢): «لا أريد موت الخاطئ المائت، بل أن يتوب عن طريقه الشرّير ويحيا».

أيّها المصابون

٣ ـ مَن أُصيب في الحرب لا يتستحي أن يسلم نفسه إلى يد طبيب حكيم، لأنّه غُلب على أمره وأُصيب. وحين يُشفى لا يرذله الملك بل يُعدُّه ويحسبه مع جيشه. هكذا يجب أن لا يستحي الإنسان الذي جرحه الشيطان من أن يعترف بجهالته ويبتعد عنها وأن يطلب لنفسه دواء التوبة. فمَن يستحي أن يبيّن جرحه يصل إليه الاهتراء ويبلغ الضرر إلى جسده كلّه. ومَن لا يستحي يُشفى جرحه ويعود إلى القتال. والذي أُصيب بالاهتراء لا يقدر أن يُشفى ولا أن يَستعيد السلاحَ الذي تركه. هذه هي حال مَن غُلب في جهادنا. له وسيلة أن يشفُى إن قال: خطئت، وطلب التوبة. والذي يستحي لا يقدر أن يُشفى لأنّه لا يريد أن يُعلِمَ بجراحِه الطبيبَ الذي أخذ دينارَين ليداوي كلّ الجرحى (لو ١٠: ٣٥).

أيّها الأطبّاء رؤساء الجماعة

٤ ـ وأنتم أيّها الأطبّاء، تلاميذ المجيد، يجب أن لا تمتنعوا أن تقدّموا الدواء لَمن يحتاج إليه. مَن يبيّن لكم جرحه، فأعطوه دواء التوبة، ومَن يستحي أن يبيّن مرضه فانصحوه أن لا يُخفيه عنكم،

وعندما يقرُّ به لا تُعلنوه خوفًا من أن يُحسب المنتصرون مغلوبين من قِبل الأعداء والخصوم. هذا الخطّ الذي فيه يسقط القتلى يُحسب انهيارًا كاملاً لدى الأعداء. فإن وُجد مَن هم جرحى، فالذين ليسوا بمجروحين فليداووا أمراضهم بأنفسهم ولا يكشفوها للأعداء. فإن أعلموا بها كلّ إنسان، فالمعسكر ينال صيتًا عاطلاً. والملك الذي يقود الجيش يغضب على الذين كشفوا عري معسكره، فتصيبهم ضربات أسوأ من تلك التي أصابتهم في الحرب.

٥ ـ فإن لم يُرِدِ الذين جُرحوا أن يَكشفوا عن جراحهم، فلا يستحقّ الأطبّاء أي لوم، لأنّهم لم يشفوا المرضى الذين جُرحوا. وإن أراد الذين جرحوا أن يُخفوا أمراضهم فلا يستطيعون أن يلبسوا السلاح، لأنّ الاهتراء أمسك بأجسادهم. فإن أُصيبوا بالاهتراء وتجرّأوا أن يلبسوا السلاح، فحين ينزلون إلى القتال يسخن سلاحهم عليهم وتفسد جراحهم وتنتن فيُقتلون. وعندما يكتشف جثثهم هؤلاءُ الذين أخفوا عنهم جراحهم، يضحكون من محاولاتهم ليُخفوا أمراض جراحهم. ولا يهبون قبرًا لجثثهم فيحسبونهم جهّالاً وأشرارًا ومتعنّتين.

٦ ـ فالذي بيّن جرحه وشُفي منه، فلينتبه إلى المكان الذي شفي فيه لئلاّ يصاب مرّة ثانية. فمَن أُصيب مرّة ثانية يصعب شفاؤه حتّى على الطبيب الحكيم. فالجرح الذي يكون فوق أثر الجرح لا يشفى، وإن شُفي فلا يستطيع الإنسان أن يلبس السلاح. فإن تجرّأ ولبس السلاح اعتاد أن يُقهَر.

مياه جدعون والمعموديّة

١٨ ـ ولكم أقول أيضًا يا مَن يهتفون في الأبواق: عندما تنتهون من التنبيه أنظروا الذين يتراجعون وراقبوا الذين يبقون وأنزِلوا إلى مياه التجربة الذين نذروا نفوسهم للحرب. كلّ باسل تختبره المياه والذين هم كسالى يُعرَفون.

١٩ ـ فاسمع، يا عزيزي، هذا السرَّ الذي سبق لجدعون وأبان صورته. فحين جمع الشعبَ للقتال نبّه الكتبةُ الشعبَ إلى أقوال الشريعة والكلمات التي كتبتُها أعلاه، فعاد من الجيش شعب كبير. وإذ بقي الذين اختيروا للحرب، قال الربّ لجدعون: «أنزلهم إلى الماء واختبرهم هناك. فالذي يلعق الماء بلسانه فهو معجل وشجاع ويقدر أن يذهب إلى الحرب. ومَن يرتمي على بطنه ليشرب الماء فهو مائع وضعيف ولا يقدر أن يذهب إلى الحرب».

عظيم هو هذا السرّ، يا عزيزي، وقد بيّنه جدعون مسبقًا: إنّه رمز المعموديّة وسرّ الجهاد ومثال المتوحّدين. فقد سبق له وحذّر الشعب قبل اختيار المياه، وحين اختبرهم بالماء اختار من الآلاف العشرة ثلاثمائة رجل ليحاربوا. فتمّت كلمة ربّنا الذي قال: «المدعوون كثيرون ولكن المنتخبين قليلون» (مت ٢٠: ١٦).

٢٠ ـ من أجل هذا يليق بالهاتفين في الأبواق والكارزين في الكنيسة أن يدعوا كلّ متنسّك لله وأن ينبّهوه قبل المعموديّة. فالذين نذروا نفوسهم للبتوليّة والقداسة، الشبّان والشابّات، البتولات والقدّيسون، فلينبِّههم الكارزون ويقولوا لهم: مَن اختار حالة الزواج فليتزوج قبل المعموديّة لئلاّ يسقط في الجهاد ويُقتل. مَن يخاف أن يشارك في القتال فليرجع لئلاّ ينسحق قلب أخيه كقلبه. ومَن يحبّ المقتنيات فليترك الجيش. فحين يشتدّ القتال يتذكّر مقتنياته ويعود. مَن أدار ظهره للقتال فالعار عليه. مَن لم ينذر نفسه ولم يلبس بعدُ السلاح، لا يتجنّى عليه أحد إن هو رجع. ولكن مَن نذر نفسه ولبس السلاح، فإن رجع من الحرب صار أضحوكة. فالحرب تليق بمَن تخلّى عن ذاته لأنّه لا يتذكّر شيئًا ممّا وراءه فيعود إليه.

٢١ ـ وعندما يكرزون ويبشّرون وينبّهون كلّ المتنسّكين لله، فليقترب من مياه المعموديّة الذين اختيروا للجهاد وليُختَبروا. بعد

المعموديّة، نرى مَن هم بواسل ومَن هم ضعفاء. نشجّع البواسل، أمّا المائعون والضعفاء فيرجعون من القتال على عيون الجميع لئلاً يأتي وقت قاسٍ يُخبّئون فيه سلاحهم ويُهزَمون. قال الربّ لجدعون: «أنزِل إلى المياه الذين نذروا نفوسهم». (قض ٧: ٤). وحين نزل الشعب إلى المياه، قال الربّ لجدعون: «كلّ الذين يلعقون كما يلعق الكلب بلسانه هم الذين يذهبون معك إلى القتال» (قض ٧: ٥). وكلّ الذين يرتمون ليشربوا ماء يجب أن لا يذهبوا معك إلى القتال.

يا عزيزي، عظيم، هو هذا السرّ الذي سبق الله وأظهره لجدعون. قال له: كلّ مَن يلعق الماء كالكلب يليق به أن يذهب إلى القتال. فبين كلّ الحيوانات التي خُلقت مع الإنسان، ليس مَن يحبّ سيده كالكلب. فهو يحرسه دومًا في النهار والليل. وإن ضربه سيّده وأكثر من ضربه، فهو لا يبارحه. وإذا خرج مع سيّده للصيد وصادف سيّدُه أسدًا شديدَ البأس، فهو يسلم نفسه إلى الموت عن سيّده. هكذا يكون البواسل الذين غُرفوا في المياه. يسيرون كالكلاب على خطى سيّدهم ويبذلون نفوسهم للموت من أجله. يحاربون بشجاعة ويحرسونه ويضعونه على عيونهم ويلحسونه بألسنتهم كما يلحس الكلب سيّده. والذين لا يهذون بالشريعة يسمّون كلابًا صمّاء لا تقدر أن تنبح. وكلّ الذين لا يهتمّون بالصوم يُدعون كلابًا شرهة لا تعرف الشبع. والذي يجتهدون في طلب الرحمة يحصلون على خبز الأبناء فيُرمى لهم.

٢٢ ـ وقال الربّ لجدعون أيضًا: «الذين يرتمون ليشربوا الماء لا يذهبون معك إلى القتال لئلاً يسقطوا في القتال فيُقهَروا: «فالذين شربوا الماء متكاسلين بيّنوا مُسبقًا سرّ السقطة. من أجل هذا، يا عزيزي، يليق بالذين ينزلون إلى القتال أن لا يتشبّهوا بهؤلاء الكسالى فيتركون القتال ويصيرون عارًا أمام كلّ رفاقهم.

المقالة الثامنة

في قيامة الموتى

الموت رقاد

١٨ ـ فهذا الموت هو رقاد، كما يقول داود: «أرقد وأنام وأستفيق» (مز ٣: ٦). وقال أشعيا (٢٦: ١٩) أيضًا: «الراقدون في التراب يستيقظون». وقال ربّنا عن ابنة رئيس المجمع: «ليست الصبيّة ميّتة. إنّها ترقد رقادًا» (مت ٩: ٢٤; لو ٨: ٥٢). وعن لعازر قال لتلاميذه: «حبيبنا لعازر رقد، وأنا ذاهب لأوقظه» (يو ١١: ١٢). وقال الرسول: «كلُّنا نرقد، ولكن لا نتحول كلُّنا» (١ كور ١٥: ٥). وقال أيضًا: «أمّا الراقدون فلا ينبغي أن تحزنوا عليهم» (١ تس ٤: ١٣).

١٩ ـ يجب أن نخاف من الموت الثاني، ذلك المملوء بالبكاء وصريف الأسنان والنواح والبؤس، ذلك الذي يسكن في الظلمة البرانيّة. طوبى للمؤمنين والأبرار في هذه القيامة التي ينتظرون أن يستيقظوا فيها ويَقبلوا الخيرات الموعود بها. أمّا الأشرار الذين لا يؤمنون بالقيامة، فويل لهم ممّا ينتظرهم. أفضل لهم أن لا يقوموا، وهذا ما به يؤمنون. لأنّ العبد الذي يهيِّئ لنفسه من عند سيّده العذابات والقيود، فعندما يرقد لا يريد أن يوقظه أحد لأنّه يعرف أنّه عندما يأتي الصباح ويوقظونه، سيعذّبه معلّمه وسيقيِّده. والعبد الصالح الذي وعده سيّده بالعطايا، فهو ينتظر متى يأتي الصباح وينال العطايا من سيّده. وحين ينام، فهو يرى في حلمه كيف يعطيه

سيّده ما وعده به فيفرح في حلمه ويرقص ويبتهج. أمّا الشرّير فلا يستعذب نومه، لأنّه يفكّر أنّ الصباح أتى فينسحق قلبه في حلمه. ينام الأبرار ولكن نومهم عذب في النهار والليل. لا يحسّون بكلّ الليل الطويل فيحسبونه في عيونهم كساعة واحدة. ومنذ هجعة الصباح يستيقظون فرحين. أمّا الأشرار فالنوم ثقيل عليهم، ويشبهون رجلاً مصابًا بحمى ثقيلة جدًّا. يتقلّب الشرّير هنا وهناك في فراشه ويحيط الرعب بلَيله الذي يطول عليه فيخاف من الصباح الذي فيه يعاقبه سيّده.

٢٠ ـ يبيّن لنا إيماننا أنّ الناس عندما يرقدون، ينامون مثل هذا النوم ولا يميِّزون الخير من الشرّ. فلا ينال الأبرار ما وُعدوا به ولا الأشرار عقاب الشرّ، قبل أن يأتي الديّان ويفصل أهل اليمين عن أهل الشمال.

إقتَنِعْ بما كُتب: حين يَجلس الديّانُ وتُفتح الكتبُ أمامَه وتُقرأ الأعمالُ الصالحة والأعمالُ الشرّيرة، فالذين عملوا الصالحات يقبلون ما هو صالح من الصالح والذين عملوا السيِّئات ينالون ما هو سيِّئ من الديّان العادل. هو لا يغيّر طبعه بالنسبة إلى الصلاّح، ويكون عادلاً لأنّه يعاقب الكثيرين بالعدل. ولكنّه يغيِّر طبعه بالنسبة إلى الأشرار. في هذا العالم تحلّ العدالة محلّ النعمة فيكون عادلاً للجميع. لا تشارك النعمةُ العدالة، ولا تساعد النعمة الهلاك، ولا العدالة النعمة. فالنعمة هي بعيدة عن الديّان، والعدالة تحرِّك الديّان. فمَن اقتربت منه النعمة يعود إليها فلا تسلمه إلى يد العدالة لئلاّ تحكم عليه، حين تحاسبه عمّا زلّت به يداه. ومَن ابتعدت عنه النعمة، تُدخله العدالة إلى الاختبار وتدينه فيذهب إلى العذاب.

الدينونة والجزاء الأخير

٢١ ـ فاسمع يا عزيزي هذا البرهان المُقنع أنّه يكون جزاء في النهاية. فحين يفصل الراعي قطيعه يقيمه عن يمينه وعن شماله. قَبِلَ الصَّـلاَحَ من الصالحين فأورثهم الملكـوت، ووبّـخ الأشرار وحكم عليهم. حينئذ يُسلمهم إلى العذاب. فالذين أرسلوا رسلاً وراء الملك وقالوا: لا نريد أن يكون هذا ملكًا علينا، فعندما يأخذ المُلك، يذبح أعداءه أمامه (لو ١٩: ١٤ ـ ٢٧). والعمّال الذين ركضوا وتعبوا في الكرم لا يأخذون أجرهم قبل أن ينتهي النهار. والتجّار الذين حصلوا على الفضّة، حين يأتي سيّد الفضّة سيطالبهم بالفائدة. والبتولات، اللواتي انتظرن الختن، نمن ورقدن لأنّ مجيئه تأخّر. وعندما يسمعن الصـوت يستيقظن ويهيئن مصـابيحهنّ. فتـدخـل الحكيـمات وتُـترَك الجاهلات خارجًا. والذين ركضوا بإيمان لن يكمّلوا بدوننا.

٢٢ ـ من كلّ هذا افهم، يا عزيزي، وتأكّد أنّه حتّى الآن لم يقبل أحدٌ جزاءه. فلا الأبرار ورثوا الملكوت ولا الأشرار ذهبوا إلى العذاب. فالراعي لم يفصل بعد قطيعه، والعمّال تعبوا في الكرم وإلى الآن لم يقبلوا أجـرهم. والتجّار عـادوا بالفضّـة وإلى الآن لم يـأت سيّدهم ليأخذ الحساب. والملك ذهب ليأخذ ملكه وإلى الآن لم يأت مرّة ثانية. وهؤلاء البتولات اللواتي ينتظرن الختن يرقدن حتّى الآن، وإلى الآن ينتظرن الصيحة ليستيقظنّ. والأوّلون الذين تعبوا بالإيمان لا يُكملون قبل أن يأتي الآخرون.

المقالة التاسعة

في التواضع

التواضع في الكتاب

١ ـ التواضع صالح في كلّ وقت وينجّي من كلّ ضيق الذين يقتربون منه. ثمار التواضع عديدة، وهو يلد خيرات كثيرة. منه يلد الكمال وبه حَسُن نوح أمام الله فخلّصه، كما هو مكتوب أنّ الله قال له: «رأيت أنّك بارّ وكامل في جيلك» (تك ٧: ١).

والشواهد عن التواضع كثيرة. فقد قال في الكتاب: «المتواضعون يرثون الأرض ويُقيمون عليها إلى الأبد» (مز ٣٧: ١١، ٢٩؛ مت ٥: ٥). وقال النبيّ أشعيا: (٦٦: ٢): «إلى مَن أنظر وفي مَن أسكن إلاّ في الهادئ والمتواضع والمرتعد من كلمتي». وقال الكتاب أيضًا: «المتواضع الروح والمتواضع العينين أفضل من الذي يستولي على مدينة» (أمّ ١٦: ١٩، ٣٢). وهذا ما قال أيضًا: «برّ الكامل يسير أمامه» (أمّ ١١: ٥). وفي موسى الرجل المؤمن قال الكتاب: «كان متواضعًا أكثر من أيّ إنسان على وجه الأرض» (عد ١٢: ٣).

مديح في التواضع

٢ ـ فالتواضع شهادة الخيرات، شهادة مخافة الله. وعديدة هي المواهب التي يقتنيها بالتواضع مَن يحبّ التواضع. حين تبحث عن الرحمة تجدها في المتواضعين، لأنّ التواضع مسكن البرّ. التعليم موجود عند المتواضعين والمعرفة ينابيع شفاههم. التواضع يلد الحكمة والفهم، والمتواضعون يقتنون الفطنة. حين تطلب الفطنة والصبر

تجدهما في المتواضعين، وحياة النسك تبدو لهم جميلة ولذيذة. عذبة كلمة المتواضع ومشرق وجهه وهو يضحك ويفرح. الحبّ جميل لدى المتواضعين، وهم يعرفون أن يتدبَّروا به. يصوم المتواضعون عن كلّ الشرور فيشعّ وجههم من صَلاح قلبهم. يتكلّم المتواضع فيليق به الكلام، وتضحك شفتاه فلا يُسمع صوتُ ضحكه.

يخاف المتواضع من الخصام لأنّ الخصام ابن الحسد. حين يسمع المتواضع كلمات الغضب، يصمّ أذنيه لئلاّ تدخل قلبه. أفكار المتواضع، تلد كلّ خير، وحواس عقله تفكّر بما هو جميل. يشرب المتواضع التعليم كالماء فيدخل فيه كالزيت في العروق. المتواضع يتواضع، ولكن قلبه يرتفع إلى الأعالي العلويّة. حيث يكون كنزه، هناك ترنو أفكاره. عينا وجهه تنظران إلى الأرض، وعينا عقله إلى الأعالي العلويّة. يخاف المتواضع في كلّ وقت أن يكون له مع الآخرين كلمة لوم. يتأمّل المتواضع شريعة ربّه ومنها يأخذ الدواء الذي يطلب. يفرح المتواضع بالخير عند قريبه، ويحسب صديقه كنفسه. يتقرّب المتواضع من المترفّع والمنتفخ فيسبيه ويأخذ منه عقله. يقلب التواضع الحصون الصعبة ويُبعد الغضب والعداوة.

٣ ـ تواضعَ يعقوب فانتصر على غضب عيسو أخيه والأربعمائة رجل الذين معه. تواضع يوسف فانتصر على غضب إخوته الذين حسدوه وأبغضوه. وانتصر موسى بتواضعه وواضع كلّ ترفّع فرعون. وانتصر تواضع داود على تشامخ جليات الذي اندفع عليه بغضب. وانتصر تواضع حزقيا على كلّ تهديد سنحاريب الذي اندفع مجدّفًا. وانتصر تواضع مردخاي على كلّ تشامخ هامان. وانتصر دانيال ورفاقه بتواضعهم على الأشرار الذين افتروا عليهم.

٤ ـ يَمنع المتواضعون أنفسَهم عن الغيرة والحسد والخصام. المتكبّر رجس في عيونهم ولا يشاركونه في العنف. يُبعدون عنهم الكذب

ويتنكّرون للنميمة. يُخرجون العداوة ويرمونها خارجًا لأنّهم أبناء السلام. يُخرجون التكبّر من بينهم ويرمونه خارجًا لأنّهم يهتمّون باسمهم الصالح. لا يعرفون العناد لأنّهم يحبّون البساطة والبرّ، وهم هادئون ومتحفّظون. ينتظرون الختن ويتنكّرون للعالم. التعجرف بعيد عنهم والمستهزئون في نظرهم مُبغَضون. أخدار قلوبهم مليئة بالكنوز الصالحة وضمائرهم نقيّة من الغشّ. عيون عقلهم ثابتة في العلاء وهي تنظر جمال ربّهم وفي كلّ وقت يفرحون به. يحبل قلبهم بكلّ جمال وتلد شفاهُهم ثمارًا صالحة. إقتبلوا من ربّهم زرعًا صالحًا، فاقتلعوا أشواك الشرّ ورموها. أعطى زرعهم ثمارًا، واحدًا بمئة، لأنّهم سقوه من ينبوع الحياة. غُرس فيهم التواضع فأنبت ثمار الإيمان والمحبّة. لبسوا المسيح ثوبًا صالحًا وحفظوه من كلّ نجاسة. يسكن فيهم الروح الذي نالوه، يحبّونه ولا يُحزنونه. يهيّئون هياكلهم للملك العظيم الذي يدخل ويحلّ في الهادئين والمتواضعين. يجعلون ميناءهم على صخرة الحقّ ولا يخافون الأمواج والرياح. أعمالهم تضيء كالسراج فيشعّ نورهم أمامهم. يهيّئون الهديّة للختن الآتي وينتظرون أن يدخلوا في خدره. حملوا الفضّة وعادوا بها ويريدون أن يرثوا عشر وزنات. يُخرجون فضّتهم ويبدّدونها فلا يجمعون فضّة ولا يُحبّبون. يمشي جسدهم المنظور على الأرض، ولكن أفكارهم كلّها موضوعة لدى ربّهم. يمشون ويسيرون في طريق صغير وضيّق فيدخلون في باب الملكوت الضيّق. يضيّقون على إرادتهم لتحفظ الشريعة التي بها يهذّبون في كلّ آن. يفكّرون ويتصرّفون في هذا العالم كغرباء وينتظرون المدينة التي في السماء. أفكارهم مخطوفة وموضوعة في السماء، وهناك إلى بيت المقدس ينتظرون أن يدخلوا. عيونهم مفتوحة وهي تنظر إلى هناك فتشاهد الختن الذي يهيّئ نفسه. يذهب رسلُهم إلى هناك كلّ يوم فيحملون الأمان والسلام ويأتون بهما. أسماؤهم مكتوبة في سفر الحياة فيصلّون وينوحون لئلاّ يُمحَوا منه. يُصعِدون قرابينَهم تقدمةً وصومًا وصلاةً نحو ذلك الذي يحقّ له أن يكتب ويمحو. يكتبون على

قلوبهم شريعة ربّهم لتُكتب أسماؤهم في سفر الأبد. يمحون خطاياهم في كلّ وقت لئلاّ تُمحى أسماؤهم من سفر الحياة. يحبُّون مضايقَ هذا الزمن ليُبعَدوا عن عذاب الأبد. تتمرَّن ألسنتُهم على تراتيل المسيح ليلتذّوا في مكان أناشيده العذبة والحلوة. يرغبون أن يتأمّلوا هذا المكان وهم محتاجون ليحصلوا على ما إليه يحتاجون.

مسيح السلام

٥ ـ هؤلاء هم الذين يحبّون التواضع: الذين يعيشون بسلام عظيم مع كلّ إنسان. المتواضعون هم أبناء العليّ وإخوة المسيح، هذا الذي بُشّر به فجاء إلينا من أجل السلام، فقبلته مريم بسبب تواضعها. فحين بشّر جبرائيل الطوباويّة مريم قال لها: «السلام لك يا مباركة بين النساء» (لو ١: ٢٨). فقد حمل جبرائيل السلام وجاء بالثمرة المباركة، فزرع في داخل مريم ولدًا محبوبًا. فسبّحت وعظّمت الربّ الذي رضي بتواضع أمته. هو ما رضي بالمتكّبرين والعظماء. فالعليّ يرفع كلّ المتواضعين (لو ١: ٤٨ ـ ٥٢). فتأمّل، يا حبيبي، كيف يسعى السلام إلى المتواضعين.

٦ ـ حين وُلد معلّمُ التواضع، هكذا سبّحه ملائكة السماء قالوا: «السلام في السماء والمجد على الأرض والرجاء الصالح لبني البشر» (لو ٢: ١٤). حين علّم التواضع بمجيئه قال: «مَن ضربك على وجهك، فقرِّب له الآخر. ومن سخّرك معه ميلاً فاذهب معه ميلَين آخريَن. ومَن أراد أن يأخذ ثوبك فهب له رداءك أيضًا (مت ٥: ٣٩ ـ ٤١). كلّ هذه الأشياء التي علّمنا إيّاها مخلّصنا، يستطيع المتواضعون أن يقوموا بها.

المقالة العاشرة

في الرعاة

سهر الرعاة

١ ـ يُقيم الرعاة على رأس القطيع ويهبون الخراف طعام الحياة. مَن سهر وتعب من أجل القطيع يهتمّ برعيّته، وهو تلميذ راعينا الصالح الذي وهب نَفسه من أجل الخراف. مَن لا يقود القطيعَ حسنًا يُشبهُ الأجيرَ الذي لا يهمُّه أمر الخراف (يو ١٠ : ١٣).

فيا أيّها الرعاة، تشبَّهوا بهؤلاء الرعاة الأبرار الأوّلين. رعى يعقوب قطيع لأبان وحرسه وتعب وسهر فنال أجره. قال يعقوب للأبان: «لي عشرون سنة معك. خرافك وقطعانك لم تسقط. لم آكل كباش غنمك. ما جئتك بالمكسورة، مع أنّك كنت تطلبها منّي. في النهار أكلني الحرّ وفي الليل الجليد، وكان النوم يهرب من عينيّ» (تك ٣١: ٣٨ ـ ٤٠).

فيا أيّها الرعاة، تأمّلوا هذا الراعي كيف يهتمّ برعيّته. يبقى في الليل يقظًا يحرسه ويسهر، ويتعب في النهار ليرعاه. كان يعقوب راعيًا، ويوسف راعيًا مع إخوته الرعاة، وموسى راعيًا وداود راعيًا وعاموس راعيًا. كلّهم كانوا رعاة رعوا القطيع وقادوه القيادة الحسنة.

٢ ـ ولكن لماذا، يا عزيزي، بدأ هؤلاء الرعاة فرعوا الخراف ثمّ اختيروا ليرعوا البشر؟ ليتعلّموا كيف يهتمّ الراعي بخرافه ويسهر ويتعب من أجل خرافه. وحين تعلّموا أساليب الرعاة اختيروا لتدبير الجماعة. رعى يعقوب غنم لابان وتعب وسهر وقاد الخراف قيادة

حسنة. ثمّ رعى أبناءه ودبّرهم تدبيرًا حسنًا وعلّمهم أصول الرعاية. ورعى يوسف الخراف مع إخوته، وفي مصر كان مدبّرًا لشعب كثير، فقادهم كما يقود الراعي الصالح قطيعه. ورعى موسى غنم يترو حميه، واختير من وراء الغنم ليرعى شعبه ودبّر أمرهم كالراعي الصالح. أخذ موسى عصاه على كتفه وسار على رأس شعبه يدبّره. رعاهم أربعين سنة وسهر وتعب من أجل غنمه كراع غيّور وصالح. حين أراد ربّه أن يمحوهم بسبب خطاياهم لأنّهم عبدوا العجل، صلّى موسى وطلب من ربّه فقال: «إغفر لشعبك خطيئتهم وإلاّ فامحُني من سفرك الذي كتبت» (خر ٣٢: ٣١ - ٣٢). هذا هو الراعي المجتهد الذي أسلم نفسه من أجل خرافه. هذا هو المدبّر المجيد الذي وهب نفسه من أجل خرافه. هذا هو الأب الرحيم الذي يحتضن بنيه ويُربّيهم.

المقالة الحادية عشرة

في الختانة

العماد والختان، يسوع ويشوع

١١ ـ نحن نعرف حقًّا، يا عزيزي، أنّ الله وضع الشرائع في كلّ جيل، فخدمت الزمن الذي أراده، ثمّ تبدّلت كما قال الرسول: «في القديم أقام ملكوت الله في كلّ زمن بأشكال مختلفة» (عب ١: ١). فهذا واضح وجليّ لدى الحكماء والفهماء أنّ كلّ إنسان من العهد يمكنه أن يُرذلَ بعد الختان بسبب الفسق والفجور. هو مختون ولكنّه لم يفهم ما قال الرسول: «فيا ليت الذين يُفسدونكم يُخْصَون خصيًا» (غلا ٥: ١٢). الله حقّ هو، وعهوده ثابتة جدًّا. وكلّ عهد حقّ في وقته وثابت. والمختونون في قلوبهم هم أحياء ويُختَنون مرّة ثانية على الأردن الحقيقيّ من أجل معموديّة غفران الخطايا.

١٢ ـ ختن يشوع بن نون الشعب مرّة ثانية بسكاكين من صوّان، حين عبر الأردن هو وشعبه. ويسوعُ مخلّصُنا ختن الشعوبَ الذين آمنوا به بختان القلب مرّة ثانية وغطسهم في المعموديّة. ختنهم بالسكّين التي هي كلمته التي هي أحدّ من سيف ذي حدَّين (عب ٤: ٢). أعبر يشوع بن نون الشعب إلى أرض الموعد. ويسوع مخلّصنا وعد بأرض الحياة كلّ الذين يعبرون الأردن الحقيقيّ ويؤمنون، ويختنون غُرلة قلبهم. أقام يشوع بن نون حجارة للشهادة في إسرائيل، ويسوع مخلّصنا سمّى سمعان الحجر الحقيقيّ وأقامه شاهدًا مؤمنًا بين

الشعوب. أقام يشوع بن نون الفصح في سهل أريحا، في أرض ملعونة، وأكل الشعب من خبز الأرض. ويسوع مخلّصنا أقام الفصح مع تلاميذه في أورشليم المدينة التي لعنها وقال إنّه لن يُترك فيها حجرٌ على حجر (مت ٢٤ : ٢). ووهب هناك السرّ بواسطة خبز الحياة.

من المقالة الثانية عشرة

في الفصح

٦ ـ أكل مخلّصنا مع تلاميذه الفصح في ليلة الرابع عشر المحفوظة. وضع لتلاميذه بالحقّ علامة الفصح. بعد أن خرج يهوذا من عندهم، أخذ خبزًا وبارك وأعطى تلاميذه وقال لهم: «هذا هو جسدي. خذوا كلوا منه كلّكم». ثمّ على الخمر كذلك، بارك وقال لهم: «هذا هو دمي العهد الجديد الذي يراق من أجل كثيرين لغفران الخطايا. هكذا تصنعون لذكري عندما تجتمعون».

قبل أن يُمسَك ربُّنا قال هذه الكلمات. ثمّ قام ربّنا من المكان الذي أقام فيه الفصح فأعطى جسده ليُؤكل ودمه ليُشرب. وذهب مع تلاميذه إلى المكان الذي سيُمسَك فيه. فمَن أكل جسده وشرب دمه حُسب من الأموات. فربّنا وهب بيدَيه جسدَه ليُؤكل، وقبل أن يُصلب وهَب دمَه ليُشرب. وأُوقف في ليلة الرابع عشر ودين حتّى الساعة السادسة[1]. ولمّا كانت الساعة السادسة، حكموا عليه ورفعوه وصلبوه. حين دانوه لم يتكلّم ولم يعطِ جوابًا لديّانيه. كان يقدر أن يتكلّم ويعطي جوابًا، ولكن لا يقدر أن يتكلّم، مَن حُسِب من الأموات. وكانت ظلمة من الساعة السادسة حتّى الساعة التاسعة[2]. وأسلم روحه لأبيه في الساعة التاسعة. وكان بين الموتى في الليل الذي يضيء الخامس عشر[3] وليل السبت ونهار السبت كلّه وثلاث ساعات

(١) أي: ظهرًا.

(٢) أي: الثالثة بعد الظهر.

(٣) من شهر نيسان كما في الروزنامة القديمة.

من يوم الجمعة. وفي الليلة التي تُنير الأحد، في الساعة التي وهب فيها جسده ودمه لتلاميذه، قام من بين الأموات.

ثلاثة أيّام وثلاث ليال

٧ ـ بيِّن لنا أيّها الحكيم ما هي هذه الأيّام الثلاثة والليالي الثلاث التي كان فيها مخلّصنا بين الموتى. لأنّنا نرى ثلاث ساعات الجمعة والليل الذي يضيء السبت ويومَ السبت كلّه. وفي ليلة الأحد قام. حدِّد لي هذه الأيّام الثلاثة والليالي الثلاث، أين هي؟ ها نهار وليل كاملان، ولكن بالحقيقة كما قال مخلّصنا: كما كان يونان بن متاي في بطن الحوت ثلاثة أيّام وثلاث ليال، هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض (مت ١٢ : ٤٠). فمن الوقت الذي وهب جسده ليُؤكل ودمَه ليُشرب، هذه هي الأيّام الثلاثة والليالي الثلاث. فقد كان ليل حين خرج يهوذا من عندهم وأكل التلاميذ الأحد عشر جسد مخلّصنا وشربوا دمَه. إذًا هناك الليلة التي تُضيء الجمعة. وحتّى الساعة السادسة التي فيها أدانوه، ها نهار واحد وليلة واحدة. وثلاث ساعات كان فيها ظلام، من الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة، وثلاث ساعات بعد الظلمة. ها نحن أمام نهارَين وليلتَين. والليلة الكاملة التي يضيء السبت ونهار السبت كلّه. فتمّت لمخلّصنا الإقامة بين الأموات ثلاثة أيّام وثلاث ليال. وفي ليلة الأحد قام من بين الأموات.

الفصح القديم والفصح الجديد، موسى ويسوع

٨ ـ فصح اليهود هو اليوم الرابع عشر بلَيله ونهاره. وفصحنا هو يوم الآلام العظيم، يوم الجمعة الخامس عشر بلَيله ونهاره. بعد الفصح أكل إسرائيل الفطير سبعة أيّام حتّى اليوم الحادي والعشرين من الشهر. ونحن نحفظ الفطير كعيد مخلّصنا. هؤلاء أكلوا الفصح مع أعشاب مرّة ومخلّصنا رذل كأس المرارة هذه وانتزع كلّ مرارة

الشعوب حين ذاقها ولم يرد أن يشرب. يذكر اليهود خطاياهم زمنًا بعد زمن، ونحن نتذكّر صلبَ مخلّصنا وإهانته. بالفصح خرج هؤلاء من عبوديّة فرعون، ونحن في يوم الصلب نخلص من عبوديّة الشيطان. هم ذبحوا حَمَلاً من القطيع، وبدمه نجوا من المفسِد، ونحن خلصنا بدم ابنٍ مختار من أعمال الفساد التي عملناها. كان لهم موسى قائدًا، ولنا كان يسوع هاديًا ومخلّصًا. لهم شقّ موسى البحر وأجازهم، ومخلّصنا شقّ الجحيم وحطّم أبوابه، ودخل إلى الداخل ففتحها، ورسم الطريق أمام كلّ الذين يؤمنون به. لهم وهب موسى المنّ ليأكلوا. ولنا وهب ربّنا جسده لنأكله. لهم أخرج الماء من الصخرة، ولنا أجرى مخلّصنا الماء الحيّ من صدره. وعدهم موسى بأرض الكنعانيّين ميراثًا، ووعدنا ربُّنا بأرض الحياة مِلكًا. لهم رفع موسى حيّة نحاسيّة، بحيث إنّ مَن ينظر إليها يبقى حيًّا، رغم جرح الحيّة. ولنا علّق يسوعُ نفسَه حيث إنّ مَن ينظر إليه ينجو من جرح الحيّة التي هي الشيطان. لهم صنع موسى الخيمة الزمنيّة ليقدّموا فيها الذبائح والقرابين فيطهّروا من خطاياهم. ويسوع أقام مسكن داود الذي سقط (عا ٩: ١١؛ أع ١٥: ١٦)، وقام. كان قد قال لليهود: «حين تدمّرون هذا الهيكل الذي ترونه، فأنا أقيمه في ثلاثة أيّام» (يو ٢: ٩). فهم تلاميذه أنّه تكلّم عن جسدَه الذي يقيمه بعد ثلاثة أيّام حين يدمّرونه. ففي هذه الخيمة وعدنا بالحياة وبها تطهُر خطايانا. سمّى خيمتهم خيمةً زمنيّة، لأنّها تخدم زمنًا قصيرًا وسمّى خيمتنا هيكل الروح القدس الذي يدوم إلى الأبد (١ كور ٣: ١٦؛ ٦: ١٩).

المقالة الرابعة عشرة

في البراهين المُقنعة

مقدّمة الرسالة

١ ـ إرتأينا كلّنا، حين كنّا مجتمعين، أن نكتب هذه الرسالة إلى كلّ إخوتنا أبناء الكنيسة هنا وهناك. من الأساقفة والقسوس والشمامسة وكلّ كنيسة الله مع كلّ أبنائها هنا وهناك الذين هم عندنا، إلى إخوتنا الأعزّاء والمحبوبين الأساقفة والقسوس والشمامسة مع كلّ أبناء الكنيسة الذين عندكم وكلّ شعب الله الذي في سليق وقطيسفون (أو المدائن) هنا وهناك، بربّنا ومحيينا الذي أحيانا بواسطة المسيح وقرّبنا إليه. سلامًا وافرًا.

الشقاء الحاضر

٢ ـ نعرّفكم يا إخوتنا وأعزّاءنا، وحين نعرّفكم نعرّف أنفسنا أيضًا ونتذكّر ما حدث في أيّامنا بسبب خطايانا التي كثُرت واشتدّت وفاضت. أظلمت عقولُنا فحُرمت من الفهم، وما أيقظْنا نفوسنا ليعود إلينا الله كما قال في النبيّ: «إلتفتوا إليّ فالتفت إليكم» (زك ١: ٣) وقال هوشع: (١٤: ٣) أيضًا. «خذوا معكم كلامًا والتفتوا إلى الربّ». وقال أشعيا (٥٥: ٦ ـ ٧): «أطلبوا الربّ، وعندما تجدونه ادعوه. وحين يكون قريبًا ليترك الخاطئ طريقه ورجل الإثم أفكاره». وكُتب أيضًا: «إن طلبتم الربّ وُجد لكم، وإن تركتموه تركّكم» (٢ أخ ١٥: ٢). وكُتب في داود: «راقبَ الربُّ من السماء ليرى هل هناك من عاقل يطلب الربّ. كلّهم ضلّوا ورُذلوا وليس مَن يعمل الصلاح ولا واحد» (مز ٥٣: ٣ ـ ٤). وقال إرميا (بل حزقيال ٢٢:

٣٠). «طلبت في شعبي رجلاً يسيّج سياجًا ويقف في الثغرة من أجل الأرض لئلاً تفسد فلم أجد». وقال الربّ أيضًا لإرميا (٣٤: ١٣): «إذهب وقل لرجال يهوذا ولسكّان أورشليم: إلى متى لا تقبلون التوبيخ»؟ وقال أيضًا بالنبيّ: «دعوتكم فما أحببتم، فتصرخون في أذنيّ بصوت عال فلا أسمعكم» (إر ٧: ١٣؛ حز ٨: ١٨). وكتب أيضًا: «ليس مَن يندم على شرّه ويقول: ماذا فعلت» (إر ٨: ٦).

خطايا الرؤساء

٣ ـ قام الرؤساء في شعبنا فتركوا الشريعة وافتخروا بالإثم. إقتنوا خيرات فانتصر عليهم الطمع. يُقرضون بالربى ويأخذون الفائدة ولا مَن يذكر ما كتب: «لا تأخذ ربى ولا مرابحة» (لا ٢٥: ٣٦). وقال: «مَن أراد أن يسكن في خيمة الربّ لا يعطي الفضّة بالربى» (مز ١٥: ١، ٥). وقال أيضًا: «مَن لا يأخذ الفائدة، ولا يقرض بالربى»، مَن لا يعمل هذه النجاسات التي يعدّدها حزقيال (١٨: ٨)، يرضى الله عنه.

هناك أُناس في هذا الزمن يتصرّفون بعنف ويعوّجون الحكم ويحابون الوجوه ويُبرئون المذنب ويُجرمون البريء. أحبّوا الأغنياء وأبغَضوا الفقراء، رعوا أنفسهم وبدّدوا الخراف. أعماهم العالم فأحبّوا الرشوة ورفضوا الحقّ. أبغضوا التوبيخ وأحبّوا الشرّ. أبغضوا المتواضعين وأحبّوا المترفّعين والمتجاهين والمتفاخرين. في أيّامهم أظلم النور وخسر الملحُ طعمَه. غُشي على العلم وبردت الشريعة. خرب الكرم ونبت الشوك. نام الناس وزرع الشيطان زؤانه (مت ١٣: ٢٥). وقفت الأمواج وقويت الرياح. سقط الحوذيّ وانقلبت المركبات. نام الملاّحون وغرقت السفن. رُبطت الشريعة وخُتم على الشهادة. صار الكاهن كالشعب (هو ٤: ٩). وطلب الحاكم ذهبًا، وحكم القاضي بحسب الرشوة، وتكلّم العظيم بحسب نزوته.

إحتقروا المساكين وأفنوا بائسي الأرض. ينهشون بأسنانهم وهم يُعلنون السلام، ومَن لا يرمي لهم شيئًا في أفواههم يعلنون الحرب عليه (مي ٣: ٥). يرذلون الحكم ويخطئون ما هو قويم. يبنون صهيون بالدم وأورشليم بالإثم. الرؤساء يحكمون بالرشوة، والكهنة يعملون بالأجر. الأنبياء يمارسون العرافة بالفضّة وعلى الربّ يتكلّمون ليقولوا: «ها إنّ الربّ بيننا» (مي ٣: ٩ - ١١). من أجل هذا لهم الليل والظلام بدل العرافة (مي ٣: ٦). إمتلأوا غضبًا ونفحوا الحقد، أحبّوا العار ورضوا بالفخاخ. هناؤهم الهزء بعضهم على بعض كإنسان يأكل العسل ويمتصّ الشهد. الحقّ عَثَر والتوبيخ هرب. ذهب المكرّمون واحتُقر المعلّمون. يسمُّون الخير شرًّا والشرّ خيرا. يجعلون النور ظلمة والظلمة نورًا. يسمُّون المرّ حلوًا والحلو مرًّا. هم حكماء في عيون أنفسهم وعقلاء أمام وجوههم. يُبرئون المذنب من أجل رشوة، وبراءة البريء يمرّون عليها. زالت الرؤى واختفت النبوءة (أش ٥: ٢٠ - ٢٣).

ثمار المحبّة

١٤ - ونعود إلى مخلّصنا الذي قال لنا: «هذه هي وصيّتي: أن تحبّوا بعضكم بعضًا» (يو ١٥: ١٢). وقال الرسول: «لا يكُن لأحد دين عليكم إلاّ أن يحبّ الواحد الآخر» (روم ١٣: ٨). وعظّم المحبّة وزاد فقال: «لو عملت ما هو حسن وجميل ولم يكن فيّ حبّ فأنا لست بشيء (١ كور ١٣: ٢). المحبّة تُخفي القبائح. المحبّة تمحو الخطايا. المحبّة تبعد عن التشامخ. المحبّة تحرّر من الترفّع. المحبّة تخلّص من الخصام. المحبّة أرفع من الحسد. المحبّة أعلى من الانقسام. المحبّة تتنكّر للطمع. المحبّة غريبة عن الهزء. المحبّة تُفلت من الشرّ.

ثمار المحبّة محبوبة ومرغوبة وبهيّة ولائقة. المحبّة خلّصت نوحًا من الطوفان، ونجّت راحاب من سيف يشوع، وعظّمت داود ومحت

خطاياه. المحبّة خلّصت حزقيا من يد أعدائه، وبرّرت وطهّرت يوشيا. المحبّة أطفأت نار الأتون عن حنانيا وأخويه في أرض بابل، وأصعدت دانيال من الجبّ، ونجّت أستير ومردخاي من يدي هامان.

المحبّة تنتصر على البغض وتمحو الخطايا وتُبعد الإثم وتُـزيل الحسد وتُبطل الخصومة وتحلّ العداوة وتضع الأمان عند الغضوبين وتحطّم حبال الشرّ. أحبّاء المحبّة كثيرون وصَلاحُها فائض. المحبّة تتعرّض للشتيمة وتقتبل السباب. المحبّة تحتمل. المحبّة تصالح الأعداء وترمي الأمان بين المنقسمين. المحبّة تقبل الظلم.

المحبّة تحبّ الصمت، تحبّ المتواضعين، تحبّ الودعاء، تحبّ الحكماء، تحبّ الصوم، تحبّ الصلاة، تحبّ الصدقات، تحبّ البسطاء، تحبّ الكاملين، تحبّ الفاضلين، تحبّ التائبين، تحبّ أبناء الأمان. المحبّة ترحم، تحمي، تجمع، تقرّب، تشجّع، تفرح. إذا احتُقرت المحبّة أمسكت بنزوتها واحتملت وسكنت وقبلت الظلم. المحبّة لا ترضى بالغضب ولا تفرح بالإنقسام ولا تستعذب الطمع. المحبّة لا تهتمّ بالأيّام ولا تشغل بالها بما ستكون السنون. المحبّة طويلة الروح وعذبة وهادئة وواسعة القلب. أفكارها واسعة وحواسها هادئة.

المحبّة لا تُحتقر ولا تتجنّى ولا تهزأ ولا تتعجرف ولا تترّفع ولا تتعالى. المحبّة ترى نفسها كما هي تعرف طبيعتها. هي تهدأ وتسكت وتسكن. تحبّ كل إنسان وهي محبوبة من كلّ إنسان. المحبّة تحبل بالأمان وتلد السلام، تتعاطى مع الصالحات وتتأمّل في الجمالات. المحبّة لا يقهرها الشرّ. المحبّة نور. المحبّة ملح. المحبّة معين الخيرات. المحبّة ختم صالح ولؤلؤة مفضّلة وكنز. وختم كلّ شيء هو المحبّة. هي تتأمّل الحكمة ومعاطاتها معها عذبة. المحبّة معرفة صحيحة وفكر فاضل وقصد الرجاء وتفكير كامل وضمير ثابت.

الطمع أساس كلّ شرّ

٢١ ـ كان من الضروريّ لنا، يا أعزّاءنا، أن نكتب هذه الأشياء لنذكّر أنفسنا ونذكّركم أيضًا أنّه، لأنّنا أهملنا خدمة القدّوس، حصل لنا هذا كلّه في الزمن الحاضر. ولأنّنا لم نكرمه جَعلَنا للهزء أمام أعدائنا واحتقَرنا كما كتب: «الذين يحتقرونني يُهانون» (١ صم ٢: ٣٠).

٣٢ ـ أظلمت عقولنا بالترفّع وقهرَنا الطمعُ وطُمرت منابعُ الحكمة. مبادئ التعليم أظلمت بالطمع وبالترفّع.

دخلت الخطيئة إلى العالم بإغراء الطمع حين أخطأ آدم بأكله من الشجرة فخرج من الفردوس. فالقدّوس ترك أمام آدم كلّ أشجار الفردوس الحاملة الثمر المبارك وقال له: «تأكل منها كلّها، ولكن لا تأكل من شجرة معرفة الخير والشرّ لئلاّ تموت» (تك ٢: ١٧). ولم يكفِ الطمعَ الفردوسُ كلّه الذي كان واسعًا وأفضل من كلّ الأرض حيث بنو آدم مزروعون الآن. وفي النهاية كلّ الصدّيقين سيجدون الراحة في الوقت الذي يلغى فيه سلطان الطمع كما قال مخلّصنا للذي عن يمينه: «الحقّ أقول لك: اليوم تكون معي في جنّة عدن» (لو ٢٣: ٤٣). وكُتب أيضًا بالنبيّ: «الأبرار يرثون الأرض ويقيمون فيها إلى الأبد» (مز ٣٧: ٢٩). لا يرثونها من جيل إلى جيل لأنّها عابرة، كما كُتب: «السماء كالدخان تزول والأرض كاللباس تبلى» (أش ٥: ٦). وقال ربّنا أيضًا: «السماء والأرض تزولان وكلامي لا يزول» (مت ٢٤: ٣٥). فالسماء التي تفوقنا والتي تُدعى رقيعًا تزول، وهذه الأرض التي هي قشرة يابسة تبلى. أمّا أرض الحياة والسماوات التي فوق الرقيع فهي لا تبلى ولا تزول.

٢٣ ـ كلّ هذه الأرض وكلّ الفردوس لم يكفيا للطمع الذي

دخل على آدم. كان يحترق شهوة فأخذ وأكل من الشجرة التي أُمِر أن لا يأكل منها.

وبسبب الطمع باع عيسو بكوريّته فُرذل من البركة. وبسبب طمع فرعون ضُربت أرض مصر. ما اكتفى بكلّ شعبه يقوده، بل أراد أيضًا أن يستعبد بني إسرائيل. وابنا هارون استسلما للطمع فرُذلا من الكهنوت. وبنو إسرائيل رغبوا مأكلاً بفعل الطمع من زمان إلى زمان فصعد عليهم الغضب القاتل والحيّات وضربات أخرى من كلّ نوع. ورُجم عاكان من أجل شهوة الطمع. ارجُم بالحجارة وهلك من وسط شعبه. والكاهنان الشرّيران، ابنا عالي، أفقدهما الطمع الحياة. والملك شاول، مختار الشعب، طمع بما حرم الربّ عليه عند أبيمالك، فسقط من عظمته ونُزعت مملكته. وآحاب بن عمري، ملك إسرائيل، اشتهى فأخذ كرم نابوت، فسقط في الحرب في راموت جلعاد. وجيحزى، تلميذ أليشاع، ألبسه الطمع البرص. والطمع قتل الكثيرين وحرَمهم الحياة. لم يُشبع الطمع يهوذا الإسخريوطيّ، أحد الاثني عشر، فسرق، بل وصل به الطمع إلى أن يأخذ دم الكريم. بطمعه انفصل عن رفاقه التلاميذ. وقهر الطمع أيضًا حنانيا فظهرت العجيبة حين سقَط أمام أقدام التلاميذ (أع ٥: ١ ـ ١١).

٢٤ ـ الطمع لا يكفيه العالم كلّه. فللملوك كلّ شعوبهم وألسنتهم، ولا يكتفي كلّ واحد منهم بمنطقته. يجمعون الجيوش ويُعلنَون الحرب ويدمّرون المدن ويسلبون المناطق الأخرى. يسبون السبايا ويمتلكونها، ولا شيء يكفيهم. يتعبون ويَشقَون ليتعلّموا الحروب. يقتلعون الحصون ويقومون بتصيُّد الناس. يصعدون ويصلون إلى القمم وينزلون إلى الوديان ولا يَشبع الطمع فيهم ولا يمتلئ. حين يكثر الغنى يزداد الطمع، وحين تفيض الخيرات يتقوّى الطمع.

المسكين يكتفي بالخبز اليوميّ، أما الغنيّ فيهتمّ بالسنين التي لن يكون فيها على قَيد الحياة. لباس مرقّع يكفي المساكين ولباس من كلّ زهو ومن كلّ منطقة يجعل الطماع وكأنّه عريان. يُوضع فراش الفقير على الأرض وهذا يكفيه، ومرقد الغنيّ أسرة زاهية وفرش من كلّ نوع وهذا قليل من أجل الطمع. شراب المسكين ماء يكتفي به، ويشرب الغنيّ النبيذ المعتّق ولا يزال يحترق. الذهب والفضّة قنية الأغنياء، بهما يعثرون ولأجلهما يتقاتلون. النعاس يهرب من كلّ محبي الطمع. أمّا مرقد الفقير فهادئ مريح. يفكّر المسكين أن يكسر من خبزه للمحتاج، ويتطلّع الغنيّ كيف يضرب مَن هو أضعف منه. طوبى لَمن لا يخدم سيادَة البطن، طوبى للرجل الذي لم يقهره الطمع، وطوبى للإنسان الذي يتأمّل في المعرفة التي بها تقطع أصول الطمع.

طمع الرعاة سبب الشرّ

٢٥ ـ تعرفون، يا أعزّاءنا، ممّا كتبنا لكم، أنّه بعلة الطمع بَانَ البغض والحسد عند الممسكين بالشريعة والمتسلّطين في شعبنا. ليوافق تعليمُنا مشيتنا. مشينا في طريقة وتعلّمنا في أخرى. فوضع اليد المقدّس الذي قبله بعض الناس منّا يحسبونه وضع يد فقط. لا نجد بسُرعة في زمننا مَن يسأل: «مَن هو الذي يخاف الله»؟ ولكن: «مَن هو الأقدم بوضع الأيدي». فإن قالوا: «فلان أقدم»، قالوا له: «يليق بك أن تجلس إلى رأس المائدة». وليس مَن يتذكّر كلام المخلّص، حين وهب الويل للكتبة والفرّيسيّين وقال لهم: «ويل لكم، لأنّكم تحبّون المتكآت في المجامع والأسرة في الولائم وتحبّون أن يدعوكم الناس: رابي رابي» (لو ١١: ٤٣؛ مر ١٢: ٣٩؛ مت ٢٣: ٥ ـ ٦).

فيا إخوتنا، إنّ الألقاب لا تُدخلنا إلى الحياة ولا تنجّينا من الموت، كما لم تنجّ ناداب وأبيهو ولم تُنَجِّ حفني وفنحاس. فمع الألقاب تُطلب الأعمال الصالحة، لأنّ الأعمال بدون ألقاب تنجّي الذين

يعملون بها، والألقاب بدون أعمال صالحة لا تفيد ولا تنفع شيئًا، كما كتبنا لكم أعلاه. أمّا إخوتنا فيفتخرون بالألقاب التي قبلوها بحيث يقيّدون الآخرين ويحرمونهم ويطلبون الإكرام قائلين: أنا صاحب السلطان. واليوم كمل ما قال النبيّ: «يتكلّم العظيم بحسب إرادته» (مي ٧: ٣). وقال: تبدّد قطيعيّ وصار بلا راع». (حز ٣٤: ٥). رعى الرعاة أنفسهم وخرافي لم يرعوا» (حز ٣٤: ٨). وقال أيضًا: «أيّها الرعاة الذين تهلكون وتبدّدون خراف رعيّتي» (إر ٢٣: ٢). وقال أيضًا للرعاة: «ترعون المرعى الحسن وما تبقّى تدوسونه بأرجلكم. والمياه العذبة تشربون وما تبقّى تفسدونه بأرجلكم. وخرافي ترعى ما داسته أرجلكم وتشرب المياه الفاسدة التي تركتموها وراءكم» (حز ٣٤: ١٨ - ١٩).

يسوع رأس الرعاة

ويسوع مخلّصنا هو رأس الرعاة. هو نور في الظلمة وسراج على منارة. ينير العالم ويطهّر الخطايا. هو اللؤلؤة الحسنة، ونحن التجّار نبيع مقتنياتنا ونشتريها. هو الكنز في حقل، فحين نجده، نفرح ونشتريه. هو ينبوع الحياة، ونحن العطاش نشرب منه. هو المائدة المملوءة سمنًا وشبعًا، ونحن الجياع أكلنا وتلذّذنا. هو باب الملكوت المفتوح أمام كلّ الداخلين. وهو الخمرة المفرحة التي يشرب منها الباكون فينسون أمراضهم. وهو اللباس والثوب المجيد الذي يلبسه كلّ المنتصرين. هو كرمة الحقّ وأبوه الكرّام، ونحن جفنات منصوبة فيه. هو البرج الذي عليه بُني الكثيرون. نحسب النفقة لنبني ونكمّل. هو الختن، والرسل هم أصدقاؤه، ونحن عروسه. لنهيّئ هديّة العرس. هو السلّم التي تصعد إلى العلاء، لنعمل ونجاهد بها نحو أبيه. هو الطريق الصغير الضيّق، لنُسرع على خطاه ونبلغ الميناء. هو الكاهن وخادم القدس، ونحن نعمل لنكون أبناء بيته. هو الملك

العظيم النبيل الذي ذهب ليأخذ مُلكه (لو ١٩ : ١٤)، لنكرّم ضعفه ليشركنا في عظمته. هو الكارز ورسول العليّ، لنسمع كلمته ولنكن أبناء سرّه. هو المحبّة التي تعطي الثمار العديدة. حين زُرعت كانت صغيرة وصارت شجرة قويّة. هو الابن البكر وابن مريم، لنقبل ضعفه فيفرحنا بعظمته. هو الذي تألّم وعاد إلى الحياة وصعد إلى العلاء، لنؤمن به حقًّا فنقبل مجيئه. هو ديّان الأموات والأحياء الذي يجلس على عرش ويدين القبائل. هو الذي يورث الملكوت ويرسل إلى العذاب ولا يأخذ بالوجوه ولا يقبل رشوة.

فالآن لنشكر أباه ونسجد لمرسله. لنقدّس مرسله الذي ارتضى بنا واختارنا وفرحنا به ودعانا به وصالح ضعفنا مع عظمته. ليس لنا شيء نقابل به هذه المراحم إلاّ الشكر والسجود ومحبّة بعضنا. لنعمل بهذه الثمار التي تقودنا إلى حياة الأبد.

المقالة السابعة عشرة

في المسيح ابن الله

أقوال الأنبياء في المسيح

٩ ـ ويجب علينا أن نأتي بالبراهين التي تقول إنّ يسوع وُعد به مسبقًا من مريم بواسطة الأنبياء وأنّه دعي ابن الله. قال داود: «أنت ابني وأنا اليوم ولدتك» (مز ٢ : ٧) وقال أيضًا: «من بهاء القدس من الرحم ولدتك صبيًّا منذ القديم» (مز ١١٠ : ٣). وقال أشعيا (٩.٦ ـ ٧): «وُلد لنا ولدٌ، أُعطي لنا ابن وكان سلطانه على كتفه. دُعي اسمه عجيبًا مُشيرًا إله العوالم الجبّار ورئيس السلام لإزدياد سلطانه ولسلامه الذي لا حدود له».

فقل لي، أيّها الحيكم، يا معلّم إسرائيل: مَن هو الذي وُلد ودُعي اسمه ولدًا وابنًا عجيبًا وإله العوالم الجبّار وسيّد السلام لازدياد سلطانه وسلامه الذي يُقال لنا إنّه بلا حدود. فإن سمّينا المسيح ابن الله، فداود علمنا هذا، وإن سمّيناه الله، فقد سمعنا ذلك من أشعيا. أمّا السلطان الذي أُعطي على كتفه فلأنّه أخذ صليبه وخرج من أورشليم. وعن الولد المولود، قال أشعيا (٧: ١٤؛ مت ١: ٢٣): «ها أنّ العذراء تحبل وتلد ابنًا ويدعى اسمه عمّانوئيل، الذي هو إلهنا معنا».

١٠ ـ فإن قلت إنّ المسيح لم يأتِ بعد، أعطيك هذه الكلمات من أجل عنادك. فحين جاء كُتب أنّ الشعوب يرجونه (تك ٤٩:

١٠). وها أنا من الشعوب وسمعتُ أنّ المسيح آتٍ. وقبل أن يأتي، آمنت مسبقًا به. وبواسطته أسجد لإله إسرائيل. فحين يأتي، هل يلومني بأنّني آمنت به مسبقًا، قبل أن يأتي؟

فيا أيّها الجاهل! لا يتركك الأنبياء تقول: المسيح لم يأتِ إلى الآن! فدانيال يوبّخك ويقول: «بعد اثنين وستيّن أسبوعًا، يأتي المسيح ويُقتل، وبمجيئه تدمَّر المدينة المقدّسة وتكون آخرتُها الجرف، وإلى أن تتمّ هذه الأقوال تبقى في دمارها» (دا ٩: ٢٦ ـ ٢٧). وأنت تنتظر وترجو أنّ المسيح، عندما يجيء، يجمع إسرائيل من كلّ مكان فتُبنى أورشليم وتُسكن مرّة أخرى. ويشهد دانيال: حين يأتي المسيح ويُقتل، تُخرب أورشليم وتَبقى على خرابها إلى الأبد، إلى أن تتمّ هذه الكلمات.

وعن آلام المسيح قال داود: «ثقبوا يديَّ ورجليَّ، فولولت كلّ عظامي، هم نظروا إليّ ورأوني. إقتسموا ثيابي بينهم وعلى لباسي اقترعوا» (مز ٢٢: ١٧ ـ ١٩). وقال أشعيا (٥٢: ١٣ ـ ١٤): «يُعرف عبدي ويتجلّى ويُرفع بحيث ينذهل منه الكثيرون. دُمِّر فلم يعد منظره منظر رجل، ولم يعد وجهه وجه إنسان». وقال (أش ٥٢: ١٥): «يُطهِّر شعوبًا كثيرة فينذهل منه ملوك كثيرون». وقال في هذا المقطع (أش ٥٣: ١٥): «صعد كولد أمامي وكأصل من أرض عطشى». وقال في مقطع آخر: «قُتل من أجل خطايانا، أُذِلَّ من أجل إثمنا. توبيخ سلامنا عليه وبجراحه تَداوينا» (أش ٥٣: ٥).

بأيّ جراح تداوي البشر؟ فداود لم يُقتل، بل مات في شيبة صالحة ودفن في بيت لحم (١ مل ٢: ١٠). وإن قالوا: شاول، قلنا: شاول مات في حرب مع الفلسطيّين على جبال جلبوع (١ صم ٣١: ٤). وإن قالوا: ثقبوا يديه ورجليه حين علّقوا جسده على سور بيت شان (١ صم ٣١: ١٠)، فهذا لم يتمّ في شاول. حين ثقبوا أعضاء

شاول لم تحسّ عظامه بالألم لأنّه كان قد مات. ومن بعد أن مات شاول، علّقوا جسده وجسد بنيه على سور بيت شان. وحين قال داود: «ثقبوا يديَّ ورجليَّ فولولت كلّ عظامي»، قال بعد هذه الآية: «يا إلهي، إبقَ في عوني ونجِّ نفسي من الخراب» (مز ٢٢: ١٧ ـ ١٨). فالمسيح صعد من الجحيم وعاد وقام في اليوم الثالث وبقي الله في عونه. وشاول دعا الله فما أعانه. وسأل بالأنبياء فلم يُعط له جواب. وتخفّى وسأل العرّافين، فعلم أنّه سيُقهر أمام الفلسطيّين وأنّه سيقتل نفسه بسيفه، حين يرى أنّ الحرب قويت عليه.

وقال داود في هذا المقطع: «أبشّر باسمك إخوتي وفي وسط الجماعة أسبّحك» (مز ٢٢: ٢٣). كيف يمكن أن يتمّ هذا في شاول؟ وقال داود أيضًا: «لم تعطِ تقيك أن يرى فسادًا» (مز ١٦: ١٠). ولكن هذا تمّ في المسيح، حين جاء إليهم فما قبلوه (يو ١: ١١). وحكموا عليه ظلمًا بشهادة زور، فرُفع على الصليب بأيديهم وثقبوا يديه ورجليه بمسامير ثبّتوها فولولت كلّ عظامه. في ذلك اليوم، جرت عجيبة عظيمة: أظلم النور في وسط النهار كما تنبّأ زكريّا (١٤: ٧) وقال: «يعرف الربّ هذا اليوم. لن يكون نهارًا ولا ليلاً، وفي وقت المساء يكون نور». ما هو هذا اليوم الذي تميّز بعجيبة. لم يكن ليلاً ولا نهارًا، وفي وقت المساء كان نور؟ هو اليوم الذي فيه صلبوه. حلّت ظلمة في وسط النهار وفي وقت المساء كان نور. وقال أيضًا: «سيكون في ذلك اليوم بَرْد وجليد» (زك ١٤: ٦). كما تعرف، إن هذا حصل في اليوم الذي صلبوا القدّوس لأنّهم وضعوا نارًا ليتدفّأوا، حين أتى سمعان ووقف قربهم. وقال أيضًا: «يُرفع الرمح على الراعي وعلى أحبّائي النعاج، فيُضرب الراعي وتتبدّد حملان القطيع، وأعيد يدي على الرعاة» (زك ١٣: ٧; مت ٢٦: ٣١؛ مر ١٤: ٢٧).

وقال داود أيضًا عن آلامه: «وهبوني لطعامي مرًّا ولعطشي

أسقوني خلاًّ» (مز ٦٩: ٢٢). وقال أيضًا في هذا المقطع: «مَن ضربته أنت اضطهدوه، وزادوا على آلام موته» (مز ٦٩: ٢٧). فقد زادوا كثيرًا بحيث لم تُكتب عنه كلّها: اللعنات والشتائم التي لم يكشف عنها الكتاب لأنّ شتائمهم كانت قبيحة. أمّا الرب فرضي أن يُذلّه ويمنحه الألم (أش ٥٣: ١٠): قُتل من أجل إثمنا وأُذِلَّ من أجل خطايانا (أش ٥٣: ٥). وجُعلت الخطيئة في نفسه (٢ كور ٥: ٢١).

خاتمة

١١ ـ نحن نسجد لهذه المراحم ونحني ركبنا أمام عظمة أبيه الذي أعاد سجودنا إليه. نسمّيه الله، مثل موسى، والبكر والابن مثل إسرائيل، ويسوع مثل يشوع بن نون، والكاهن مثل هارون، والملك مثل داود، والنبي العظيم مثل كلّ الأنبياء، والراعي مثل الرعاة الذين رعوا شعب إسرائيل ودبّروه.

المقالة العشرون

مساعدة المساكين

تعليم المسيح

٥ ـ وأراد ربّنا يسوع أن يعرّفنا بمثل دينونة اليوم الأخير فميّز البشر وأقامهم عن يمينه وعن شماله. شكر الأخيار وسمّاهم مباركي أبيه الذين يرثون ملكوته لأنّهم أطعموا المساكين. قال للذين عن يمينه: «تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المعدّ لكم منذ البدء. لأنّي جعت فأطعمتموني، وعطشت فسقيتموني، وكنت عريانًا فألبستموني، وكنت غريبًا فاستضفتموني، وكنت مريضًا فزرتموني، وكنت في السجن فزرتموني». لا يدرك هؤلاء الصدّيقون معنى كلمة ربّنا، فيجبونه ويقولون له: «ربّنا، متى رآيناك محتاجًا وصنعنا لك هكذا»؟ حينئذ يجيبهم: «ما صنعتموه لأحد إخوتي هؤلاء الصُغيّرين فلي أنا صنعتموه».

ويلتفت نحو هؤلاء الذين عن شماله ويقول لهم: «إذهبوا عنّي يا ملعونون إلى النار المهيّأة للشرّير وملائكته، لأنّكم لم تصنعوا لي كلّ هذا». حينئذ يجيبه أيضًا هؤلاء الذين عن شماله ويقولون له: «ربّنا، متى رأيناك في أحد من هؤلاء ولم نخدمك». فيجيبهم: «ما لم تصنعوا لهؤلاء المحتاجين فلي أنا أيضًا لم تصنعوه» (مت ٢٥: ٣٢ ـ ٤٥). والصدّيقون الذين خدموا المسيح في المحتاجين ذهبوا إلى الحياة الأبديّة، والأشرار يذهبون إلى النار والظلمة لأنّهم لم يساعدوا المسيح في المساكين.

٦ ـ وقال ربّنا أيضًا مثلاً آخر عن الغني الذي اتّكل على مقتناه. جمع من أرضه غلاّت كثيرة فقال لنفسه: «لك خيرات كثيرة مجموعة لسنين عديدة. فاستريحي يا نفسي وكلّي وتنعمي». قال له الله: «يا جاهل، ها إنّ نفسك تُطلب منك في هذه الليلة. وهذا الذي أعددته لمن يكون»؟ ومن بعد هذا قال: «هذه حال مَن يجمع الكنوز لنفسه ولا يكون غنيًّا بالله (لو ١٢: ١٦ ـ ٢١).

٧ ـ وضرب مثلاً آخر عن الغنيّ الذي تنعّم بالطيّبات والذي انتهت حياته في الجحيم. والمسكين الذين كان مرميًّا عند بابه، كان يرغب ويتمنّى أن يملأ بطنه ممّا يسقط عن مائدة هذا الغنيّ (لو ١٦: ١٩ ـ ٢١). وقال: ولم يعطه أحد. وقال أيضًا: كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه (لو ١٦: ٢١). فالغنيّ الذي تنعم بالطيّبات هو هذا الشعب الذي أكَلَ ورَفس فنَسي الربّ (تث ٣٢: ١٥) ولعن الله كما هو مكتوب: «قال بنو إسرائيل على الله وعلى موسى كلمات غير لائقة» (عد ٢١: ٥). وسمّاهم موسى أغنياء فقال فيهم: «أيّ شعب إلٰهه قريب منه كالربّ إلٰهنا. شرائعه بارّة وأحكامه قويمة» (تث ٤: ٧). وقال لهم أيضًا: «ها أنتم تدخلون أرض الكنعانيّين وترثونها. ستدخلون بيوتًا لم تبنوها وكرومًا لم تنصبوها وآبارًا محفورة لم تحفروها. ستأكلون وتشبعون وتتلذّذون وتنسون الربّ» (تث ٦: ١٠ ـ ١٣). واغتنوا بالطيّبات الكثيرات التي أعطاهم إيّاها.

٨ ـ المسكين الذي كان مرميًّا على بابه يشبه مخلّصنا. كان يرغب ويتمنّى أن يأخذ ثمارًا يوصلها إلى مرسله فلم يهبه أحد. وقال: كانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه. الكلاب التي أتت هي الشعوب الذين لحسوا جراحات ربّنا، وأخذوا جسده ووضعوه على عيونهم. أمّا هم فكلاب شرهة لا يعرفون أن يشبعوا ولا يقدرون أن ينبحوا. فتأمّل. هذه الكلاب التي تلحس جراح هذا المسكين لم تكن طمّاعة،

فلو كانت طمّاعة لرغبت في مائدة الغنيّ لا في أن تلحس الجراح. عن اليهود قال النبيّ: هم كلاب نفسهم طمّاعة ولا يعرفون أن يشبعوا. وقال داود: «يعوون كالكلاب ويحيطون بالمدينة» (مز ٥٩: ٧).

٩ ـ وقال في آخر المقطع: ومات هذا الغنيّ ودُفن وأُلقي في العذاب. ومات هذا المسكين فأوصلته الملائكة إلى حضن إبراهيم. ورفع هذا الغنيّ عينيه من وسط الجحيم ومن العذاب فرأى إبراهيم ولعازر في حضنه. فصرخ بصوت عظيم وقال: «يا أبت إبراهيم، إرحمني وأرسل لعازر ليأتي ويعينني ويرطّب لي لساني في هذا اللهيب الذي يعذّبني كثيرًا». فقال له إبراهيم: «يا بنيّ، تذكّر أنّك نلت خيراتك في حياتك ونال لعازر بلاياه. واليوم أنت تطلب منه فلا يساعدك لأنّ بيننا وبينكم هوّة عظيمة. من عندكم لا تقدرون أن تجيئوا إلينا، ولا من عندنا إليكم». فقال له: «إذًا، يا أبي، أطلب منك أن تُرسله إليّ بيت أبي، فلي خمسة إخوة فيذهب ويشهد لهم فلا يخطأون ويأتون هم أيضًا إلى هذا العذاب». قال له إبراهيم: «عندهم موسى والأنبياء فليسمعوا منهم». قال له: «لا، يا أبت إبراهيم، بل إن نزل واحد من الموتى إليهم يتوبون». قال له إبراهيم: «إن لم يسمعوا لموسى والأنبياء، فحتّى وإن نزل واحد من الموتى إليهم لا يؤمنون به» (لو ١٦: ٢٢ ـ ٣١).

كما قلت لك أعلاه، الغنيّ هو الشعب، والمسكين هو مخلّصنا كما كتب: «أراد الربّ أن يذلّه ويؤلمه» (أش ٥٣: ١٠)، وقال الرسول: «من أجلكم صار الغنيّ فقيرًا لكي تغتنوا بفقره» (٢ كور ٨: ٩). وقال أيضًا: «أذلّ نفسه وأطاع حتّى الموت، موت الصليب» (فل ٢: ٨).

١٠ ـ قال: ومات هذا الغنيّ... حقًّا قال النبيّ فيهم: «يُميتك الربّ الإله ويدعو عبيده باسم آخر» (أش ٦٥: ١٥). عبيده هم

الشعب الذي من الشعوب. وسمّاهم باسم آخر. سمّاهم مسيحيّين أو تلاميذ المسيح، لا حكّام سدوم وشعب عمورة مثلهم، كما تشهد لنا كرازة الاثنيّ عشر رسولاً: هناك في أنطاكية سُمّي التلاميذ للمرّة الأولى مسيحيّين (أع ١١: ٢٦).

١١ ـ ومات المسكين أيضًا فأوصلته الملائكة إلى حضن إبراهيم كما قالت مريم: «أخذوا ربّنا ولا نعرف إلى أين حملوه» (يو ٢٠: ١٣). وقال الرسل أنفسهم لمريم: «قام وذهب نحو الذي أرسله» (مت ٢٨: ٦؛ يو ١٦: ٥). وخَدمَه الملائكة كما قيل أعلاه في الإنجيل: «نزل الملائكة وخدموا يسوع» (مت ٤: ١١). وحين وُلد سبّحه الملائكة أيضًا وقالوا: المجد لله في السماء والرجاء الصالح لبني البشر (لو ٢: ١٤). وبشّر الملاك جبرائيل بولادته (لو ١: ٢٦ ي). وقال لسمعان تلميذه: «ألاَ تفكّر إنّني إن طلبت من أبي جيشًا من ملائكة السماء فهو يعطيني» (مت ٢٦: ٥٣). وقال لتلاميذه أيضًا: «سترَون السماء مفتوحة وملائكة الله نازلين وصاعدين نحو ابن الإنسان» (يو ١: ٥١).

١٢ ـ كتبت لك هذا لأنّه كُتب: حين مات المسكين أوصلته الملائكة إلى حضن إبراهيم. قال: أوصلوه إلى حضن إبراهيم الذي هو ملكوت السماء. وقال إبراهيم للغنيّ: بيننا وبينكم هوّة عظيمة. لا تأتون من عندكم إلينا ولا من عندنا إليكم. هذا يدلّ على أنّه لم يعد من توبة بعد الموت والقيامة. فلا الأشرار يتوبون ويدخلون الملكوت، ولا الأبرار يخطأون ويذهبون إلى العذاب، أيّ إلى الهوّة العظيمة. وطلب منه أن يساعده فلم يُرسل أحدًا لمساعدته. بهذا يدلّ على أنّه، في ذلك اليوم، لا يقدر الإنسان أن يساعد رفيقه. وقال: ليذهب إلى بيت أبي ويكرزهم لئلاّ يخطأوا. قال له: لهم موسى والأنبياء،

فليسمعوا منهم. فقال: إن ذهب إنسان من الموتى يتوبون. المعروف أنّه يتكلّم عن هذا الشعب الذي لم يسمع لموسى والأنبياء ولم يؤمن بيسوع الذي قام من بين الأموات.

المقالة الحادية والعشرون

في الاضطهاد

تشجيع الجماعة في الاضطهاد

٨ ـ كتبت لك كلّ هذا الكلام السابق، يا عزيزي، بسبب تعيير اليهوديّ لأبناء شعبنا. والآن أبيّن لك بحسب إدراكي أنّ المضطهَدين ينالون جزاء حسنًا والمضطهِدين يكونون في الهوان والاحتقار.

٩ ـ إضطُهد يعقوب واضطهَده عيسو. نال يعقوب البركات والبكورية، ورُذل عيسو من الاثنين. إضطُهد يوسف واضطَهده إخوتُه فارتفع يوسف وسجَد له الذين اضطهدوه، وتمّت أحلامه ورؤاه.

يوسف ويسوع

يوسف المضطهَد صورة ليسوع المضطهَد. يوسف ألبسه أبوه قميصًا بأكمام، ويسوع ألبسه أبوه جسدًا من البتول. يوسف أحبّه أبوه أكثر من إخوته، ويسوع هو حبيب أبيه وعزيزه. يوسف رأى رؤى وحلم أحلامًا، ويسوع أتمّ الأحلام والنبوءة. يوسف كان راعيًا مع إخوته، ويسوع ربّ الرعاة. حين أرسل يوسفَ أبوه ليفتقد إخوته رأوه آتيًا فخطّطوا لقتله. ويسوع أرسله أبوه ليزور إخوته فقالوا: هذا هو الوارث تعالوا نقتله. يوسف رماه إخوته في الجبّ، ويسوع أنزله إخوته بين الموتى. يوسف صعد من الجبّ، ويسوع قام من بين الموتى.

بعد أن صعد يوسف من الجبّ، تسلّط على إخوته، وبعد أن

قام يسوع من بين الموتى، وهب له أبوه اسمًا أعظم وأفضل ليُخضع له إخوتَه ويجعل أعداءَه تحت قدمَيه. حين عرّف يوسف نفسه لإخوته، خجلوا وخافوا وانذهلوا من عظمته. وعندما يأتي يسوع في الأيّام الأخيرة ليتجلّى في عظمته، سيخجل ويخاف ويرتعد إخوته الذين صلبوه. بيع يوسف إلى مصر بناءً على نصيحة يهوذا، وأُسلم يسوع إلى اليهود على يديّ يهوذا الإسخريوطيّ. حين باع يوسفَ إخوتُه، لم يقل لهم كلمة. ويسوع لم يتكلّم ولم يقل كلمة للقضاة الذين حكموا عليه. يوسف أسلمه سيّده ظلمًا إلى السجن، ويسوع حكم عليه أبناءُ شعبه ظلمًا. سلّم يوسف ثوبَيه، واحدًا بيد إخوته والآخر في يد امرأة سيّده، ويسوع سلّم ثيابه فاقترع عليها الجند. كان يوسف ابن ثلاثين سنة حين قام أمام فرعون وصار سيّد مصر. ويسوع قارب عمره الثلاثين سنة (لو ٣: ٢٣) حين أتى الأردن ليعتمد وقَبِل الروح وخرج للكرازة. يوسف أطعم المصريّين خبزًا، ويسوع أطعم العالم كلّه من خبز الحياة. أخذ يوسف بنت الكاهن النجس والمشرك، وقرّب يسوع إليه الكنيسة من الشعوب النجسة. مات يوسف وقُبر في مصر، ومات يسوع وقُبر في أورشليم. أصعد إخوة يوسف عظامه من مصر، ويسوع قام من بيت الموتى وأصعد معه جسده بلا فساد إلى السماء.

موسى ويسوع

١٠ ـ واضطُهد موسى أيضًا كما اضطُهد يسوع.

حين وُلد موسى خبّأوه من مضطهديه لئلاّ يقتلوه. وحين وُلد يسوع هرّبوه إلى مصر لئلاّ يقتلَه هيرودس مضطهده. في الأيّام التي وُلد فيها موسى، كانوا يُغرقون الأطفال في النهر، وفي ميلاد يسوع قُتل الأطفال في بيت لحم وجوارها. لموسى قال الله: مات الرجال الذين يطلبون نفسك (خر ٤: ١٩) وليوسف قال الملاك في مصر: قم وخذ الصبيّ واذهب إلى أرض إسرائيل، فقد مات الذين يطلبون نفس

الصبيّ ليُهلكوه (مت ٢ : ٢٠). أخرج موسى شعبَه من عبوديّة فرعون وخلّص يسوعُ الشعوبَ من عبوديّة الشيطان. تربّى موسى في بيت فرعون، وتربّى يسوع في مصر حين هرب به يوسف إلى هناك. وقفت مريم على حافّة النهر حين طاف موسى فوق الماء، وولدت مريم يسوع حين بشّرها الملاك جبرائيل.

حين ذبح موسى الحمل، قُتل أبكارُ المصريّين، ويسوع صار الحمل الحقيقيّ حين صلبوه، وبموته مات الشعب القاتل. أنزل موسى المنَّ لشعبه، ويسوع وهب جسده للشعوب. حلّى موسى المياه المرّة بخشبة، ويسوع حلّى مرارتنا حين صُلب على خشبة. أنزل موسى الشريعة لشعبه، ويسوع وهب عهوده للشعوب. قهر موسى عماليق بمدّ يدَيه، وقهر يسوع الشيطان بعلامة صليبه. أخرج موسى المياه من الصخر لشعبه، وأرسل يسوع سمعان الصخر (بطرس) ليحمل تعليمه إلى الشعوب. أنزل موسى الحجاب عن وجهه فتكلّم الله معه، وانتزع يسوع الحجاب عن وجه الشعوب ليسمعوا تعليمه ويقبلوه. وضع موسى يده على رسله فقبلوا الكهنوت، ووضع يسوع يده على رسله فنالوا الروح القدس. صعد موسى الجبل ومات هناك وصعد يسوع إلى السماء وجلس من عن يمين الآب.

يشوع ويسوع

١١ ـ واضطُهد يشوع بن نون كما اضطُهد يسوع مخلّصنا.

إضطهد يشوعَ بن نون الشعوبُ النجسة، واضطهد يسوعَ مخلّصَنا الشعبُ الجاهل. أخذ يشوع بن نون الميراث من مضطهِديه وأعطاه لشعبه، ويسوع مخلّصُنا أخذ الميراث من مضطهِديه ووهبه للشعوب الغريبة. يشوع بن نون أوقف الشمس والقمر فانتقم من الشعوب التي اضطهدته، ويسوع مخلّصنا غيَّب الشمس في وسط

النهار ليخجل الشعب المضطهد الذي صلبه. يشوع بن نون وزّع الميراث لشعبه، ويسوع مخلّصنا وعد أن يعطي الشعوب أرض الحياة. يشوع بن نون منح الحياة لراحاب الزانية، ويسوع مخلّصنا جمع الكنسة الزانية ومنحها الحياة. يشوع بن نون ضرب في اليوم السابع أسوار أريحا ودمّرها، وفي يوم يسوع مخلّصنا السابع، في بيت راحة الله، سيحلّ العالم ويسقط (عب ٤: ٨). يشوع بن نون رجم عاكان الذي سرق ما هو محرّم، ويسوع مخلّصنا فصل يهوذا عن التلاميذ رفاقه لأنّه سرق من كيس المساكين. حين مات يشوع بن نون، سلّم الشهادة إلى شعبه (يش ٢٤: ٢٢ ي)، وحين صعد يسوع مخلّصنا، سلّم الشهادة إلى رسله (مر ١٦: ١٤؛ مت ٢٨: ١٨ ي).

يفتاح ويسوع

١٢ ـ واضطُهد أيضًا يفتاح كما اضطُهد يسوع.

يفتاح طرده إخوته من بيت أبيه، ويسوع طرده إخوته ورفعوه صلبًا. إضطُهد يفتاح فصار رئيسًا لشعبه، واضطُهد يسوع فقام وصار ملكًا على الشعوب. نذر يفتاح نذرًا وأصعد ابنته البكر قربانًا، ويسوع ارتفع قربانًا لأبيه من أجل كلّ الشعوب.

المقالة الثانية والعشرون

في الموت والأزمنة الأخيرة

مكان الأبرار

١٢ ـ في هذا المكان ينسى الأبرار هذا العالم، وهناك ليس فيهم حاجة إليه. يحبّون كلّ واحد بمحبّة فائضة وليس في أجسادهم ثقل، بحيث يطيرون سريعًا بخفّة الحمام إلى كواهم (أش ٦٠: ٨). وهناك لا يتذكّرون الشر إطلاقًا في عقولهم ولا يخطر ببالهم أيّة نجاسة. لا رغبة طبيعيّة في هذا المكان، وهناك يُفطمون من كلّ الرغبات. لا يخطر ببالهم الغضب ولا الفسق، وكلّ ما يلد الخطايا يتعدّاهم. يفور فيهم حبّ بعضهم ولا يقبع فيهم البغض إطلاقًا. لا يحتاجون هناك إلى بيت يبنونه لأنّهم يقيمون في النور، في ديار القدّيسين. لا يحتاجون إلى لباس منسوج لأنّهم يتجلببون بالنور الأبديّ. لا يحتاجون إلى طعام لأنّهم يجلسون إلى المائدة ويقتاتون منها إلى الأبد. الهواء هناك شهيّ بهيّ والنور يشعّ بهيًّا فتّانًا. زُرعت هناك أشجار جميلة ثمرها لا ينقطع وورقها لا يسقط. أغصانها وارفة ورائحتها عذبة وطعمها لا تملّ منه النفس إلى الأبد. المكان واسع وغير محدود، ويقدر سكّانه أن يروا ما هو بعيد وما هو قريب. هناك لا يُقسم الميراث ولا يقول أحد لرفيقه: هذا لي وهذا لك. لا يؤسرون بالرغبة الجامحة ولا تقع الذاكرة في خطأ. لا يحبّ الواحد رفيقه بخوف كثير، بل يحبّون بعضهم بعضًا باندفاع وبشكل واحد. لا يأخذون هنا نساء ولا يلدون بنين. هناك لا يميّز الذكر عن الأنثى، بل يكونون كلّهم أبناء الربّ السماويّ، كما

قال النبيّ (ملا ٢ : ١٠). «أليس لنا كلّنا أب واحد، أو ليس إله واحد خلقنا»؟

١٣ ـ قلت لك إنّهم هناك لا يأخذون امرأة ولا تُميَّز الأنثى عن الذكر. فربّنا وتلميذه علّمانا هذا. قال ربّنا: «الذين يستحقّون هذا العالم وهذه القيامة من بين الأموات لا يأخذون نساء، ولا تكون النساء لرجال لأنّهم لا يقدرون أن يموتوا، بل يكونون كالملائكة الذين في السماء وأبناء الله». (لو ٢٠ : ٣٥ ـ ٣٦). وقال الرسول: «لا ذكر وأنثى، لا عبد ولا حرّ، بل كلّكم واحد بيسوع المسيح» (غلا ٣: ٢٨).

فحوّاء فصلها الله عن آدم من أجل الإيلاد لتكون أمّ كلّ حيّ. ولكن، في ذلك العالم، ليس من أنثى، كما أنّه ليس من أنثى في السماء ولا إيلاد ولا استعمال الرغبة. في ذلك المكان ما من حاجة إلى شيء، بل يكون كلّ شيء بكمال وتمام. الشيوخ لا يموتون والشبّان لا يشيخون. يعتبر الشبّان أنّهم يشيبون ويموتون، فيأخذون نساء ويلدون أبناء، بحيث إنّه حين يموت الآباء يقوم الأبناء مكانهم. هذه كلّها مستعملة في هذا العالم. أمّا في ذلك المكان، فلا حاجة ولا فقر ولا رغبة ولا إيلاد ولا نهاية ولا دمار ولا موت ولا انتهاء ولا شيخوخة ولا بغض ولا غضب ولا حسد ولا شقاء ولا تعب ولا ظلمة ولا ليل ولا كذب. في ذلك المكان، لا حاجة إطلاقًا، ولكن ذلك المكان مليء بالنور والحياة والملء والشبع والفرح والرحمة وكلّ المواعد الصالحة التي كُتبت والتي لم يُشرَ إليها.

هناك ما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولم يخطر على قلب بشر (١ كور ٢ : ٩)، شيء لا نستطيع أن نتكلّم عنه ولا يقدر الإنسان أن يقوله. قال الرسول: «ما هيّأه الله للذين يحبّونه». حين يُكثر البشر الكلام لا يقدرون أن يقولوه، وما لم تره عين لا يستطيعون أن يخبروا

به، وما لم تسمعه أذن، هل يشبه ما سمعته الأذن ورأته العين؟ ليس لهم أن يقولوه. وما لم يخطر على القلب، من الذي يجرأ على أن يتكلّم عنه؟ هل يشبه ما يخطر على القلب؟ بل يليق بالخطيب أن يستعمل التشابيه فيدعو هذا المكان مسكنَ الله وموضع الحياة وموضع الكمال وموضع النور وموضع البهاء، سبت الله ويوم الراحة وراحة الصدّيقين وعذوبة الأبرار، ومسكن الأبرار وديار الصدّيقين وموضع رجائنا وبيت اتّكالنا القويّ وموضعَ كنزنا والموضع الذي يمحو تعبنا ويزيل ضيقاتنا ويطفئ نواحنا. يجب أن نعود إلى هذه التشابيه لنسمّي هذا المكان.

فهرس المحتويات

المقدّمة ٥
الفصل الأوّل: سيرة حياته ٧
الفصل الثاني: الوضع السياسيّ والاجتماعيّ في أيّام أفراهاط ١٤
أ ـ الأمبراطوريّة الرومانيّة ١٥
ب ـ مملكة فارس ١٦
ج ـ الحالة الاجتماعيّة ١٧
الفصل الثالث: الوضع الدينيّ في أيّام أفراهاط ٢١
أ ـ وضع الكنيسة في أيّام أفراهاط ٢١
ب ـ المقالات أجوبة على وضع الكنيسة ٢٤
ج ـ أبناء العهد أو جماعة القيامة ٢٨
د ـ جماعة القيامة والمعموديّة ٣٢
الفصل الرابع: كتاب المقالات ٣٥
أ ـ نصّ المقالات ومخطوطاتها ٣٥
ب ـ كم مقالة كتب أفراهاط؟ ٣٧
ج ـ بنية كتاب «المقالات» ٤١
د ـ أسلوب المقالات ٤٣
الفصل الخامس: مضمون المقالات ٤٦
أ ـ المجموعة الأولى ٤٦
ب ـ المجموعة الثانية ٥٣
ج ـ المجموعة الثالثة ٦١
الفصل السادس: أفراهاط والكتاب المقدّس ٦٣
أ ـ النصوص الواردة ٦٣

ب ـ شخصيّات الكتاب المقدّس ٦٨
ج ـ تفسير الكتاب المقدّس ٧٩
الفصل السابع: أفراهاط: الإيمان والعقيدة ٨٤
أ ـ فعل إيمان السائل ٨٥
ب ـ فعل إيمان الحكيم ٨٨
الفصل الثامن: اللاهوت عند أفراهاط ٩١
١ ـ الله ٩١
٢ ـ من الخلق إلى الخلاص ٩٥
٣ ـ الروح والمسيح ٩٦
٤ ـ القيامة ٩٩
٥ ـ المعموديّة والإفخارستيّا ١٠٠
٦ ـ مسيرة الإيمان ١٠٤
الفصل التاسع: وجه الإنسان عند أفراهاط ١٠٨
١ ـ نظرة متحرّكة ١٠٨
٢ ـ كلمات تعبّر عن الإنسان ١٠٩
أ ـ آدم والإنسان ١١٠
ب ـ النفس ١١١
ج ـ الروح ١١٢
د ـ الجسد ١١٢
هـ ـ الجسم البشريّ أو اللحم ١١٣
و ـ القلب ١١٤
٣ ـ رقاد النفس ١١٦
أ ـ النفس في القبر ١١٦
ب ـ رقاد الروح النفسيّ ١١٨
الخاتمة ١٢١
مختارات ١٢٣
المقالة الأولى: في الإيمان ١٢٥
المقالة الثالثة: في الصوم ١٢٩

المقالة الرابعة: في الصلاة ١٣٢
المقالة السادسة: أبناء العهد أو المتنسِّكون ١٣٥
المقالة السابعة: في التائبين ١٤٠
المقالة الثامنة: في قيامة الموتى ١٤٥
المقالة التاسعة: في التواضع ١٤٨
المقالة العاشرة: في الرعاة ١٥٢
المقالة الحادية عشرة: في الختانة ١٥٤
المقالة الثانية عشرة: في الفصح ١٥٦
المقالة الرابعة عشرة: في البراهين المقنِعة ١٥٩
المقالة السابعة عشرة: في المسيح ابن الله ١٦٨
المقالة العشرون: مساعدة المساكين ١٧٢
المقالة الحادية والعشرون: في الاضطهاد ١٧٧
المقالة الثانية والعشرون: في الموت والأزمنة الأخيرة ١٨١

فهرس المحتويات ١٨٥

صدر في سلسلة «التراث السريانيّ»

١- يعقوب السَّروجيّ كنّارة الروح وقيثارة البيعة،
للدكتور بولس الفغالي.
٢- أفراهاط الحكيم الفارسيّ،
للدكتور بولس الفغالي (ط٢).
٣- ثيودورُس أسقف المصّيصة ومفسِّر الكتب الإلهيَّة،
للدكتور بولس الفغالي.
٤- نرساي المعلِّم، لسان الشرق وشاعر المسيحيَّة،
للدكتور بولس الفغالي.

تصميم الغلاف : جان قرطباوي

الصفّ والإخراج : شركة الطبع والنشر اللبنانيّة
(خليل الديك وأولاده)

الطباعة : مؤسّسة دكّاش للطباعة

٨٦٤-١-١٥/٣/٢٠٠٢